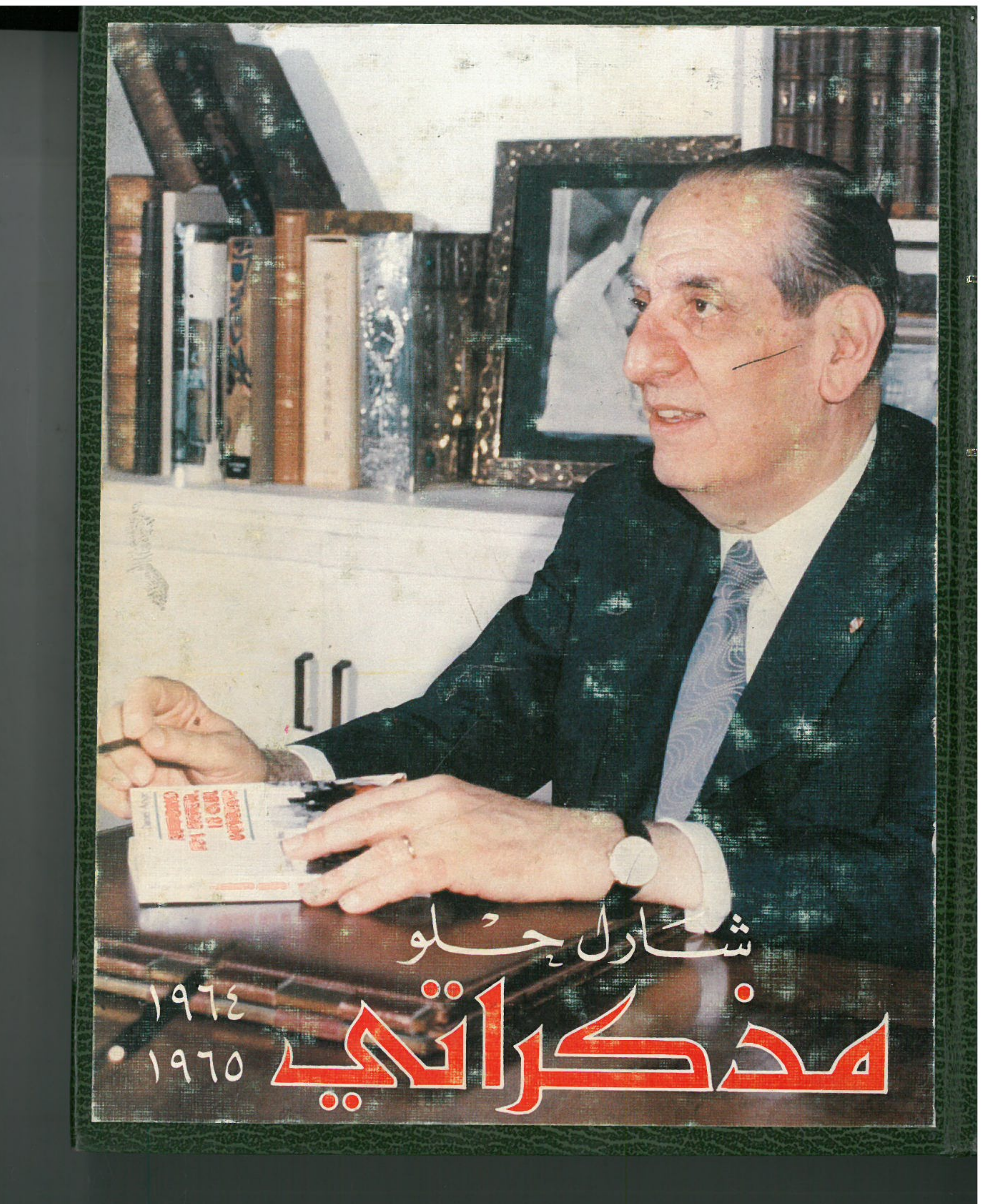
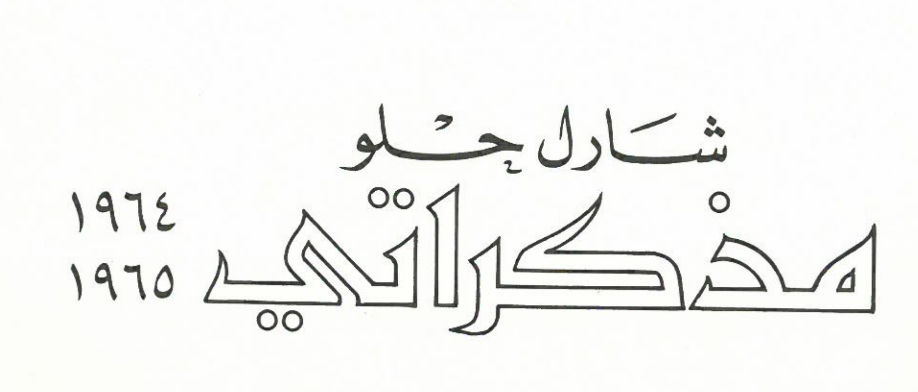

شارل حلو
١٩٦٤
١٩٦٥
مذكراتي


شارل حلو
مذكراتي
١٩٦٤
١٩٦٥

محتويات الكتاب

تمهيد
٩ الكسليك ، آب ١٩٨٤
مقدمة
١٩ رحلة خلال الذكريات
الفصل الأول
٢٩ بعض المعطيات حول السياسة
الداخلية والخارجية اللبنانية لعام ١٩٦٤
الفصل الثاني
٤٣ مؤتمر قمة عربيّة في الاسكندرية
قبل تسلّمي سلطاتي الدستورية
الفصل الثالث
٧١ رئاسة الجمهورية في نهاية عام ١٩٦٤
الفصل الرابع
٩١ من سنّ الفيل الى القاهرة
الفصل الخامس
١٠٥ زيارة للجنرال ديغول ولباريس

الفصل السابع
١٢٩ في المدينة الخالدة مع بيوس الثاني عشر ،
يوحنا الثالث والعشرين ، بولس السادس

الفصل السابع
١٦١ صيف المنعطف

الفصل الثامن
١٨٥ مؤتمر الدار البيضاء

الفصل التاسع
١٩٩ جولة أفق على سنة ١٩٦٥

تـمْهيـد

الكسليك ، آب ١٩٨٤

إحدى عشرة سنة مضت منذ ذلك الشتاء من عام ١٩٧٣ ، الذي كتبت خلاله الفصول الأولى من هذه المذكّرات الممتدّة من شهر آب ١٩٦٤ ، تاريخ انتخابي رئيسًا للجمهورية ، حتى شهر كانون الأول ١٩٦٥ .

تستعيدُ هذه الفصول ظروفَ انتخابي ، وقمّتَي الاسكندرية (ايلول ١٩٦٤) والدار البيضاء (ايلول ١٩٦٥) ، وقمّة دول عدم الانحياز (تشرين الثاني ١٩٦٤) ، والزيارات الرسمية الى القاهرة وباريس والفاتيكان (ايار ١٩٦٥) ، والانتخابين النيابيين الفرعيَّيْن في زحلة وجبيل (١٩٦٥) ، وتأليف حكومة كرامي الأولى في عهدي (تشرين الأول ١٩٦٥) .

* * *

١٩٧٣ – ١٩٨٣ ، إحدى عشرة سنة قد مرّت ! سنواتٌ من العذاب لا توصَف تخلّلتْ هذه الفترة من تاريخنا ! تُراها سنوات او قرون او حلقات جهنميّة ؟ أنّى لنا

ان نعرف؟ في ما يتعدّى كلَّ همجيّة ، وفي زمنٍ وكأنّه ليس من العمر ، عرفنا كلَّ أصناف الهول : أقسى أشكال العنف مشفوعةً بأدهى الأكاذيب .

لقد اعتُدي علينا في بلدنا ، وفي بيوتنا ، واتُّهمنا بأنّنا نحن كنّا المعتدين !

في البلدان الشرقيّة لم يكنْ لنا أن نتوقّعَ أيّ حياد ، وفي البلدان الغربيّة لم يكنْ لنا أن نأملَ في أيّ عونٍ فعّال . وفي الوقت نفسه ، كان بعضُ مراسلي الصحف والمندوبين والمحرّرين الرابضون في مناطقَ قريبةٍ او نائيةٍ من بلدان الغرب والشرق ، يتعهّدون بملء حناجرهم وسيل مدادهم بإسدال الظلام على احتضارنا . وهكذا ، ترك « العالم الحرّ » الحريّةَ تُنحر عندنا لأن به كانت حاجةٌ الى المال .

كلاّ ، لم يكنْ هذا « العالم الحرّ » يحتاج الى النفط . أو بالأحرى ، لم يكنْ الى شرائه أحوج من عالم النفط ذاته إلى بيعه . لكن ، في « العالم الحرّ » كانت الدول تحتاج إلى أن تُوازنَ تجارتَها الخارجيّة ببيعها التكنولوجيا ، والبلاغات الرسمية ، والاقتراعات في هيئة الأمم المتحدة او بيع الأسلحة (بما فيها تلك التي كان من الممكن استخدامها لإبادتنا) . وكانت الأحزاب السياسيّة تحتاج إلى تمويل انتخاباتها ، والصحافيّون إلى تحسين أوضاعهم الماليّة ، كما انّ وسطاء من مختلف المشارب كانوا يحتاجون الى تأمين دخلهم الشهري . لا بُدّ اذًا لهولاء الناس من أن يعيشوا ، أليسَ كذلك ؟ هذا العالم الغنيّ المسكين كان مضطرًا الى مقايضة قيمه الأخلاقية بقيَم ماديّة يحسبها أضمنَ له .

من أجل هذه الأسباب لم يكنْ مهمًّا أن نموت . وعلى حججنا « الضعيفة » للحفاظ على كياننا باسم ما سجّلناه في التاريخ ، باسم تطلّعاتنا ، كانوا يردّون علينا من كل صوبٍ بحججٍ « أقوى » . ردّدوا علينا مرارًا أنّنا مسؤولون عن مصائبنا ، وأنّه لا بُدّ لنا ، قبل أن يصغي إلينا الغير في الخارج ، من التفاهم في ما بيننا ، ومن التوفيق ، بل المصالحة بين القتلة والقتلى . كنّا نودّ أن نفعل ذلك ، لكن كيف؟ لقد

آلَ بنا الأمر الى أننا تعوّدنا أن نُقصَفَ بالقذائف ونُلام ، مردّدين تحت القصف حكمةً لفوفينارغ تقول : « نخاصم التعساء لنعفي ذاتنا من الاشفاق عليهم » .

كم مرةً سواء أكنت في لبنان أم في الخارج ، ألفيتُ نفسي أغمضُ عينيَّ ثم أفتحها على الأمل ، الأمل المجنون بأنّ الكابوس سوف يضمحلّ ، وأشباح الليل سوف تغيب في المفاجأة السارّة بيقظةٍ هادئة ، وفجرٍ يُشرقُ من جديد . وكنتُ أغمضُ عينيَّ وأفتحها ، لكن على الرؤى الجهنميّة ذاتها .

ومرّات عديدة أيضًا ألفيتُ نفسي أتساءلُ عمّا يمكن ان يعني البقاء في الحياة بالنسبة إليّ : ألكي نشهدُ احتضارَ الآخرين ؟ أم موت الآخرين ؟ وأيّ طعم يمكن ان يكون لكلّ ساعةٍ تمرّ ؟ نعم ، أيّ طعم غير طعم التراب والرماد ، طعم المرارة والدم !

في أكثر من مرّة لم أتردّد في القول « لا جرح في أيّ مكان من لبنان لا يحزُّ في جسدي وفي نفسي ! » .

وأيضًا : « كلّ من فقد ابنًا في هذه الحرب ، كان من الجائز ان يتأثّر لو علم أنني كنتُ أرضى بطيبةِ خاطرٍ – نعم ، بطيبةِ خاطر – بذلَ نفسي ليبقى ولدُه حيًّا . . . » .

وكنت أُجاهد ما استطعت بالكلام والكتابة ، سلاحي الأوحد ، في الدفاع عن حقيقتنا اللبنانية ، في الداخل حتى وفي الخارج .

خلال هذه السنوات الاحدى عشرة لم أتخلَّ أبدًا عن الواجبات الملقاة عليّ . انتخبت سنة ١٩٧٢ رئيسًا للجمعية الدولية للبرلمانيين الناطقين بالفرنسية كليًّا أو جزئيًّا ، فتلقيت انتخابي ثم إعادة انتخابي كواسطةٍ فعّالة لخدمة بلادي . هذه المهمّة إزاء مئتي مليون من الناطقين بالفرنسية والموزّعين عبر العالم ، اضطلعت بها لخدمة لبنان وإشعاعه في كل القارات ، وللدور الثقافي والانساني الذي يقوم به . لقد تبيّن لي ما في ذلك من غنًى أن يُصبح لبنانيٌّ مرجعًا ومقصدًا للأقسام الأربعين في جمعيتنا ،

أجل إنها لخدمة جلّى أن يرئس هذا اللبنانيّ الجمعياتِ العامّةَ الملتئمةَ قانونيًّا في مختلف البرلمانات، في قدس أقداس التمثيل الوطنيّ لكلّ بلد، وأن يتبوّأ كرسيّ رئاسة مجلس النواب أو الشيوخ، وأن يُدير المناقشات. هذا كلّه، أؤكّد، أنني قمتُ به كواجب وطني. فمنذ وقتٍ طويل لم يعُدْ لشخصي أهمية تُذكر في نظري، أقلّه على صعيد ما هو «باطل الأباطيل»: أجل هو لبنان حقًّا، كلّ لبنان، مَن كان يستقبلهُ الملوك ورؤساء الجمهوريات في شخصي الضعيف بعد مضيّ زمنٍ كثير على ولايتي الرئاسية. هو لبنان من كان ينتشر بكلّ ألقه، في بلدانٍ درستُ مطوّلاً ماضيها وحاضرها، في تاريخ وجغرافية لم يعودا ما عرفتها في كتب الدرس القديمة، ليصبحا تاريخَ وجغرافيةَ رحلاتي وعلاقاتي الشخصية.

هذه المناسبات هي التي جعلت العالم يعرفنا أكثر ويُحبّنا أكثر في العديد من الأقطار، من دكار الى بروكسل، ومن جزيرة موريس في قلب الاوقيانوس الهندي الى جزيرة جرسيه في وسط الأطلسي، ومن فال دوست وجنيف وموناكو الى المناطق النائية في شمال كندا، وفي فرنسا نفسها حيث اغتنمت الفرص لأُدافع عن القضية اللبنانية المحقّة.

وفي نيسان من عام ١٩٧٦ نالت جمعيتنا الموافقة على عقد إحدى جمعيّاتها العمومية في مركز الأمم المتحدة في نيويورك. فحاولتُ، خلال سبعة أيّام، مُضاعفةَ اتصالاتي مع جميع مَن كانوا يتفهّمون أوضاعَ لبنان ويستطيعون مساندته. وألقيتُ أيضًا، في الصالة الصحفية للأمم المتحدة، محاضرةً أمام خمسين صحفيًّا دوليًّا، أنهيتُها بنداءٍ لصالح لبنان ضمّنته ما يختلجُ في نفسي من مشاعر وما يدور في ذهني من أفكار.

واستحدثتِ الجمعيةُ في تموز من عام ١٩٧٧ وسام «البلياد» — هذه التسمية الموروثة عن الإغريق والتي تستوحي اسمها من مجموعة النجوم — في خدمة الحوار بين

الثقافات. وقد استفدتُ من هذه المناسبة ايضًا لجعلها نوعًا من وسام شرف لصالح الإشعاع اللبناني. وكنتُ حصلت على عددٍ غير قليل من الامتيازات، في قصر فرساي وفي باريس، حيث قلّدتُ وسامَ «البلياد» رؤساءَ الدول الناطقة بالفرنسية بدءًا برئيس الدولة الفرنسية في الاليزه، ثم السيد ريمون بار رئيس الوزراء آنذاك، وجميع أسلافه في اجتماع حافل في قصر ماتينيون. كان الوسامُ فرنسيَّ النطق، لكنّ العناقَ الذي رافقه كان لبنانيًّا حقًّا.

حملت معي إلى أرجاء العالم الأدلّةَ والأرقام التي تُبرز إمكانيات الخلق — امكانيات عددٍ لا يُستهان به من اللبنانيين — في مختلف الحقول بالرغم من الأخطار والمِحن، وتُبيِّن أهميّةَ رسالتنا في الشرق الأوسط وفي العالم، وتُظهر غنى مواردنا وخاصةً في المجالات الثقافية (كتب، رسم، نحت، موسيقى، مسرح)، مؤكّدًا أنّ شعبًا خلاّقًا ليس بشعبٍ مائت.

انتُخبت وأُعيد انتخابي ٧ مرّاتٍ رئيسًا للجمعية الدولية للبرلمانيين الناطقين بالفرنسية. وكنت أعود الى لبنان كلما تيسّر لي ذلك، مُبحرًا مثل غيري من اللبنانيين، أكثر من مرة في زوارق حُوّلت إلى بواخر أجهل قدر حمولتها وإمكانيّات مقاومتها للتيّارات البحرية المسماة «ميلتام» وطاقات طاقمها الذي كان يقتصر احيانًا على رجل واحد. وجُلّ ما كنّا ننتظره من الربّان، أيًّا كان، هو أن يوصلنا الى ميناء الكسليك بأضوائه المرتعشة فوق المياه. وذلك دون أن ندري كثيرًا هل نُشطّط في لبنان مشتعلٍ أم — اذا كان قدرنا الغرق — في فردوسٍ مُشعّ.

لم أكن أُردِّد في ذاتي قولَ أحد رؤساء الوزراء البريطانيين: «حسنٌ لنا أن نحيا كما أن نموت»، لم أكن أشعر حقًّا أنه «حسنٌ ليَ ان أحيا». في شباط من عام ١٩٧٩، فيمَا كنت أختم مؤتمرًا للبلدان الناطقة بالفرنسية لأتوجّه بعده الى مكسيكو لحضور المؤتمر الماروني العالمي الأول، جرى حديثٌ غريب بيني وبين أحد كبار الجرّاحين في

فرنسا . كان عليّ أن أخضع لفحصٍ صحّي بسيط قبل أن أواجه مرتفعات المكسيك الشاهقة . أظهر الفحص لطخةً في إحدى الرئتين اضطررتُ بسببها الى أن أخضع لفحوصات أخرى . ثمّ قال لي الجرّاح : « يجب ان أُجري عملية لك » . كان على حقّ ان يرى في هذه اللطخة العنيدة ما يُثير الريبة ، وكان على حقّ أيضًا في السعي للبحث عنها حيث هي . وكان عليّ بالفعل أن أذعن لقراره وألغي السّفر ، غير أنني سمعتُ الجرّاح – ولا أزال أسمعه بعد – يُضيف : « لديك حظ خمسون بالمئة أن تكون مصابًا بسرطان الرئة » .

حظٌّ خمسون بالمئة من الإصابة بالسرطان؟ !

بالحقيقة ، وبكلّ صدق ، لم أتوصّل في حينه – ولا اليوم – الى أن أتبيّن ما الذي أثّر فيّ أكثر في هذا التشخيص : هل التشخيص نفسه والخطر الذي أنذر به؟ هل الحيلولة دون الذهاب الى مكسيكو؟ أم هو – فليصدّقني المرتابون – لأنّ جرّاحًا فرنسيًّا كبيرًا في إعلانه عن سرطانٍ مُحتمل ، تكلّم عن « حظّ » لا عن « خطر التعرُّض له»؟ لربّما كنت مصابًا في شعوري وثقافتي ، في رسالتي وحياتي . ذاك انّ المعرّضين لخطر الموت يتعلّقون أحيانًا بالتفاصيل – حتى التفاصيل اللغويّة.

لم أُسافر ، للأسف ، الى مكسيكو . لكن بين هذا التشخيص والعمليّة الجراحيّة ، كان لا بدّ من عشرة أيّام تحضير ، وقد أتاحت لي هذه المهلة أن أرئس اجتماعات مكتب جمعيتنا في موناكو خلال شهر آذار ١٩٧٩ . في جلسات العمل ؛ في الحفلات وفي الولائم ؛ كنت أفكّر أحيانًا في مشكلتي : أقصد المشكلة اللغويّة ، مشكلة معنى الكلمات الحقيقي ، مشكلة « احتمالات الحظ » و « احتمالات الخطر » ، (بقدر مشكلة السرطان ذاته أو أكثر) . وكانت رسالتي في خدمة بلادي لا تُبارح أفكاري ، وقد رحّب بي رئيس فرعنا في موناكو خلال الخطب بصفتي « المدافع المثير المشاعر عن بلدي » ، تسميةٌ طالما وجّهت إليّ وكانت تُصيبني في الصميم.

كانت الجمعيات العامة التي عقدناها منذ سنة ١٩٧٥ وحتى اليوم تقف مرارًا تهتفُ للبنان عندما كنت ، خلال خطبي ، آتي على ذكر مأساة بلدنا . بيدَ أنّ هذا الشعور بالاعجاب والحماس للبنان كان يتحوّل شيئًا فشيئًا إلى إشفاقٍ وإقرار بالعجز حيال مأساتنا . كان شعورٌ أخويٌّ يدفعهم الى إعادة وتكرار بعض تصريحاتي أو أقوالي المأثورة ، لكنّ ذلك لم يكن ليكفيني.

تردّدتُ مرارًا ، في لبنان ، ذكرَ بعض الجهد أو النتائج التي أحرزتها في الخارج . وقد اقتضى حديثًا أنّ وزير الاعلام اللبناني أعلن رسميًّا في ندوةٍ صحافيّة في شهر آب من عام ١٩٨٤ ، وبحضور نقيب الصحافة ونقيب المحرّرين ، حدثًا أدبيًّا وسياسيًّا في آن : إنشاء « جائزة شارل حلو الدولية » . هذه الجائزة التي أنشأتها وكالةٌ دوليّة تمثّل ٤٠ بلدًا من بينها ٦ دول أعضاء في الجامعة العربية ، كانت وستبقى بالنسبة إليّ ، وبعيدًا عن ذاتيّة شخصي ، جائزةً دوليّةً للبنان كلّه.

إنّ المآسي التي لا تزال تجلّلنا بالحداد ، ومشاكلنا وطرائق حلولها المحتملة ، لا يُمكن عرضها في بضع صفحات ، بل في مجالاتٍ أخرى . فهذه الصفحات ليست تحليلاً لهذه السنوات الإحدى عشرة ، إنّما هي مقدّمة لكتاب مذكراتي تُتيح لي من خلالها دعوةَ مواطنيَّ إلى المشاركة في بعض التأمّلات . أيّة تأمُّلات؟ ها هي .

في غضون هذه السنوات الإحدى عشرة لم أتوقّف عن القول أنّه لا بُدَّ لنا ، في لبنان ، من أن نعيد مطالعة التاريخ العام مطالعة أدقّ ، لا من خلال بدايات الفصول ، ولا العناوين البارزة ، ولا تصاريح الرجال العظام الطنانة ، بل من خلال نواياهم المبيتة التي كان ينبغي لنا ان نعرف كيف نفضحها . وكنتُ ، خلافًا لما يُصدره عددٌ من مواطنيّ اللبنانيين من أحكام عاطفيّة ، أعرفُ جيّدًا ومن زمن بعيد ، أنّ ليس للدول صداقات ، وأنّ مصالحها وحدها هي التي تتحكّم بسياستها العامة وبالمواقف التي تتّخذها ويا للأسف حيالنا . إنّ همّ هذه الدول الوحيد هو مصلحة شعوبها التي تتّخذ اسم « الانانية المقدّسة » .



الرُّعب والحبّ اجتمعا.

تأمُّلات أخرى :

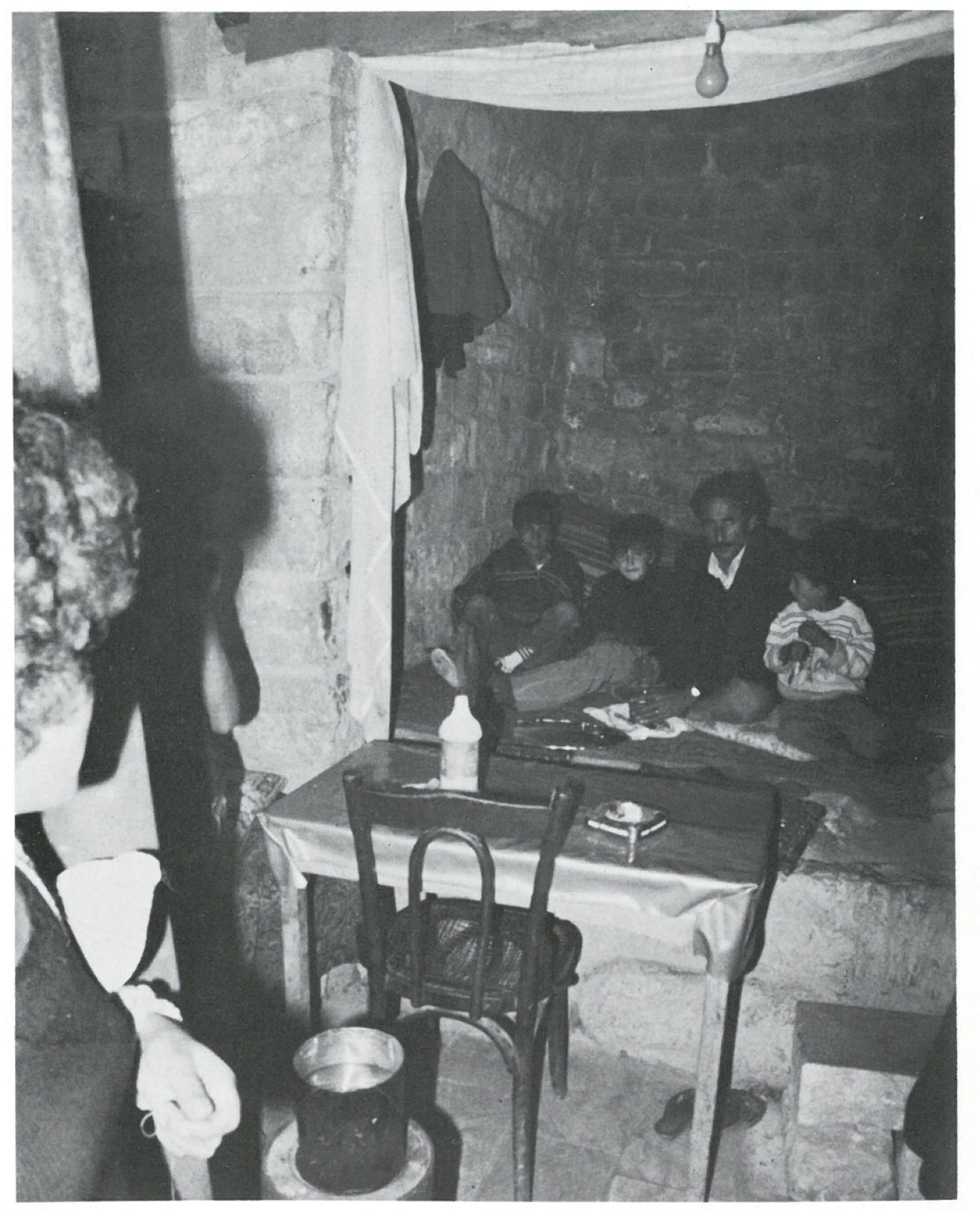
في خضمّ أحداثنا اليوميّة ينبغي أن نواجه بحذر ما أعتبرُه حقائق من الدرجة الأولى. أقصد مواجهةَ ما نعتقد أننا نعرفه عن الأحداث، وعن معطيات مشاكلنا وحلولها التي ليست في الغالب سوى ظلال حلول.

ظلال حلول؟ أجل، ظلال! تلك كانت التجربة المأساوية لمحاولات السلام في الشرق الأوسط، لأنّهم سعوا وما زالوا لايجاد حلول جغرافية وسياسية لنزاع اسرائيلي – عربي هو في جوهره حتى الساعة نزاعٌ عنصري وديني، وكأنه نزاعٌ بين انبياء. فأيّ حلّ يُمكن تصوّره، في الظروف الحاضرة لأرض القدس المقدّسة؟ واي حلّ لأرض الخليل المقدّسة؟ وأيّ حلّ لأرض فلسطين التي هي، بأسرها، أرض مقدّسة؟ قلت ولا أزال أقول ان الحلّ الوحيد المعقول هو في تطوُّر الضمائر والعقول والقلوب تطوُّرًا يُهيب بالأطراف المتواجهة الى تعايش سلمي بين الديانات الكبرى الثلاث، وذلك إلى تطوّر روحي وفكري يفسح في المجال إلى تعايُش الأديان، كما كان الوضعُ في لبنان، وكما يجب أن يعود إليه؛ فيكون الحلُّ الوحيد في «لبننة» الشرق. أما محاولات الحلول الأخرى فليست سوى ترادف مدٍّ وجزر. وسوف يعرف مؤرّخو المستقبل ويقولون إنّ الشيء الوحيد الذي كان له في النهاية شأن. في الشرق الأوسط، انما كان الخطوة التي خطاها كلٌّ واحدٍ من الأطراف نحو الآخر، عبر تقلّبات، وعنف مفاوضات تتلمّس طريقها.

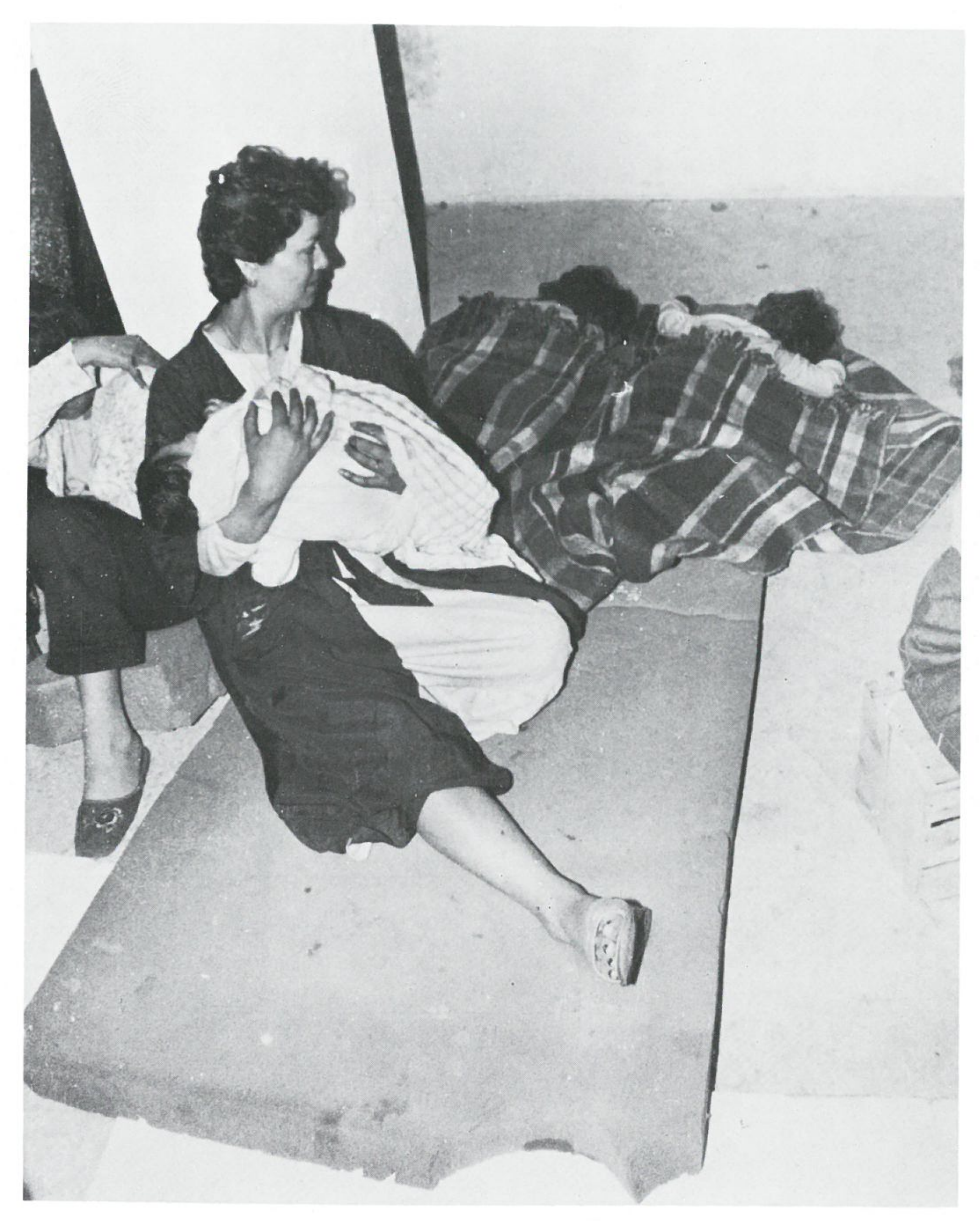
من هذا المنظور، إنه الاحتمال الأول لنشر السلام مهما بدا بعيد التحقيق، وأظنّ أنّ مشاريع عظماء هذا العالم وحساباتهم، فيمَا يختص بالشرق الأوسط، مهما بدت واقعية، تدخل في إطار علم الخيال. لذلك تراني أسجّل التصاريح الطنانة والبلاغات الرسمية والخطط المتنوّعة بحزنٍ دون أن أنخدع بها، وأكاد أشفق على الذين يرسمون الخطط، وعلينا نحن الذين نعاني عواقبها.



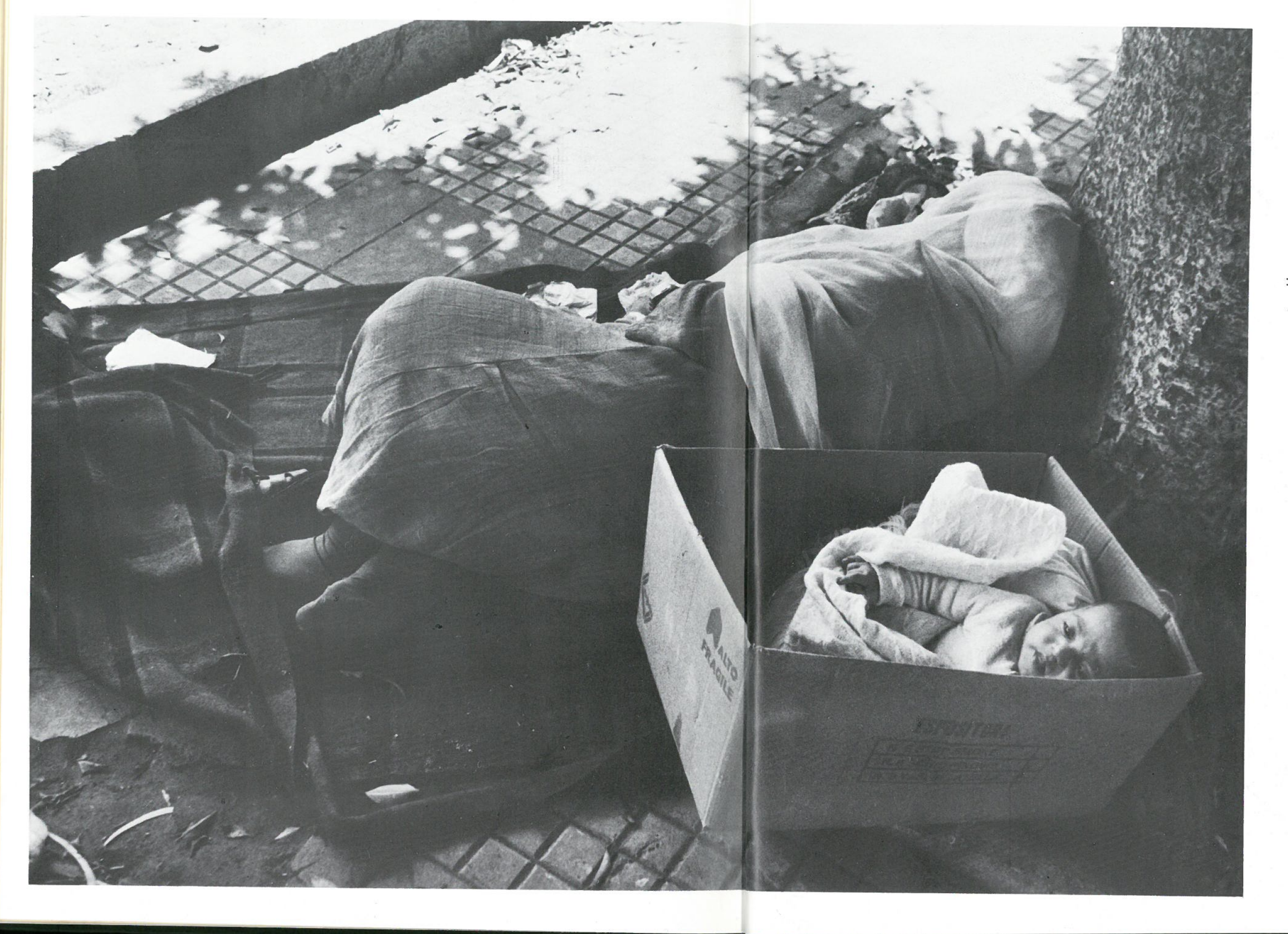
حنانُ الأُمّ:
الملجأ الوحيد.



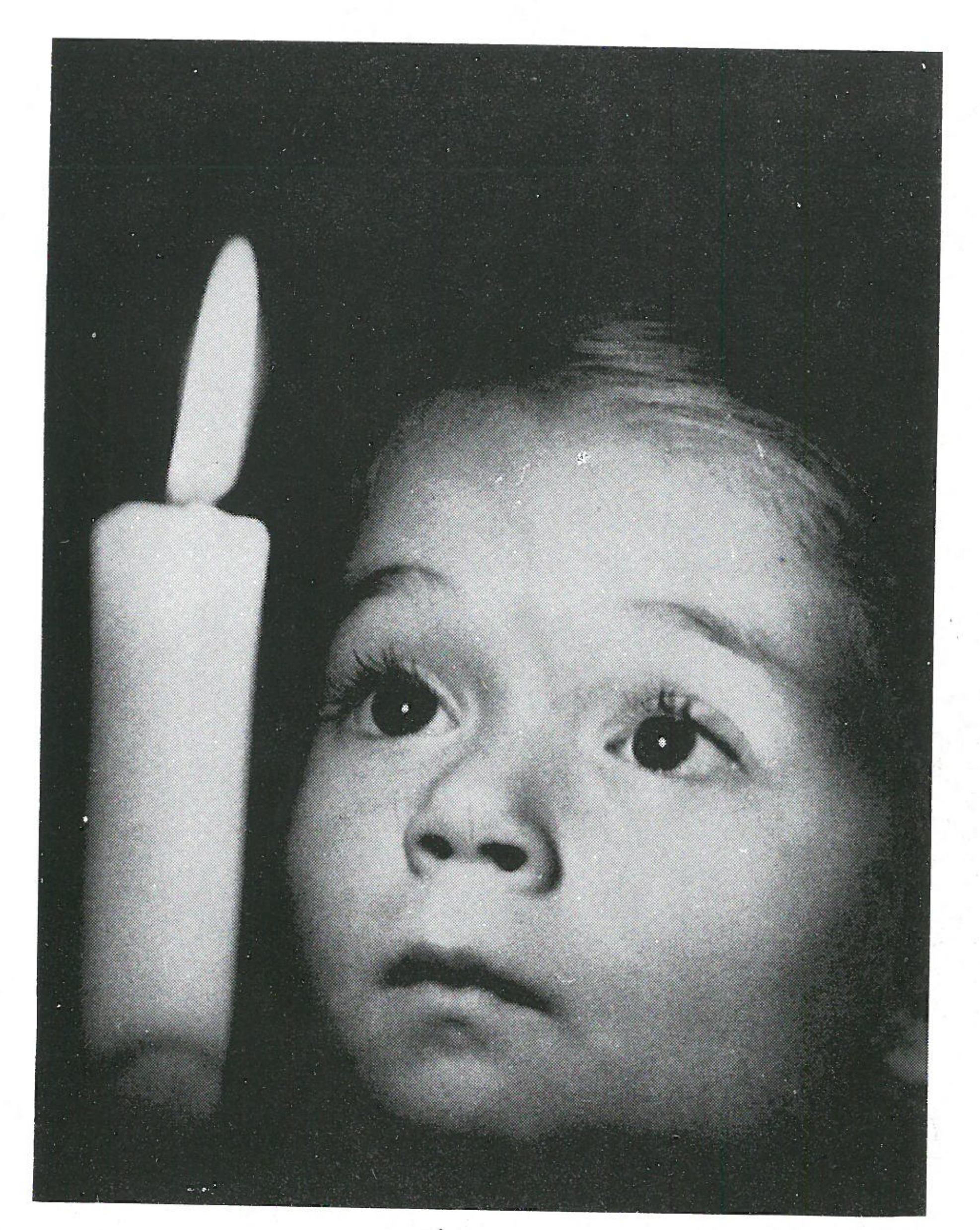
... في ما تبقّى من البيت.



في بيروت تحت القصف.



الملجأ الأخير:
ظلالُ شجرة.



... ويبقى الأمل.

أعتقد أنّ تقدّم الانسان أو البشرية الوحيد، ليس فقط في الشرق الأوسط بل في جميع أنحاء العالم، إنما هو تقدُّم روحيّ وأخلاقيّ.

وبحجّةٍ أولى إننا لا نزال في لبنان حيث علّة وجوده في بقائه أو في إعادتهِ وطنَ الانسانية السامية. أقولُ ذلك على الرّغم ممّا نعانيه من عذابٍ وآلامٍ أتحمّل مثل سواي ما لي فيها من نصيب.

ويحضرني تأمُّلٌ آخر أيضًا:

نُقدِّم، في لبنان، ونُعلن عن «الاصلاحات» التي فُرضت علينا، والتي ليست سوى خيالات حلولٍ لمأساتنا، في الوقت الذي لم نستعد فيه أمننا وحريتنا. إنّ هذه الاستعادة البطيئة والعسيرة ليست عمليّةً سياسيّة، بل ينبغي أن تقومَ دعائمُها أولاً على أساسٍ روحي.

لا مجال هنا لعرض أو إثبات بعض المسلّمات السياسية التي هي مسلّماتُ سلام. لكن عمومًا، اتّفقَ لي مرارًا أن قلت إنّ أجدادنا، عندما استقرّوا، منذ خمسة عشر قرنًا تقريبًا، في جبال لبنان العالية وفي أوديته، لم يكن نصب أعينهم لبنان عام ١٩٤٣ ولا لبنان الأمير بشير ولا لبنان فخر الدين.

كانوا يسعون أساسًا وراء حريّة ممارسة دينهم في سلامٍ وكرامة. ومن هذه القيَم الأخلاقية ولدَ لنا وطنٌ كان، خلال القرون، ذا مساحةٍ متبدّلة، على غرار أجنحة بعض الطائرات النفّاثة، لكنه قائم أبدًا على تخوم الحرية.

مقدّمة

رحلة خلال الذكريات

قبالة المرايا والواجهات

باريس ١٩٧٣

ذلك «الكهل» الذي يخالسني النظرات في صفحات المرايا او في واجهات المتاجر ، فلا آلفه ، لهو أنا... كهل؟ بل قل رجل الأعمار كلها ، رجل يخيّل إليه ان شيئًا لم يبدأ حقًا.

هل هذا ما كان يجول في خاطري أم تراني كنت أفكّر في سواه على رصيف جادة الايطاليين حيث يحدو ذلك الأنا الآخر ، الرجل – النائب والوزير ورئيس الجمهورية الأسبق – الذي ينظر الى الواجهات والى المارة دونما إمعان ، فيكاد لا يرى ، وتتلاشى صورهم كما تتلاشى صور عمره شبه الدارسة.

وهل صورة الحاضر أكثر وضوحًا من ذكرياته؟ فالتفاصيل ليست وحدها تبدو له مغشاة ، انما جل ما هو وما يعمله.

ذكرياته – وأمانيه يضعها كلّها في قالب رؤية اخرى ، في وطنه الذي يتراءى له في كل منعطف طريق. كبريق فتوة ، ورقة ، وبهاء ، كما رائعة فريدة ، رائعة من روائع الإنسان المخلوق على صورة الله.

أما ما تبقّى ، الذكريات ، الأرصفة ، أضواء السير ، الصروح والتماثيل... فتبدو وكأنها تسبح في ضوء رمادي ، هزيلةً متبدّلة. وهو نفسه لا يخشى ان يكون عطبًا

هزيلاً. ففي رأيه أنّ كلّ ذلك ليس أكثر من «تفصيل» صغير بين التفاصيل.

– تفاصيل؟

ها هو يحمل في جيبه علبة فضية صغيرة، حباتها حمراء زهرية، لعلها بعض دلال. بل هي حلية أكثر منها وقاية ووسيلة لدرء نوبة قلبية طارئة.

– «لا شيء!».

قالها له الطبيب موضّحًا: انها مجرّد «وقاية إضافية لك وربما لسواك».

مع ان هذا «اللاشيء» قد وصف له أثر جسّ وفحص.

فصار يعرف ان أعراض الشرايين ليست من نصيب الآخرين محصورةً فيهم وحسب.

وأي صديق حريز هذا الطبيب! في محفظته بطاقة تحمل اسمه واسم من يجب إعلامه وعنوانه لدى وقوع أي حادث له.

– «فلماذا لا تحذو حذوي في ذلك»؟

وهكذا فقد أمسيت واحدًا من بين هؤلاء المارة الذين يحملون بطاقة وعنوانًا، بطاقة دُسّت في جيب سترتي، كُتب عليها بالخط العريض:

اسمي شارل حلو، رئيس الجمهورية اللبنانية الأسبق. أسكن الغراندوتيل مع زوجتي. في حال وقوع حادث، أرجو إبلاغها او نقلي الى المستشفى الأميركي في نويي.

ليست هذه البطاقة أمرًا هامًّا. فكل امرئ، شاب او شيخ، عرضة لسيارة تدهسه او لنوبة تودي به. وليس هذا ما كان يقلق صاحبنا. بل ما كان يزعجه بشكل خاص هو شعوره بالوحشة والحاجة الى التعريف بنفسه في المدينة الكبيرة، حين انه في بلده الصغير، غالبًا ما كانت تُقطع عليه نزهته اذ يستوقفونه هنا وهناك ليحيّوه، فيرقّ ويرتبك في آن معًا لحماسة السوّاقين والمارة.

مع ان كل شيء في هذه الباريس الشاسعة كان يبدو له أليفًا، إلاّ أنّ هذه المدينة جعلته يشعر بأنه قد تخلّى عن روابط عديدة نسجها طوال سنوات او انه ودّع كل ما في حياته ان لم يكن قد هجر بلاده التي يحمل ذكرها في قلبه.

وما ينفع هذا الرجل المجهول الضائع وسط الجمهور مقامه السابق كمسؤول كبير؟ فإنّ أحدًا لن يُقدم في صيدلية «الدرغستور» على التنحي له وتقديم مكانه في الانتظار. كما لن يرضى سائق تاكسي عائد الى «ليفالوا بيره» او الى «ايفري» بالقيام بعكفة إضافية إكرامًا له. وها هو قد دسّ يديه في جيبي معطفه وهرول نحو فندقه في ساحة الأوبرا، قبل ان يداهمه المطر.

ماذا تعني الجماهير المتحمّسة الهزجة

إلاّ أنّ صاحبنا ما كان ليتحسّر على حاله، ومهما يكن فهذا اعتقاده، كما ان لا شيء هناك يأسف له. بلى، انه لا ينسى تلك الأبهة الملكية التي استُقبل بها في فرنسا اثر الدعوة التي وجّهها إليه الجنرال ديغول، خاتمة «الملوك». كان آتيًا من القاهرة حيث استقبله عبد الناصر، «الفرعون» المعاصر، بحفاوة مميّزة وسط هتاف الجماهير العارمة، النشوى. ولكن، ما معنى «نشوة الجماهير»؟ فالجماهير تتقلب في حماستها بين أسبوع وآخر وربما بين يوم وآخر بفعل محرّكات متضاربة ومن أجل رجالٍ متباينين. الدعوات الرسمية، اللقاءات، مؤتمرات القمة، حفاوة الرؤساء الباسمة، الأناشيد الوطنية، المواكب، تبادل الخطب... كل هذه ذكريات ولّى زمنها، بل ربما ما كان.

ويسرع صاحبنا في خطاه إذ يُخيَّل إليه انه حارس أمين لبستان خفي.

ضيف الشرف الرسمي الذي كان قبل ثماني سنين هل كان حقًا هو؟ لعلّ ذاك الذي استقبلوه في أبهة لم يعُدْ أكثر حياة من أولئك الأفذاذ الذين احتفوا به. وقد قام الرئيس اللبناني الأسبق بحجّةٍ الى ضريح جمال عبد الناصر في القاهرة كما الى نصب ديغول في كولومبي. البعد شاسع بين كلا المزارين. كل شيء يختلف بين هناك وهنالك: المناخ النفسي والخلق، الطبيعة، الذكريات، وكذلك التطلعات والأماني. غير ان زائر المقامين لا يذهب الى قياس تفاخر الاحياء وحسب، انما يتثبّت الفخر الذي ينسبونه الى الأموات ايضًا. فالموتى كلهم يرجعون جنودًا مجهولين. هنا يكمن تشابههم جميعًا. والذكر الذي يتركه كل منهم ليس أكثر ارتباطًا بشخصه مما لدى الملايين، بل مئات الملايين الذين سبقوه في الأرض او لحقوا به الى باطنها على مرّ العصور.

غير ان هناك أمورًا باقية من ذاك الماضي الذي يشك فيه اليوم، وهي: نضوجٌ مميّز، معرفة بالناس وبضعفهم وكبواتهم وأوهامهم. بالإضافة الى بصيرةٍ قد تكون ميزة رؤساء الدول والعرافين. وان هذا النور الذي كسبه لهو الذي يتيح له – الى جانب شعوره بانه قريب جدًا من هؤلاء القوم الذين يحتكّ بهم في كل مكان – ان يرى نفسه أكثر قربًا من رئيسهم الذي لا يتسنّى له رؤيته إلاّ استثنائيًا او على شاشة التلفزيون.

ان للدول، كبيرة كانت أم صغيرة، الحاجات نفسها، شأنها في ذلك شأن البشر الذين ايًا كان عمرهم او قامتهم، يحتاجون جميعًا الى هواء وغذاء. وعلى رأس كل دولة هناك من كُتب عليه ان يجابه ليس فقط المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المحيطة بالشعب الذي اختاره بل أيضًا وقبل كل شيء تلك المنوطة بالجنس البشري في هذا الطور من نموّه، وقوامها هذا النوع من عدم الرضى عن أنفسنا الذي

نتهافت على تسميته بأسماء مستعارة، هذه المخايب التي ندعوها دولة او حكومة (كمثل بطل اوسكار وايلد الذي كان يغالب النفس ليطلق على مشاكله ومصاعبه اسم اوسترالية)، هذه المتناقضات هي في طبيعتنا وهي تطاول كلَّ سياسة نابعة من ازدواجيتنا وتأرجحنا. كذلك عدم الثبات في مطالبنا، وهذه الحاجة الدائمة الى التنويع والمطالبة بـ «شيء آخر» والتي لا يشفى لها غليل، لعلّها نبراس المطلق الذي يكمن فينا. فهي تحملنا جميعًا على البحث عنها ثم لفظها الواحدة تلو الأخرى، دون ان تدعنا نفقه أنّنا نفقد القابلية والرغبة ليس إلاّ.

رجلٌ وحيد

هل هو الاخاء الذي تولده الأماني المتشابهة؟ فقد خُيِّل الى الرئيس اللبناني الأسبق الذي سيستمع بعد لحظات امام شاشة التلفزيون الى ندوة السيد جورج بومبيدو انه يتفهّم الرئيس الفرنسي أكثر من أولئك الصحافيين الذين يحيطونه، ومن الأعيان الذين يتحلّقون حوله، بل أكثر من جميع المشاهدين الذين يستمعون إليه.

ويعلم صاحبنا خاصة ان ذاك الرجل الذي يسعى الى الايضاح والتوضيح لوحيد حقًا على الرغم من كثرة معاونيه ومستشاريه، وبالرغم من جدارتهم. انه فعلاً وحيد اذ يسعى في أجوبته الى ايجاد الرد الصحيح. وهو وحيد دائمًا وفي كل مكان ساعة يجد، ابان المعمعة، الحل الأنسب. فمعطيات كل مسألة قد أمست مستعصية ووعرة المسالك. وردود الفعل المتشعبة تجاه كل قرار تتعدّى كل حد من حدود الزمان والمكان. فالرجل القيّم على مقدّرات الآخرين لا يرتكز دائمًا على اليقين المطمئن: فالمعلومات التي تأتيه والآراء التي يستقيها كثيرًا ما تكون متضاربة او غير وافية. فيلجأ عندئذٍ الى الاستنباط الخياري لا الاستنتاج. لأن الخيار يفترض الابتعاد عن الحلول المطروحة وعن طارحيها. انه بطريقة اخرى، ابتعاد عن الذات، اي ترفع عن الهوى

او التفضيل او الاستقال . فوحشة الرئيس تكمن في تلك الرياضة النفسية أكثر منها في صرامة المراسم والبروتوكول . وهي إلزامية لأنها تماشي الحاجة الى الحزم فكيف يستطيع الرئيس الإطالة في قياس حسنات كل قرار وسيئاته ودرجات حظوظه ومخاطره إزاء مستقبل غاب عنه أمده . فالذي يطلب منه ليس تبصّر المستقبل (الذي لمّا يأتِ) انما رؤية ذاته هو والفحص عن كل شعور او غاية او منفعة قد تضع حاجزًا امام انسياق النور ، ونبذها .

لو شاء اي رئيس تبريرًا لذاته تجاه الجمهور ، للجأ حتمًا الى القيام بنوع من «فحص الضمير» . ولكن ، حتى فحص الضمير هذا ، لا يؤدي جديدًا لأولئك الذين لا يعيشون المشاكل عينها .

ما المؤتمر الصحافي اذًا ؟ – انه إعادة تثبيت وجود ، ومدّ شبكة تعاطف ممكن . هنا إمكانية نفعه . فلا مجال فيه لانتظار تصاريح حاسمة لأن التصاريح لا تؤدي إلاّ الى تثبيت مستمعين في خطوط هم بها مؤمنون او فيها راغبون . أمّا الآخرون فيصغون والاحتجاج على شفاههم ، وفي قبضة ايديهم . فليس مما قيل لهم يجردهم طويلاً . بالعكس ؟ أجل بالعكس . لأنهم غالبًا ما يجدون في ما يسمعونه مادة جديدة لمعارضة تزيدهم رسوخًا في عدائهم له .

وما يثير فضولهم ليس دائمًا ما سيقوله الرئيس ، انما أسلوب كلامه ، وخانة صوته ، وردود فعله ، ووضع صحته ، ودقة او خطورة «التشخيص الطبي» الذي تصدره الصحافة في أدوائه . لأن مرضه ، بدلاً من أن يجلب له تعاطف هؤلاء الذين تقضي مصلحتهم بأن يتمتّع الرئيس بتمام العافية النفسية والسلامة الجسدية ، يثير فيهم غريزة ثأر مبهمة وحاجة غريبة الى الاستعاضة .

* * *

قبالة صورة رئيس تتحرّك وتنطق ، جلس رئيس سابق يتذكّر ويحلم .
تُرى أيًّا من الرئيسين يستقطب أفكاره أكثر ساعة يستعيد ذكرى مظالم هي بالنسبة الى الاثنين معًا الوجه الآخر ؟

الطريق الى قصر الاليزه من ساحة الاوبرا حيث يقطن (مرورًا ببولفار المادلين والفوبور سانتونوره) لا يتعدى اجتيازه بضع دقائق . فهل في قول صاحبنا نزيل الفندق قحة ومغالاة إنه لا يقبل المقايضة والاستعاضة عن حريته وفندقه بأوزار القصر البهية ؟ هذا ما يراه هو ، وقد لا يقتنع به ساعة يضطر الى حثّ الخدم وتنشيط هممهم .

هل مثل هذه الخواطر جدير بالتدوين ؟ تُرى ماذا يكون تأثير هذا البوح على الحاضر وعلى الماضي ؟ انه لا يدري .

– «لماذا ؟»

يطرح السؤال ثم انه ، أكثر من ذلك خيرًا او شرًا ، يستعيد في اثناء مشيه الطويل ابياتًا من الشعر كانت بالأمس تذهب به كل مذهب وهو ابن السنوات الخمس عشرة ، وهي صرخة من «لوكونت دليل» في وجه الجمهرة الكاسرة :

... «لن أدع حياتي عرضة لصخبك
لن أرقص فوق أخشاب مسرحك التافه
الى جانب مُشَعوذيكِ ومومساتك .»

غير ان الرغبة في البوح عنده لا تُكبح لا سيّما وانها لا تتناول حياته الخاصة بل اداء مهمته الرسمية . وقد يكون حديثه مساهمة في معرفة تاريخ لبنان الحديث . ولئن تحدّثه نفسه وتساوره للكلام عنها باستعمال صيغة الغائب . وذلك ، ربما لأن «الأنا عواذ» على حد قول باسكال . او لأنه تعوّد إلاّ يكون الصانع وحسب انما ايضًا الشاهد على أفعاله . او لعدم تأكّده من معرفة نفسه في الرجل الذي كان عليه او الذي صار إليه .

تبًا للتزمت . فالرجل الذي يستعيد بعضًا من ذكرياته هنا هو حقًا صاحب تلك البطاقة التي تحمل اسمه وعنوانه وما يجب عمله من أجله في حال وقوع حادث له . وامانة حكايته وحقيقتها يحمّلانه فرض نسبتها إليه بكل وضوح . ها إنني اذًا أفصح عن هويتي وأدلي بمجموعة آراء وأحداث آملاً أن ينتفع بها أحدٌ او تنفع لشيء.

ومن الشاطئ حيث أنا ، وجدتني ألقي بهذه القنينة في عباب اليم كما يفعل البحارة احيانًا عندما يريدون إفادة الآخرين بما جمعوه من تجارب وخبرات .

الفصل الأول

بعض المعطيات حول السياسة الداخلية والخارجية اللبنانية لعام ١٩٦٤

قضية الشرق قضية الغرب

حقيقة الأمس ضلال اليوم

أحاديث بومبيدو

تذمّر الامبراطور هيلاسيلاسي

اوتوستراد نعم ضرائب لا !

هناك رجل دولة فرنسي كان يخاطب مواطنيه اثناء معركة الانتخابات الرئاسية ، معنّفًا سائلاً :

«إلامَ سيظل هؤلاء القوم يطالبون بالشيء وبضدّه؟»

قد تكون هذه الاعتبارات غامضة . لذا سألجأ الى كلام أكثر وضوحًا ، انطلاقًا من حادثة استقيتها من الحياة اليومية في لبنان.

بين سنتي ١٩٦٨ و١٩٦٩ قمنا بإعداد مشروع لمدّ شبكة اوتوسترادات تغطي الأراضي اللبنانية . ووضعنا المشروع موضع الدرس . ومن أجل تمويله طرقنا باب البنك العالمي . فأوفدت إلينا إدارة هذا المصرف خبراء دقّقوا في دراساتنا وانتهوا الى القول بإمكانية مساعدتنا شرط ان نسعى نحن الى مساعدة أنفسنا : فوافق البنك على تقديم قرض ، على ان يتثبّت من إمكانية ايفائه ، بلجوئنا الى بعض التدابير والمحاصيل ، ومنها ، إدخال رسم اضافي طفيف على المحروقات .

وبدت لي المصاعب التي سوف تواجهنا ، فعمدت مسرعًا الى الحدّ من ضخامة المشاريع وأعبائها .

رئيس الحكومة – وكان يومها ايضًا وزيرًا للمال – بدا أكثر تفاؤلاً مني . وقد بادرني بقوله :

«ان المقرّرات التي سندفع بها الى الرأي العام لهي في غاية الإقناع ولا سيّما انها ناتجة عن مؤسسة دولية قوامها الجدارة والموضوعية . أضف الى ذلك ان خبراء البنك العالمي سيحق لهم مراقبة الأشغال والمدفوعات جميعًا » .

وأضاف :

« لا بدّ لمنطق هذا الظرف – وهو منطق صارم – ان يفرض نفسه ويستأثر بالمواطن والمكلّف » .

أجبته :

« ليس من منطق كافٍ ليقنع امرءًا بالدفع اذا تسنّى له عدم الدفع . وليس من فكر يطول على العقل البشري حتى لا يجد له مخرجًا . »

وأصرّ رئيس الحكومة على عرض مشاريعه امام الرأي العام قبل إحاطة الحكومة والمجلس النيابي علمًا بها . فنتج عن ذلك نوع من تضافر في الاحتجاجات وعمّت الاعتراضات ، صحيحة وغير صحيحة ، رصينة وواهية . وسعى أحد الصحافيين الى إجراء دراسة في الموضوع فاتصل بـ« سياسيين أفذاذ ، وبرجال اقتصاد ثقة » . وأبدى كلّ وجهة نظره . فملأت الأجوبة والردود صفحتين كاملتين من الجريدة . وقد وضع لها الصحافي عنوانًا واحدًا ، عنوانًا كبيرًا يمتدّ على عرض الأعمدة الأربعة عشر التي تشكّل صفحتي جريدته .

فأتى العنوان في غاية الطرافة علمًا بأن الظرف لم يكن مقصودًا ، إنما اتى عرضًا .
وكان هذا العنوان :

« نعم للأوتوستراد . لا للضرائب » .

وبدت لي الحكمة في ذلك أكثر من طريفة . وخاصة انها تحمل حكمًا عامًا . فاتخذتها عبرة تحدّث عن نفسية شاملة .

ولا بدّ لمسؤولين آخرين في بلدان أخرى من ان يتذكّروا « حكمًا » من هذا النوع . كمثل :

« نعم للعمران . لا للزهد » .

أوكما كان أحد ظرفاء فرنسا يقول :

« يجب ان تطلب المزيد من الضرائب ، ولكن عليك ان تطلب أقل من المكلف » .

وهكذا دواليك . على جميع الأصعدة .

* * *

قضايا الشرق والغرب

ولنعد الى لبنان .

ان لبنان ، كما لا يغيب عن أحد ، يحقّق رسالته ووحدته وأمنه في سعيه ببقائه همزة وصل بين الشرق والغرب . هذا ، بحكم تركيبته ذات التعدّد الطائفي ، وبفضل تاريخه الطويل وموقعه الجغرافي . فلا عن الشرق يستطيع التخلّي ولا عن الغرب . ولو كان أرضًا محصورة للغرب في قلب الشرق لزال وولّى من زمان ، كالمستعمرات الفرنسية في الهند (بونديشيري ، شاندرناغور ، كاريكال ...) كما انه لو شاء سدّ بابه المفتوح على البحر وعلى الغرب لفقد سبب وجوده ونفعه للعالم العربي والكون .

هذا هو اليقين .

فأي زيادة نضيفها على ذلك لتبيين حتمية السياسة النابعة عن هذه الاعتبارات وعن هذا الواقع ؟

لا شك في أن الأفضل هو ان يستطيع لبنان تأدية دوره وسط عالم عربي يسوده

الوئام ، وغرب غير منقسم . لكن المرتجى ليس دائمًا هو الواقع . فهلا نأتي على وصف الواقع ؟

ظلّ العالم العربي طيلة ولايتي أي من سنة ١٩٦٤ الى سنة ١٩٧٠ منقسمًا على نفسه بسبب عقائد ونزعات متباينة ، وذلك على الرغم من حربه مع اسرائيل (١٩٦٧) . وعلى الرغم من هذه الانقسامات ومن تلك النكسة فقد ظلّ جمال عبد الناصر مهيمنًا بقامته الكبيرة على الساحة السياسية .

أضف الى ذلك انه بسبب بعده الجغرافي ولا سيّما بعد سقوط الوحدة المصرية – السورية (١٩٦١) استطاع عبد الناصر ان يُبعد عنه التهمة بمطمع في الأراضي اللبنانية .

أمّا في الجانب الآخر من المتوسط ، ومن الأطلسي ، فقد بدا الغرب كتسمية وهمية ؛ وهو متشعّب متعدّد بتعدّد البلدان الغربية . ولم يكن لأحد منا القدرة على وقف صراعات النفوذ التي توالت عندنا منذ أقدم العهود ولا سيّما في القرن الماضي والعصر الحاضر . وقد تسنّى لي من جهتي أن أتبيّن انه بعكس ما علّمتنا كتب التاريخ ، لم تكن هناك «مسألة شرقية» ، وان المسألة الشرقية هذه ليست في الواقع عندنا إلاّ مسألة «غربية» .

وكان واضحًا ان الزعامة بين البلدان الغربية كانت للولايات المتحدة الجبّارة . غير ان هذه الأميركا القوية لم تكن ، لسوء حظنا ، لتسعى ان تكون بالنسبة الى العالم العربي اميركا العادلة . والحق يُقال انها قد خسرت الكثير في ساحة الشرقين الأدنى والأوسط ، وتراجعت أمام خصمها الاتحاد السوفياتي . والواقع الآخر هو ان صداقتنا لأميركا صارت تصعب علينا وتثقل يومًا بعد الآخر . وأميركا عينها كان لها ، بانتظارها أيامٌ أفضل ، تتلافى فيها تراجعها تجاه الاتحاد السوفياتي في لبنان ؛ فترضى عن عودنا الى الحوار مع الفرنسيين ، اصدقائنا الأقرب إلينا .

في أكثر من مناسبة كانت تشجّعنا على شدّ الروابط مع الفرنسيين ، ولا سيّما انها

كانت تسعى الى الخلاص من المأزق الفيتنامي ، ولم تكن تريد لنفسها مأزقًا آخر .

ولكن الرأي العام الفرنسي كان بعيدًا عن العرب كل البعد .

فقضية السويس ، وحرب الجزائر ، وشتّى الخلافات التي نشبت في مختلف بلدان افريقيا الشمالية ، بالإضافة الى تأثير الإعلام الاسرائيلي ... كلها خلّفت تأثيرًا عميقًا في عقول الفرنسيين وقلوبهم . لكن كان على رأس فرنسا رجل ليس قائدًا وحسب انما تجسيد حقيقي لتاريخها وعظمتها وقدرها . انه الجنرال ديغول الذي ما كان ليرضى ان يجعل نفسه «تابعًا» لأي من «الاستعماريين المتخاصمين» فبدأ يظهر وكأنه وجه القوة الثالثة ، وبالتالي ، الزعيم والمرشد للعالم الثالث . وبالرغم من بعض حوادث جرت هناك وهنالك فقد بدأ يلوح نوع من تقارب بين فرنسا الديغولية من جهة ، والمغرب العربي ثم المشرق من ناحية أخرى . وهكذا فان الانفتاح اللبناني على الغرب انصبّ طبيعيًا باتجاه فرنسا . وقد أعطى ذلك وطننا حظًا مزدوجًا لتكريس بل لشدّ روابط صداقة تقليدية ، وذلك ، دونما المساس بمشاعر العالم العربي او احدى الدولتين الكبريين .

«ليس للدول صداقات» !

ولكن ، «ليس للدول صداقات» . وهذا أمرٌ محتّم وبيّن ايضًا . ولا سيّما ان الخاطرة من كلام الرئيس ديغول نفسه .

معناها ان سياسة العاطفة يجب ان تقترن بسياسة المصلحة . فكان علي اذًا ، طوال ست سنوات ، (١٩٦٤ – ١٩٧٠) ، أن أعلّق أهمية كبرى على علاقتنا الودية مع مصر الناصرية وفرنسا الديغولية ، دونما التخلّي عن أية صداقة عربية او أجنبية .

كانت مصلحة عبد الناصر تقضي في لبنان بالحفاظ على الأنصار والموالين الذين كسبهم منذ تولّيه زمام الحكم (ولا سيّما منذ سنة ١٩٥٨) كما كانت تقضي ايضًا

بمواجهة العداوات العربية التي برزت ضده على الساحة اللبنانية . فالناصرية قد تزيّت بمظاهر شتى في العالم العربي . أمّا عندنا فقد اتّسمت بسلسلة اتفاقات سياسية تدعمها آلة مخابرات . وليس من سياسة مع مصر تستطيع يومها ، بادئ ذي بدء ، شق شبكة الخيوط التي نسجتها أيدٍ جلودة لرفقاء معروفين او مجهولين كانوا يتجمّعون تحت راية ناصرية سياسية او عسكرية .

لكن الأمور بدأت تتبدّل تدريجيًا. فقد حملت نكسة حزيران ١٩٦٧ الزعيم المصري على القيام بتصويب ذريع لسياسته وعلى إعادة النظر في كفاية القيادة العسكرية المصرية كما في كفاية سلكيها الدبلوماسي والبوليسي. وكانت علاقتنا الشخصية ، على صعيد آخر ، تساهم في توسيع ومدّ الى أبعد من حدود حزب لبناني واحد ، تعاطف عبد الناصر مع لبنان. ولعلّ هذا يلقي ضوءًا على تطوّر جرى ليس فقط في حقل العلاقات اللبنانية – اللبنانية أيضًا .

أما مصلحة الجنرال ديغول فكانت ، ولا شك ، في تعزيز العلاقات الثقافية والسياسية والدبلوماسية بين فرنسا ولبنان ، وخاصة في جعل الصداقة اللبنانية – الفرنسية محطةً ومنطلقًا لنشر الإشعاع الفرنسي في الشرق كله . غير ان ديغول كان واقعيًا للغاية ، تحدوه المتطلّبات الاقتصادية ايجاد منفذٍ كبير للتقنية الفرنسية – في السوق اللبنانية ذات الأنظمة الحرّة – ومصبٍ ومورِدٍ للإنتاج الصناعي الفرنسي في مختلف ميادين الصناعة .

* * *

مصلحتنا نحن اللبنانيين لم تكن لتنحصر في الحفاظ على علاقاتنا مع فرنسا الديغولية ومصر الناصرية وحسب ، إنما كانت تصبو بقدر المستطاع الى خلق جو تفاهم وتعاون بين البلدين .

هل كان ذلك ممكنًا؟ .

هوذا نص وضعه رجل يُحسن انتقاء الكَلِم وصياغته ، نشرته الصحف في ملايين النسخ ، ولكنه بالرغم من ذلك ما يزال يبدو بعيد المنال :

«استطاع الرئيس جمال عبد الناصر بذكائه وقوة إرادته وشجاعته الفريدة ان يُسدي للعالم العربي بأسره خدمات جُلى . ولم يتوانَ ، إبان مرحلة هي أشد وأصعب من أي زمان آخر ، عن النضال في سبيل الاستقلال والعزّة والكرامة . فكانت بيننا أواصر تفاهم وتقدير عميقين.

«وهكذا ، فقد استطعنا ان نعيد بين الجمهورية العربية المتحدة وفرنسا العلاقات الطيبة التي تمليها علينا صداقة عريقة وتوق مشترك الى العدل والكرامة والسلام» .

تلك شهادة الجنرال ديغول بجمال عبد الناصر : انه نصّ رسالة التعزية التي وجّهها الجنرال الى السفارة المصرية اثر وفاة الرئيس عبد الناصر.

إن تقارب عبد الناصر وديغول لحدث يخص تاريخ فرنسا ومصر . فأيّ إسهام كان لنا؟ ذلك ما نجهله . ولكن الذي نعرفه هو إننا سعينا من أجله لمصلحة لبنان .

كلُّ شيءٍ تغيَّر

من الأكيد مثلاً ان استقالة الجنرال ديغول سنة ١٩٦٩ بدّلت كثيرًا من معطيات سياستنا الخارجية ، وان الجنرال ديغول الذي وقف الى جانبنا بحزم بصوته المدوي وفعله الفوري سنة ١٩٦٨ ، كان قد آزرنا في أزمات عامي ١٩٦٩ و١٩٧٠ لو بقي حاكمًا لفرنسا . ومن الأكيد ايضًا ان هزيمة العرب سنة ١٩٦٧ كانت مبعث ضعف لمكانة عبد الناصر ووهجه . وقد بدا هذا الضعف يتزايد رويدًا رويدًا بمقدار ما راح العرب يتفهّمون ويلمسون واقع الهزيمة ونتائجها ، ويعلّقون الأمل على الأخذ بالثأر واسترداد الكرامة على يد المقاومة الفلسطينية أكثر من الجيش المصري .

أما الآن وقد توفي الرئيس عبد الناصر فقد تبدّلت معطيات الأوضاع في الشرق

وفي لبنان ايضًا. وتوفي الجنرال ديغول فتغيّرت الأوضاع في أوروبا وفي فرنسا بالذات.

غير ان هناك أسئلة تُطرح هنا وهنالك. ما هو سبب توجّه سياستنا نحو مصر وفرنسا معًا؟ فأُجيب وهل إنَّا بحاجةٍ للتذكير بأنَّ سياستنا في ذلك الحين لم تكن سوى استجابة لمقتضيات الوضع ومصلحة لبنان، ثمّ انها كانت تنال موافقة الأكثرية الساحقة من الشعب اللبناني والأحزاب السياسية وتأييدها؟

وهل انّني مضطرّ، بأن أكمل شعار پاسكال الذي كان يلاحظ ان: «الحقيقة على هذا الجانب غير الحقيقة على الجانب الآخر» فأزيد على قوله: «ان ما كان بالأمس حقيقة غدا نقيضًا لها اليوم». ويجب أن لا يُفهم مما سبق ان سياستنا الخارجية كانت على مدى ست سنوات سياسة صداقة مع مصر وحدها في الشرق وفرنسا وحدها في الغرب. فقد سعينا إلى توطيد علاقاتنا الأخوية مع كل الدول العربية، وذلك بتبادل الزيارات باستمرار، وبتعاون مخلص في مؤتمرات القمة. أما في الغرب فلم نحصر علاقاتنا مع فرنسا فقط بل مددنا اليد لكل الدول الأوروبية وأميركا، لا بل أكثر من ذلك، لقد أنشأنا وكثّفنا علاقات ودّية مع دول أوروبا الشرقية وبصورة خاصة مع الاتحاد السوڤياتي، ونظّمنا مع هذه الدول علاقات تبادل اقتصادي وسياحي وثقافي. وللتدليل على حسن استعدادنا وانفتاحنا على الاتحاد السوڤياتي؛ فقد أوفدنا الى موسكو شخصيات سياسية ووزراء بارزين.

ومع اتّساع علاقاتنا وشمولها العالم كله كانت مصر وفرنسا هما الدولتان الأكثر اتصالاً بنا.

* * *

سؤالنا الآخر التالي:

هل علينا في الوضع الراهن اللجوء الى السياسة عينها التي اتّبعناها في السنوات

١٩٦٤ – ١٩٧٠؟ لا اعتقد ذلك. فليس العالم العربي وحده قد تغيّر، بل العالم أجمع. ها هي الولايات المتحدة الأميركية تعود الى الشرق بقوة وبأس، بفضل العرب الذين تحالفوا معها. وها هو الاتحاد السوڤياتي من ناحيته يتدخّل في أكثر من مناسبة من أجل تهدئة الخواطر. فتنفتح امامنا آفاق جديدة ووسائل عمل أخرى.

أما كلامي في استعادة الماضي فغايته عتقنا من التناقض الذي قوامه، عند بعض مواطنيّ، التعجّب من الوقوف في وجه سياسة خارجية فرضتها علينا الظروف.

إرادة العيش المشترك

وهناك التناقضات عينها في حقل السياسة الداخلية وحتى في مقوّمات الوجود اللبناني.

ان هذا البلد عنوان التوازن. فهو يشكّل على أرضه الضيّقة ذات العشرة آلاف كيلومتر مربع، وبسكانه الثلاثة ملايين (هناك ثلاثة ملايين آخرون موزّعون في الخارج) خلاصةً بشرية متآخية، متوائمة، من سبع عشرة أسرة روحية، من الضرورة ان تشترك جميعها في إدارة الشؤون العامة، فلا تُهضَم حقوق الواحدة او تشعر بحرمان.

أما إرادة العيش المشترك بين هذه الأُسر فانها تستوجب كبرى صفات التسامح والعدل والمحبة. كما تفترض تطبيقًا صارمًا للنظم السياسية التي تكرّس التداول الحرّ والوفاق والتعاون. أي بتعبير آخر: نظام تمثيلي.

فبالإضافة الى دوره المماثل لأدوار المجالس الأخرى في البلدان ذات الديمقراطية البرلمانية، فان المجلس النيابي اللبناني، على الصعيد السياسي، موضع تلاقي ممثلي الأُسر الروحية التي تؤلّف العائلة اللبنانية الكبرى.

مهمة البرلمان هي اذًا في كونه مؤسسة للتمثيل والتعاون بين الطوائف إلى أن

يتسنّى ، بعد عيش مشترك ، تخطي الطائفية ، وهذا يصحّ أيضًا بالنسبة الى توزيع الوظائف العامة توزيعًا عادلاً بين جميع الطوائف.

هذا هو مذهبي المبنيّ على خبرة الآخرين وخبرتنا :

كلّ بلد فيه أقليّات مشتركة هو بصورة حيوية ويجب أن يكون بلد برلمان : بلد مجلس واحد في ظلّ نظام وَحْدويّ ، وبلد مجالس إقليميّة في ظل نظام اتحادي . على كل حال ، هو بلد حريّة وحريّات.

هناك كثيرون من المراقبين المتسرّعين ، المعجبين بنجاح التجربة اللبنانية ، يذهبون الى الشك في الوسائل التي تتيح لها أسباب الاستمرار والبقاء.

وهناك مراقبون لبنانيون من دعاة التغيير – ولا يقلّون تسرّعًا عن الأوّلين – يقولون بتغيير هيكلي وبإلغاء الطائفية وذلك ، بحجة دفع عجلة الانماء الاقتصادي الى الأمام وكذلك الانماء الاجتماعي ، فيذهبون الى التبشير بالتعنّت في الحكم و« بتقدّم » قد يودي بنا.

فلنتخذ كل تدابير التغيير الممكنة ، وكل وسائلها ، ولكن ، لا نحاولنّ ان نقضي على الذي من أجله وجد لبنان : التداول ، والتعاون ، والوفاق على الصعيد السياسي بين طوائف مختلفة . وهكذا ، فالمسألة الحقيقية بالنسبة إلى بلادنا هي في ان تكون او أن لا تكون . أما اذا أصغينا الى بعض مصلحين ، فيبدو لنا انهم قادرون على جعل لبنان كائنًا وغير كائن في آن معًا.

وباختصار : نعم للبنان . ولا لغاية وجوده.

يقولون لي غالبًا : لماذا تكتفي بذكر الخطوط الكبرى لسياستك في الخارج والداخل؟ لماذا لا تشرح بالتفصيل كلّ الضرورات التي فرضت نفسها عليك؟ أُجيب :

كثيرًا ما يسألونني لِمَ لا أقدم على شرح كل شيء؟ فأُجيب : وماذا أشرح ؟ لأنه افتراضًا ، لو استطعت قبل سنوات ، عرضَ كل أسباب تصرفاتي في مختلف المواضيع

الراهنة ، فيبقى ان معطيات المسائل تظلّ مختلفة بالنسبة الى الذي يعيشها عن الذي يود سماعها.

الحقيقة ليست دائمًا مقنعة

والحقيقة خطرة حينًا وهي غير مقنعة أحيانًا فلا بد لها ان تثير مشاكل أخطر من السكوت عينه . فالمشاعر يحرّكها الغش المثير والانتقاد اللاذع.

هذا ما يفسّر بعض مواقف صحفية واعلامية في العالم كما في لبنان ، فبعض القيّمين على وسائل الاعلام لا يريدون الموت نقصًا ، والزوال قلّة.

ليس من رئيس دولة لبناني ، عربي ، او أجنبي ، لم يتذمّر من تحامل هذه او تلك من صحفنا عليه ! وهذا أيضًا ليس شواذًا . فقد قال لي الرئيس ديغول يومًا ان معظم الصحف الباريسية معارضة له . اما الرئيس بومبيدو فكان يدل بظرف وفكاهة على الأخطاء « المقصودة » في أخبار الصحف وتعليقاتها . وقد قال لي مرة ، بينما كان يشعل سيكارًا : « يبدو انني مريض ، وانني أوقفت التدخين . هذا ما نشرته احدى الجرائد . وقد وزّع الخبر على مليون نسخة ».

في لقاءتي مع رؤساء الدول العربية كنت أسمع الجميع يشكون من الصحافة . ليس من صحافة بلاده (وهي نوعًا ما مراقبة او مؤمّمة) انما من صحافة بيروت . ومن حريتها.

وكان خير جواب لدي انني انا ايضًا موضع انتقاد الصحافة كما المحتجّون.

ذات يوم ، في مؤتمر لبلدان عدم الانحياز ، أتوني برسالة عاجلة : الامبراطور هيلاسيلاسي يرغب في لقائي . وكنت على أهبة السفر . ولكني ما لبثت ان أرجأت السفر تلبيةً لرغبة جلالته . ورحت أتساءل في أيّ من مقرّرات المؤتمر او من مواضيع جدول الأعمال سيكون حديثنا . غير ان الأمبراطور كان قد طلب ملاقاتي للفت نظري الى حملة صحافية قامت ضده في لبنان.

انفتاحي على النقاش الحرّ

اني أرى من ناحيتي ، انني طالما تقبّلت برضى وبعض عطف كل الانتقادات .

يقولون اني ضعيف ، متردّد . هذا ممكن . بل لعلّه محتمل . إلاّ اذا ...

إلاّ اذا؟ هنا أجيز لنفسي استطرادًا . فلقد طالما ذكّرت بحكمة ذاك المعلّم الذي كان ، بعد قيامه بشرحٍ وافٍ على اللوح الأسود ، يقول :

« هاكم . انه لكذلك » . ثم بعد وقفة قصيرة كان يضيف : « إلاّ اذا كان عكس ذلك » .

يُعقَلُ اذًا أن أكون قد استحققت الانتقادات التي وجّهوها اليّ . – إلاّ اذا كان العكس ... وأن تكمن الشجاعة في اعتبار الحقائق وفي انتظار تطوّرها والتحضير له ، بتقبّل كل لوم .

الله أعلم .

إعادة صنع التاريخ

هكذا فان خبرتي بالحوار الحرّ تقصيني عن كل رغبة في الدفاع هنا عن انتقادات ربما كانت ظالمة إلاّ انها تظل أقلّ قسوة من النقد الذاتي الذي اعتدت ان أوجّهه الى نفسي على الدوام .

وفي جادة الإيطاليين حيث وصفت تجوالي وحيدًا ، كما في شتى سبل تفكيري ، يلحق بي التساؤل عينه . وأسعى في مخيلتي الى توزيع آخر للأشخاص والأحداث . ثم أتبيّن ان العملية ، في حينها ، لم تكن عمليًا ممكنة ولا مرجوّة . لأنه ، باختصار ، لا يمكن إعادة التاريخ . لا تاريخي الشخصي ولا تاريخ بلادي طوال ست سنوات .

وهذا التاريخ ينبغي الآن تدوينه .

الفصل الثاني

مؤتمر قمّة عربيّة في الإسكندريّة قبل تسلّمي سلطاتي الدستوريّة

معركة المياه

« ثلاث ساعات فقط وينتصر العرب ... »

أسرار القائد العام ومتطلّباته

الحفلات التقليدية

٢٣ أيلول ١٩٦٤

جلسة احتفالية في المجلس النيابي اللبناني. فيها أؤدي اليمين الدستورية التي تسبق تسلمي مهام رئاسة الجمهورية. المجلس الذي انتخبني قبل خمسة أسابيع بنوع من الإجماع، يبدو راضيًا جدًا عن نفسه وعني لأسباب شتى، بعضها متناقض. ففي نظر معظم النواب انا مرشّح سلفي الرئيس فؤاد شهاب الذي كان قد أوكل إليّ وزارة التربية الوطنية. ويأملون انهم بفضل وجودي، سيستطيعون استمرار سياستهم ونفوذهم كأكثرية. وفي نظر النواب الآخرين، ان انتخابي ينهي وجود الرئيس شهاب على رأس الدولة كما يضع حدًا لخطر التجديد له. وكلا الشعورين يتقاسمان الرأي العام ويوحّدانه في آن معًا. فها هو لبنان برمّته يهلّل.

أمّا انا فلعلي الوحيد وسط الرضى العام لا تغمرني البهجة، وأشعر بحسرة.

ظاهرًا، انا باسم وضّاح. أردّ على هتاف النواب والجماهير. وأقوم بالمراسم التقليدية بابتسامة سعيدة. ولكني في المساء، عندما تلتهم أضواء الفرح قمم الجبال وتنير الروابي. وتأتيني من كل حدبٍ وصوب أصداء الآمال الملقاة عليّ، أرى ذاتي وحيدًا قلقًا. ليس هذا خوفًا من أعباء الرئاسة انما من دنو الأخطار التي باتت تتهدّدنا والتي تجلّت خطورتها لي منذ ايام.

مؤتمر القمة العربية في الاسكندرية (٥ – ١٢ ايلول ١٩٦٤)

في قمّة الاسكندرية التي اضطررت الى الاشتراك فيها قبل تسلّمي مهامي الدستورية ، بدأت أدفع ثمن انتخابي ، بل فديته . قمة الاسكندرية هي المؤتمر الثاني الذي اشترك فيه الملوك والرؤساء العرب في أقل من سنة . غايتها ، بالنسبة الى العرب جميعًا ، ردّ تحدٍّ اسرائيلي جديد : تحويل مياه الأردن . وكان على الرئيس جمال عبد الناصر ردّ تحدّي الاشتراكيين العرب الذين شرعوا يتهمونه بالتخلي عن فلسطين.

ولم يكن سلفي الرئيس شهاب قد اشترك في القمة الأولى (١٣ – ١٧ كانون الثاني ١٩٦٤) ، لأسباب صحية . غير ان هذا التغيّب أمسى موضع تأويلات فلاقى أصداء غير حسنة .

وفي مطلع هذا الشهر – ايلول ٦٤ – كان على الرئيس شهاب عينه أن يشترك في القمة ، ذلك ان ولايته لم تنتهِ وخاتمتها في الثالث والعشرين من أيلول . ولكنه رأى ان يعتذر عن الحضور « لئلاّ يزج خلفه في التزامات » على حدّ تعبيره . بل انه كان على استعدادٍ لأن يستقيل ويُعجِّل في إنهاء ولايته وجعل طابع وجودي في الاسكندرية رسميًا أكثر . وقد أدّى الأخذ والردّ الى حل جاء في آخر لحظة يقضي بأن احضر القمة بصفة رئيس دولة .

واستعدّيت للسفر بسرعة ، آخذًا من أوقات التهاني والزيارات التقليدية بعض ساعات للعمل . وشرعت في دراسة القضايا السياسية والتقنية والمالية والعسكرية التي ستعترضنا . وما هي هذه القضايا؟

عن القمة الأولى كان قد نتج تقريبًا ما يلي :

١ . على الدول المتاخمة لنهر الأردن (اي لبنان وسورية والأردن) ان تلجأ ، بواسطة إدارة تقنية موحّدة ، الى تحويل مجاري الينابيع والعيون المتدفّقة في أراضيها والمنسابة نحو نهر الأردن .

٢ . الدول العربية ملزمة جميعًا بحماية هذه الأعمال بقوة السلاح ضد أي تدخّل عسكري اسرائيلي .

كثيرون من اللبنانيين يجهلون تعهّداتنا العربية

قضية مياه الأردن ومسألة المساعدة العسكرية العربية – وقد دامتا مرتبطتين سنوات طويلة – تستحقان كلتاهما شرحًا صغيرًا هنا . ذلك ان فهم الموضوع ليس مستعصيًا على الغرباء عنا وحدهم ، بل هناك لبنانيون كُثر يبدون تعجّبًا ازاء شتى وجوه سياستنا العربية ، دون فقه طبيعة موجباتنا وأبعادها .

إن لبنان مرتبط بالبلدان العربية الأخرى بموجب ميثاق الجامعة (١٩٤٤) . وهو ميثاق تعاون سياسي يجمعنا في نوع من مؤتمر دائم (حيث لا أحد فيه ملتزم بأكثر مما يربطه اقتراعه) . كما هو مرتبط بموجب ميثاق آخر ، وهو اتفاق أمن مشترك ، يفرض نوعًا من تعاون عسكري ، وهو أكثر عَوَصًا . ويعود هذا الميثاق الآخر الى سنة ١٩٥٠ . وقد وُضع ووُقِّع اثر الحرب العربية – اليهودية ، وبعد إنشاء اسرائيل سنة ١٩٤٨ .

يعتبر هذا الميثاق ان كل اعتداء على دولة عربية يجب أن يُعتبَر اعتداءً شاملاً على الدول العربية جمعاء . وهو يلحظ في بعض بنوده ما يلي :

١ . تشكيل لجنة عسكرية دائمة مهمتها إعداد الخطط الدفاعية لكل من الدول الموقّعة ، ودراسة كل الوسائل الصالحة لأمنها .

٢ . تشكيل مجلس دفاع مؤلّف من وزراء خارجية ووزراء دفاع الدول الأعضاء ، أو ممن ينوب عنهم . وهذا المجلس مولج بتنفيذ مختلف بنود الميثاق والرجوع ، اذا اقتضى الأمر ، الى الدراسات التي وضعتها اللجنة العسكرية الدائمة .

أضف الى ذلك شيئًا جديدًا بالنسبة الى العلاقات العربية : ان المقررات المتخذة من قبل مجلس الدفاع بأكثرية الثلثين ، هي ملزمة للدول الأعضاء جميعًا .

٣. القوات العربية المشتركة في عمليات عسكرية توضع جميعًا في إمرة واحدة ، تؤمّن هذه القيادة الدولة التي لها أكبر عدد من الجند في ساحة المعركة . أمّا القائد الأعلى فلا يتم اختياره إلاّ بموجب قرار تتخذه الدول الأعضاء بالاجماع .

وفي منتصف حزيران من ١٩٦١ دُعي مجلس الدفاع الى اجتماع في القاهرة للبت في هيكلية القيادة العربية الموحّدة وصلاحياتها .

المشاكل الأساسية

أما المشاكل الأساسية التي واجهت الوفد اللبناني فكانت متعلّقة بهذه الصلاحيات أكثر منها بالهيكلية ، لا سيّما في علاقاتها مع مجلس الدفاع وفي علاقاتها ايضًا مع كل حكومة من الحكومات العربية . وكانت وجهة نظر الوفد اللبناني انه يجب ان تعرض كل خطط القيادة على مجلس الدفاع بادئ ذي بدء وتحظى بموافقته . وانه من حق هذا المجلس ان يرسم الخطوط الرئيسية للسياسة الدفاعية بالإضافة الى تحديد الأهداف والوسائل التي ستستخدم . وهذا الموقف طبيعي جدًا إذ يتيح لمسؤولي الدول العربية السياسيين – اي وزراء الخارجية والدفاع – مراقبة الشؤون العسكرية . ويتيح على صعيد آخر للدول ان لا تتخلّى عن سيادتها في تسيير العمليات.

وقد أثارت البعثة اللبنانية نقاطًا أخرى لا مجال لسردها هنا (منها مسألة تنقل الجيوش العربية من دولة الى أخرى ، وتمركز هذه القوات ، والتسلسل في الرتب) .

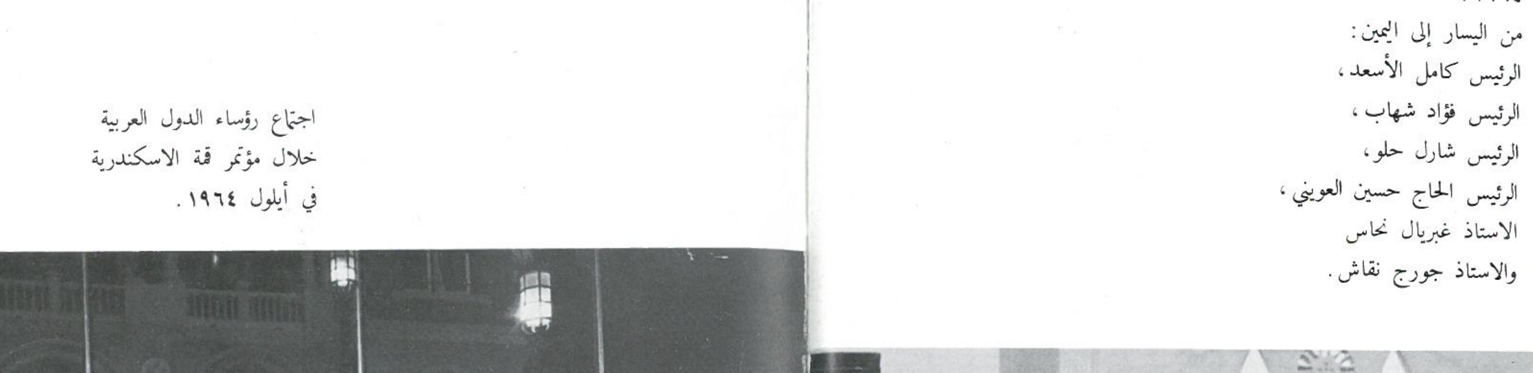
وكان من نصيبي ان عرفت بدوري كل هذه المشاكل وواجهتها بعد سنوات ، أي في ساعة الاستحقاقات ، وهي الساعة التي «صادفت وصولي الى الرئاسة» على حدّ قول أحد سفرائنا في القاهرة .

١٩٤٨ . البابا بيوس الثاني عشر
يستقبلُ رسميًّا لبنان في الفاتيكان .





١٩٦٤.
من تقاليدنا الشعبيّة.



١٩٦٤.

من اليسار إلى اليمين:
الرئيس كامل الأسعد،
الرئيس فؤاد شهاب،
الرئيس شارل حلو،
الرئيس الحاج حسين العويني،
الاستاذ غبريال نحاس
والاستاذ جورج نقاش.

اجتماع رؤساء الدول العربية
خلال مؤتمر قمة الاسكندرية
في أيلول ١٩٦٤.



ايلول ١٩٦٤.
في قمة الاسكندرية،
يبدو الوفد اللبناني
إلى اليمين.



قائد الجيوش العربية الموحّدة ، الجنرال علي علي عامر .

مهما يكن من موضوع صلاحيات القيادة المشتركة فانها شكّلت ، ووضعت هيكليتها . وكان واضحًا ان القائد الأعلى سيكون مصريًا ، بما ان لمصر أكبر عدد من الجنود في الساح . ثم بدأت المناقشة في جنسية رئيس الأركان . وكان الأردنيون والعراقيون يتنافسون لنيل هذا المنصب .

ذلك هو الوجه العسكري لمناقشات مجلس الدفاع الذي اجتمع في القاهرة من ١٠ الى ١٩ حزيران ١٩٦١ .

غير ان السبب الأساسي الذي حدا بالمجلس الى الاجتماع ثم الى تشكيل القيادة العربية كان يكمن في الواقع في التوتر الذي أصاب كل المنطقة من جراء المشروع الاسرائيلي الرامي الى تحويل مياه نهر الأردن .

فالدول العربية كانت نوعًا ما مرتبطة بقرار اتخذته باسمها جميعًا اللجنة السياسية المنبثقة عن الجامعة العربية في ٢٩ شباط ١٩٦٠ والقائل بأن تنفيذ هذا المشروع من قبل اسرائيل يوازي عدوانًا ، وان أي ردّ عربي على هذا التحدي يكون بمثابة دفاع مشروع .

تحويل روافد نهر الأردن

إنّ مسألة مياه الأردن هي أحد أوجه الصراع العربي – الاسرائيلي . قصة قديمة وطويلة اتسمت حسب آراء الخبراء الغربيين بطابع « التفجّر » ، وذلك طوال سنوات عديدة . وانها لتستوجب بعض شرح اذ انها كانت موضع اجتماعات عربية عديدة ، وأساسها ، كما كانت سبب مؤتمرات قمة وقرارات كثيرة .

وبما أنه يصعب التمييز بين مصير مياه الأردن وتاريخ الدولة الاسرائيلية ومستقبلها . فإنّ اسرائيل ، منذ نشوئها ، تطمع ليس بالمياه التي في متناول يدها وحسب ، وانما بمياه البلدان المجاورة جميعًا . ولا لريّ أراضيها الزراعية وتوليد الطاقة

٤

الكهربائية الضرورية لحاجة سكانها آنذاك ، بل من أجل إخصاب صحراء النقب ايضًا ، وبالتالي الاستعداد والتحضير لاستقبال هجرة عبرية ضخمة تتوجّه نحو فلسطين من سائر أنحاء العالم .

فبعد تنفيذها مشاريع عديدة موّلتها مساعدات أجنبية عديدة قرّرت اسرائيل المباشرة بمشروع سباعي يتيح لها الحصول على خمس مئة مليون متر مكعب من مياه الأردن . وذلك بتحويل مجرى النهر بواسطة قناة يشق قسم منها في المنطقة العازلة السورية – الاسرائيلية . لكن ردود الفعل السورية ، والشكاوى الى مجلس الأمن ، والادانات الصادرة عن هذا المجلس سنتي ١٩٥١ و١٩٥٣ ، وأخيرًا تدخّل الولايات المتحدة الأميركية ، كل هذه حدت إسرائيل لا على العدول عن مآربها ، وإنما على تبديل وسائل التنفيذ . فالمياه تُسحب من بحيرة طبريا بواسطة مراكز ضخ ضخمة ، وتُجرّ بواسطة أقنية كبيرة من شمالي اسرائيل الى جنوبها ، وذلك على طول مئات الكيلومترات .

في أثناء ذلك اقترحت بعثة اميركية يرئسها السيد ايريك جونستون – المبعوث الشخصي للرئيس ايزنهاور في الشرق الأوسط – توزيع مياه الأردن بين البلدان المجاورة للنهر اي لبنان وسورية والأردن واسرائيل . وقد جاء هذا الاقتراح بناء على طلب من الأونروا (وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين) . غير ان المشروع ، الموضوع بين سنة ١٩٥١ و ١٩٥٣ ، جوبه برفض الدول العربية واسرائيل معًا . وبالرغم من احتجاجات العرب وتهديداتهم ، فان اسرائيل استمرت في اعمالها الرامية الى السطو على أكثر من ثلاث مئة مليون متر مكعب من الماء .

وقضت ردّة الفعل العربية ، غداة تأسيس القيادة المشتركة ، بوضع دراسة لتحويل روافد الأردن النابعة من البلدان العربية ، واستعمالها في سبيل هذه البلدان دون سواها . وترمي هذه العملية الى حرمان اسرائيل من ثلثي مواردها المائية الجديدة ، كما تساهم في زيادة ملوحة بحيرة طبريا لأنها تحرمها من قسم وافر من المياه العذبة التي

تنصب فيها . ولا بدّ لاسرائيل أن تعارض هذه العملية بالقوة ، ولا سيّما انها أعلنت عن ذلك . فما على العرب إلاّ أن يسعوا الى ثلاثة :

١. القيام بأعمال ضخمة في لبنان وسورية والأردن ضمن مشروع جماعي يتيح استفادةً معقولة من المياه المكتسبة .

٢. تمويل هذا المشروع الجماعي .

٣. حماية الأشغال عسكريًا .

إنّها مهمّة صعبة تتطلّب توافقًا صريحًا وشاملاً بين الدول العربية . لكن ، بدلاً من الوفاق ، فقد استفحل الخلاف وعمّ الجدال فلم ينج منهما أحد .

اتهم الاشتراكيون العرب جمال عبد الناصر بخيانة العرب والقضية الفلسطينية . فردّ على هجومهم بأشدّ منه . ثم سرعان ما ألقى خطابًا في الاسكندرية (كانون الاول ١٩٦٣) دعا فيه الجميع الى اجتماع قمة . التأمت القمة في القاهرة من ١٣ كانون الثاني ١٩٦٤ الى ١٧ منه . وقد اشترك فيها معظم ملوك ورؤساء الدول العربية . أمّا لبنان فقد مثّله رئيس الحكومة ووزير الخارجية ولم يشترك رئيس الجمهورية بسبب وعكة ألمّت به .

أقرّت القمة ان يترك لمصر خيار القائد الأعلى الذي يعيّن بدوره رئيس أركانه . ودُعيت الدول العربية الى تسمية مندوبيها لدى مجلس الأركان وذلك في غضون شهر . وفي الوقت عينه تعهّدت الدول بوضع طاقاتها جميعًا في تصرّف هذه القيادة (باستثناء بعض وحدات) .

على صعيد آخر ، شُكّل مجلس تقني في قلب الجامعة مهمته استثمار مياه الأردن . وقد اوكل الى هذا المجلس إدارة المشاريع وتنفيذها .

أخيرًا أسّس صندوق مشترك من أجل تمويل أعمال تحويل المياه ومن أجل دعم القوى العسكرية في كل العالم العربي . تموّل هذا الصندوق اولاً الدول الأكثر ثراء ،

اما القسم الآخر فتتوزّعه بلدان الجامعة التي تساهم فيه بنسبة إسهامها العادي في موازنة المنظمة .

قدّرت كلفة التسلّح بحوالى مئة وخمسين مليون جنيه استرليني تُدفع على عشر سنوات .

وكانت تحسب على أساس الحد الأدنى لرواتب الرجال ولأسعار الأعتدة (رواتب الجنود المصريين والأعتدة المُشتراة بأدنى الأسعار ولا سيّما أعتدة المصريين المقدّمة على الأخص من بلدان الشرق) . أما الدول العربية التي كانت تدفع لقواتها زيادة عن ذلك او تفضّل شراء عتادها من بلدان أوروبا وأميركا بسعر أكثر ارتفاعًا فقد وجب عليها ان تغطّي بنفسها الفروق في السعر .

أما تكاليف الأعمال فهي ذات شقين : المنوطة بالمرحلة الاولى (وتقضي بتحويل الروافد) وتُقدَّر بحوالى ستة ملايين جنيه استرليني ، وتلك المتعلّقة بالمرحلة الثانية (وتقضي باستثمار المياه في مشاريع إنمائية في البلدان المعنية) وتُقدَّر بخمسة وستين مليون استرلينية . وكل مشروع لتنمية إضافية في بلد عربي كان لا بد من أن تموّله الدولة التي تنفّذه .

ونتيجة لذلك ؟

فقد وجدنا أنفسنا ملتزمين بتحقيق مشروعين جبارين : أحدهما إقامة سدّ على الحاصباني ، والآخر إنشاء محطة ضخ على الوزاني . وكلا المشروعين – ولا سيّما الثاني منهما – قد يعرّضنا لردود فعل مؤذية ووحشية . امّا قواتنا المسلحة ، فهي في حال نشوب مواجهة ، في تصرّف القيادة العربية الموحّدة . وقد رصدت لنا اعتمادات من أجل شراء طائرات ودبابات ومختلف أنواع الآليات العسكرية ، ومن أجل مضاعفة قواتنا الحربية ، بإشراف القيادة الموحّدة .

إقامتك في الاسكندرية ستكون نزهةً لك

اطّلعت على كل هذه التفاصيل في غضون أمسيات معدودة . كما أُحطت علمًا بكل ما تحويه من ملابسات تقنية وعسكرية واقتصادية .

وشرع الوزراء والاختصاصيون الذين دعوتهم الى اجتماعات عمل في عرض مختلف جوانب المقرّرات المتخذة ومراحل تطبيقها . وقد اعترف إلي أحد المسؤولين بأن «عملية تطوير الطاقة العسكرية العربية تتطلّب سنوات طويلة . وان أعمال تحويل مياه الأردن ستُرجأ اذًا حتمًا» .

وأضاف : «ان المؤتمر سيسبقه – كما ورد في الميثاق الأمني – اجتماع لمجلس الدفاع العربي الذي يتألف من وزراء الخارجية والدفاع العرب بالاضافة الى رؤساء أركان الجيوش العربية» .

ثم «ان مندوبنا في المجلس ، رئيس أركان الجيش اللبناني الزعيم شميط ، هو رجل ذو خبرة واسعة ، وقد أخذ تعليماته من الرئيس فؤاد شهاب . وسيكون قد بدّد كل المصاعب قبل وصولكم الى الاجتماع» .

وختم المسؤول قائلاً : «غاية القمة الأساسية افتعال مواجهة سياسية بين المندوبين العرب ، ولا شك في أن هذه المواجهة ستؤدي الى نوع من تراجع عن المواقف المتصلبة ، والى توافق» .

أما خلاصة هذا التحليل فهي التالية :

على لبنان ان يلزم الحياد ، بقدر المستطاع ، ازاء الخصام الواقع بين النظام البعثي في سورية الذي يحيط بنا من الشمال والشرق ، وبين النظام الناصري الذي يحظى عندنا وعند سوانا بهالة كبرى .

وقال لي آخر :

«ستكون زيارتكم للاسكندرية مجرد نزهة» .

واطّلعت على الملفات فوجدتها مطابقة لهذا الشرح . غير ان هناك وثيقة أثارت فيّ الحيرة ، وهي صادرة عن القائد الأعلى ، ويبدي فيها عجبه من عدم مباشرتنا الأعمال . وقد ظلّت رسالة اللواء علي علي عامر دون ردّ . وما معنى كل ذلك طالما يفترض فينا الانتظار سنوات لتأمين حماية عسكرية كافية قبل أية مبادرة على الأرض قد تكون عواقبها خطيرة .

وعبثًا حاولت معرفة الأمر بالاستشارات والدورس . وبقي السر غامضًا مبهمًا عليّ حتى وصولي الى مصر .

اللقاء الأول مع الرئيس جمال عبد الناصر

في الاسكندرية ، حيث كنت قد توجّهت على رأس وفد يضم رئيس الحكومة الحاج حسين العويني ومسؤولين آخرين ، استقبلني الرئيس جمال عبد الناصر بحفاوة فائقة ، وقد سرّ عبد الناصر لاستقباله رئيسًا لبنانيًا يشترك في مناقشات القمة . وفي هذا اللقاء الأول كان كلانا ينظر الى الآخر بشيء من الفضول ، فكنت أتطلّع الى هذا العملاق المبتسم الذي تعوّد مواجهة الصعاب ببساطة دون التخلّي عن علامات الارتياح . وتراءى لي وهو يسير الى جانبي انه قد أتاح لي فرصة الردّ على الجماهير كأن الهتاف المتصاعد من كل صوب موجّه إلي . كنت أمشي في جو من الارتياح ، الى جانب هذا الرجل الذي راح يبادلني أطراف الحديث ... وبدا لي كل شيء طبيعيًا ، مرضيًا .

غير انني في المساء بدّلت الرأي تحت وطأة المفاجآت التي واجهتني .

علمت بادئ ذي بدء ان مجلس الدفاع العربي لم يكن قد التأم إلاّ بشكل مفاجئ وبصورة شكلية . وقد قرّر ترك موضوع البت في الأمور العالقة للملوك والرؤساء .

كان علي اذًا ان أواجه مشاكلي إبّان اجتماعات المجلس . وأولى هذه المشاكل مسألة توسيع صلاحيات القائد الأعلى . وكان على القائد ان يضع مخطّطًا مبدئيًا يعرضه على

مجلس الدفاع قبل وضعه موضع التنفيذ . كما يفترض المشروع الجديد إعفاء القائد الأعلى ممّا كان يسمّيه «بوصاية المجلس» ، اي انه يتخذ المقرّرات ويضعها مباشرة موضع التنفيذ . فكأنه بذلك يضرب عرض الحائط بسيادة الدولة ومسؤولياتها .

وهناك موضوع آخر لا يقل عن الأول صعوبة وهو رغبة القائد الأعلى في أخذ صلاحية نقل الجيوش من بلد عربي الى آخر ، كيفما اتفق ، وحسب متطلبات استراتيجيته .

وموضوع ثالث :

كان بود القائد الأعلى تعزيز القوات اللبنانية بجيوش عربية ، ولا سيّما سورية ، قبل المجابهة ، وهذا يعني الى حدّ ما التسبب بالمجابهة واحتلال اسرائيل للبنان ومخالفة كل منطق لبناني وكل قضية استراتيجية .

أخيرًا كان القائد الأعلى ينوي بدء الأعمال دونما إبطاء ، وقبل أن يجعل مشروعه للوقاية العسكرية موضع التنفيذ . فكانت هذه التحضيرات غير كافية ، ممّا يجعل القضية في منتهى الخطر .

مسائل متعدّدة وكلها بمثابة امتحان لي . فكل ما يتعلّق بلبنان بدا لي موضع تشكيك : منطق الأمور ، سلامة الأراضي ، سيادة الدولة . وأخيرًا قضية فصل السلطات في لبنان بين رئيس الدولة ، ومجلس الوزراء ، والمجلس النيابي ، من أجل التوصّل الى مواجهة هذه المقرّرات جميعًا .

كان مقرّرًا ان نجتمع انا والرئيس عبد الناصر في اليوم التالي . واستعدّيت في الليل لهذا اللقاء ، وأجلتُ في خاطري كل المواضيع اللبنانية المصرية التي من شأنها تعزيز الاواصر بيننا ثم مواجهة اعتداد القائد الأعلى ولا سيّمَا انه ليس أكثر من ضابط مصري ...

عُقد الاجتماع في اليوم التالي ، ودام أكثر من ساعة استطعت خلالها أن أعرض على عبد الناصر المشاكل بكل صراحة . وهل كان الرئيس المصري غافلاً عنها؟ لا

شك أنه كان أقل تحسّسًا مني بالقضايا الدستورية ، وبروح المشاعر النفسية اللبنانية ، لكنه ايضًا ما كان ليعتقد بأنني قد أرتضي جيوشًا سورية او عربية اخرى في جنوبي لبنان ، وهي جيوش ستُرسَل لدرء الخطر ؛ لكنها في الواقع قد تجلبه دون أن يكون في مقدورها مواجهته . وقد ارتحت كثيرًا عندما سمعته يقول لي :

« لا شك في أن دخول قوات سورية الى أراضيكم سيعطي العدو ذريعةً وحجةً للقيام بعدوان عليكم » .

أما في المسائل الأخرى فكان عبد الناصر لطيفًا على تحفّظ . هل كان يود إرجاء جوابه الى آخر المؤتمر ؟ او انه كان حريصًا على ألاّ يتخلى عن أية حجة قد تنفعه ذريعة في وجه سائر المؤتمرين ؟

في خلال هذا اللقاء دخل علينا المشير عبد الحكيم عامر . وهو ذو طلّة لطيفة لا تخلو من جاذبية ، ووجهٍ باسمٍ أبدًا . فبادرني بكلام شاء ان يكون في غاية الجد ، فقال :

« انكم تستطيعون طلب لواء مصري يحمي أراضيكم بدلاً من الجيوش السورية المعروضة عليكم » .

أجبته :

« الأخ جمال عبد الناصر أجاب سلفًا عن اقتراحك . فالقوات المصرية – كما القوات السورية – لا تستطيع إلاّ جلب العدو ، دونما التمكّن من صدّه » .

وأردف عامر :

« لديكم على كل حال ضمان ، وهو في مساندة الطيران المصري . فلا مجال للتخوف من إسرائيل » .

مرّت فترة قصيرة قبل أن أفقه غاية هذه التطمينات كلها . فعبد الناصر وعامر مستعدان لمجاراتي في كل تحفّظاتي ، ومساندتي ايضًا ، غير انهما كانا يحثانني على

القبول بالمباشرة الفورية في الأعمال على نهر الأردن .

وهذا القرار ، على ما يبدو ، كان يهم عبد الناصر أكثر من أي شيء آخر . أبسبب تأثيره على اسرائيل ؟ ام من أجل اتخاذه ردًا على السوريين وبذلك يضع حدًا لمزايدات العرب ؟ أم انه من أجل عدم تخييب الرأي العام العربي الذي كان ينتظر من هذه القمة أمورًا محسوسة وايجابية ؟

الملوك والرؤساء العرب ، تلك الألغاز المبتسمة

دخلت اذًا قاعة الاجتماعات وكل هذه التساؤلات تجول في خاطري ، وجلست في المكان المخصّص لي حول الطاولة المستديرة . ومن مقعدي ، بين أمير الكويت وملك ليبيا الهرِم ادريس ، رحت أجيل النظر في وجوه زملائي الجدد ، وكلهم بالنسبة إلي رموز ، رموز أخوية مبتسمة ، ولكنها مجرّد رموز . وقد جلسوا الى طاولة المناقشات حسب التسلسل الأبجدي لأسماء دولهم . وهم من اليمين : الشيخ عبدالله السالم الصباح أمير الكويت ، المشير السلال زعيم اليمن ، جمال عبد الناصر ، الرئيس السوري أمين الحافظ ، الحسين ملك الأردن ، الرئيس العراقي عبد السلام عارف ، المشير عبود زعيم السودان ، وأحمد بن بلا قائد الثورة الجزائرية .

أما مقعدا تونس والمغرب فقد احتلها ممثلان شخصيان عن الرئيس بورقيبة والملك حسن الثاني ، هما : رئيس الحكومة التونسية الباهي الأدغم ، والأمير عبدالله ، شقيق الحسن ، وكان آنذاك ولي عهد المغرب . أما الرئاسة ، وهي دورية ، فقد تولاّها يومها ولي عهد السعودية الأمير فيصل بن عبد العزيز الذي صار في ما بعد عاهلاً للمملكة . والى جانب الفيصل قعد رجل شاء الترتيب الأبجدي ان يكون جارًا له بالرغم من كونه « غير محب » له كثيرًا . ألا وهو أحمد الشقيري ، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية . قد يكون هنا مجال في تخصيص وجيز لألقاب السيد أحمد الشقيري وصفاته . كان ينتسب الى عائلة فلسطينية قديمة . ولما حضر ، كممثل لفلسطين ، أول

مؤتمر قمة عربي في القاهرة بتاريخ كانون الثاني ١٩٦٤ ، عهد إليه الملوك والرؤساء العرب في إنشاء منظمة معدّة لإشراك أبناء بلده في الكفاح المسلّح لتحرير فلسطين في إطار استراتيجية عربية مشتركة .

خلال عام ١٩٦٤ ، باشر السيد الشقيري العمل لتجنيد مواطنيه وجمعهم في منظمة . فزار جميع البلدان العربية بما فيها لبنان ولقي فيها الاستحسان والتشجيع . وفي ٢٨ ايار ١٩٦٤ انعقد في القدس المؤتمر الفلسطيني الأول بحضور ملك الاردن وممثلين عن الملوك والرؤساء العرب ، وأعلن إنشاء «منظمة التحرير الفلسطينية» . وقد انتُخب السيد الشقيري رئيسًا للجنتها التنفيذية .

فيما بعد وخلال اجتماعات عروبية عديدة ، خاصة في آب ١٩٦٤ ، عرض الشقيري خطط عمله التي تبنّى قسمًا كبيرًا منها الأمين العام للجامعة العربية عبد الخالق حسونة والقيادة العربية الموحّدة ودفعا بها ، بعد شهر ، إلى قمّة الاسكندرية الثانية للموافقة عليها .

اقتطع مبلغ ثلاثة ملايين ليرة استرلينية من موازنة القيادة العربية الموحّدة لتمويل جيش تحرير فلسطين .

وكان هناك مقعدان ، واحدٌ للأمين العام ، وآخر لقائد القوات العربية علي علي عامر .

قبالتي الآن صورة لأحدى اجتماعات هذا المؤتمر . فكم واحد من هؤلاء الملوك والرؤساء والزعماء ، الذين اجتمعوا لاتخاذ قرار في غاية الأهمية يومها – أيلول ١٩٦٤ – بقي حيًا او ما يزال في منصب المسؤولية ؟

عبد الناصر وعارف والشيخ صباح توفوا . السوري والسوداني واليمني فقدوا السلطة او الحياة في ظروف غامضة . ومثلهم خلفاؤهم في حكم سورية والسودان واليمن . اما الجزائري والليبي فقد أُزيلا من الساحة السياسية .

وفي القيادة العربية الموحّدة ، فقد توفي علي علي عامر كما توفي رئيس أركانه عبد المنعم رياض . والأمين العام حسونة متقاعد ...

كل هذه الخيالات ما زالت تجول في خاطري . وأصوات أصحابها تضجّ في أذنيّ . كما يضجّ ايضًا في ذاكرتي صوت ذاك الرجل الذي كنته : انا ، الحريص من جهة على التضامن مع جميع الإخوان والزملاء العرب ، والمرغم من ناحية أخرى على التصدي لهم جميعًا ، تارة لاعتبارات قانونية لا يرون فيها أهميةً فائقة ؛ وطورًا لأسباب عملية كانوا يشكّون في فائدتها .

مونولوجات الجنرال علي علي عامر

هو الفريق علي علي عامر الذي فتح النار كما كان منتظرًا . وذلك إذ ألقى على المؤتمرين تقريرًا مفصّلاً في موضوع التجهيزات الأخيرة من أجل تحويل مياه الأردن . وقد لحظ القائد الأعلى في تقريره أن معظم الدول متباطئة في الإجابة على أسئلته المتضمّنة في تعليماته العسكرية . أضف الى ذلك ان طلبات المساعدة المالية للبلدان المعنية (لبنان وسورية والأردن) من أجل الاستعدادات العسكرية ، قد فاقت كل التوقّعات والتقديرات .

هاك مثلاً يعطي فكرة عن هذا التفاوت في الآراء :

ان المئة والخمسين مليون جنيه استرليني التي رصدتها القمة الأولى لهذه الدول الثلاث ، وجبت مضاعفتها مَثنى وثلاث في حال اعتماد المقاييس المحلية بدلاً من جداول الجيش المصري ومقاييسه .

ولكن أهم ما في ذلك ان عامر كان يشكو من المشاكل العديدة التي تعترضه في موضوع تمركز الوسائل الدفاعية الضرورية من طائرات ودبابات وعسكريين .

تلا ذلك تقرير مطوّل للأمين العام عبد الخالق حسونة في مواضيع عديدة أولها التعاون الثقافي العربي وآخرها الوضع العام في دول الخليج العربي ، أضف الى ذلك

مسائل أخرى اعتبرها الأمين العام جديرة بأن تُدرَج في التقرير النهائي الذي سيصدر عن هؤلاء الزعماء المجتمعين في قمة الاسكندرية . وبعد مناقشة قصيرة حول الوضع عامة ، عمد المجتمعون الى دراسة المسألتين الهامتين : الأشغال والتسلّح .

ففي صدد الأشغال ، كان عاهل الأردن الملك حسين قد أحضر جوابًا : انه متفق كل الاتفاق مع مجلس استثمار مياه الأردن من أجل تحقيق المشروع . وأكثر من ذلك انه كان يتقاضى مساعدة إضافية لسدّ نفقات إنشاء أقنية جديدة اتفق الجميع على ضرورة إنشائها .

مخطط في ثلاث ساعات «لاسترجاع فلسطين»

أما بالنسبة الى سورية ولبنان فالمسألة تختلف كل الاختلاف . وقد شرع الرئيس السوري أمين الحافظ في شرح موقف بلاده فقال :

«ان الأشغال على مياه الأردن ليست سوى جزء من مخطط أميركي – مشروع جونسون – وهو يرمي الى توزيع مياه نهر الأردن بين اسرائيل والدول العربية» .

ولم يذكر الرئيس الحافظ ان الأشغال في سورية ولبنان تتعدى هذا المشروع ، مشروع جونسون ، وانها بالتالي تعرّض كلتا الدولتين لردود فعل انتقامية . بل إنها المزايدة بعينها ، وقل هو نوع من هجوم ، فأردف متسائلاً :

«ما معنى هذا الدوران وهذه الخزعبلات ؟ لو كنا أكثر رصانة للجأنا حتمًا الى وضع مخطط في سبيل استعادة فلسطين عينها ، لا لتحويل مياه الأردن ! » .

تعالت الضوضاء وارتفعت احتجاجات على غرار :

«لقد أضعنا حتى الآن سنة كاملة في سبيل التحضير لاستراتيجية دفاعية ضد اسرائيل» .

أو :

«نحن ما زلنا عاجزين عن حماية أشغالنا . متى تنوون المباشرة في الهجوم ؟ » .

أجاب الحافظ برباطة جأش كاملة :

«يلزمنا ثلاث ساعات» .

وتعالت أصوات أخرى ، فاستطرد الحافظ :

«يلزمنا ثلاث ساعات من أجل وضع مخطط عمل يتيح لنا القضاء على التحدي الاسرائيلي . أجل ، اننا اذا خططنا ثلاث ساعات ، استطعنا ان نتخلّص من اسرائيل ولا نعود نسمع بها» .

هذه «الساعات الثلاث» هي التي طالما أخذوها ذريعةً وانتقادًا ضد أمين الحافظ بعد حرب الايام الستة (هذه الحرب التي لم يتسنَّ له ان يشترك فيها اذ انه قُلب وأُبعد عن الحكم في شباط من عام ١٩٦٥) .

الحق يُقال ان أمين الحافظ لم يزعم مرة انه يستطيع القضاء على اسرائيل في غضون ثلاث ساعات بل انه كان يصر على ان هذه الساعات كافية لوضع مخطط عربي شامل . ولكن ، وبالرغم من هذا التصويب ، فان أقوال الرئيس السوري تبقى موضع استغراب ، فقد كان هذا الرجل يسعى الى الهرب من المبادرات الخطرة التي تُعرض عليه بعرضه مبادرات أكثر خطورة ، لم يطلبها أحدٌ منه .

«كان الأجدى بنا لو ذهبنا الى العشاء»

طوال جلسة كاملة استغرقت فترة بعد الظهر ، راح الرئيس السوري يردّ على معارضيه . وكأنه كان ينوي القضاء عليهم يجرّهم الى السأم . بعد فترة ، سأل الأمير فيصل ، وكان يرئس الجلسة ، ما اذا كان المؤتمرون يودون إيقاف مناقشاتهم والذهاب

الى العشاء، على ان تُستأنَف هذه المناقشات في المساء. فتضاربت الآراء، وظن بعضنا ان الرئيس الحافظ قد أدرك خاتمة حججه وان النهاية آتية لا محالة، فطلبوا استمرار المناقشات أملاً بجعل أمسيتهم حرّة طليقة.

لكنّ الحافظ تابع قائلاً:

«ما هي هذه الأشغال التي يطلبونها منّا؟»

«كيف يدعوننا الى الاجتماع من أجل غاية تافهة كمسألة تحويل روافد الأردن؟ في حين نستطيع خلال بضع ساعات وضع مخطط دفاع كامل؟...»

نظر المجتمعون بعضهم الى بعض. وأيقنوا انهم لم يصلوا الى خاتمة مصاعبهم. لم يستطع مثلاً المشير السلال ان يستر خيبته. وهو الذي يُسقط الرؤوس العديدة في اليمن دونما تردّد على الرغم من مظهره الطيب. فأبدى جوعه وهو الخاضع لنظام طعام صارم، وقال بصوت منخفض:

«كان الأجدى بنا لو ذهبنا الى العشاء».

فوقع كلامه إبّان وقفة قصيرة في تعليق الرئيس السوري. فسمعه الجميع، وكان يعبّر عن رأيهم جميعًا، فاسترسلوا في الضحك. ولم يبدِ الحافظ انزعاجًا، بل تابع كلامه بصوت اقوى:

«أرى ان البعض يسعى لاستدراجي الى حرب أعصاب. انا مستعد للصمود ومتابعة الكلام ما لزم...» واستأنف خطابه اللامتناهي. ولكن الجلسة اختُتمت أخيرًا بنوعٍ من الحلّ الوسط، وهو:

تحويل روافد الأردن ما هو إلاّ مرحلة أولى في الردّ العربي على التحدي الاسرائيلي. القائد الأعلى مولج بحماية الأشغال في المرحلة الأولى كما هو مكلّف بوضع خطة شاملة خلال سنة، من أجل شن عملية واسعة النطاق.

وهكذا استطعنا فض الجلسة والتوجّه الى العشاء.

كنت قاعدًا بين اثنين: المشير السلال الذي كان يختار طعامه بكل عناية، والرئيس العراقي عبد السلام عارف، وهو بطل انقلابين: الأول وهو الذي قام به الى جانب عبد الكريم قاسم من أجل إطاحة العرش الهاشمي في العراق (١٤ تموز ١٩٥٨)، والآخر ضد عبد الكريم قاسم نفسه لاحتلال مكانه. وكنت أرنو الى عارف وأستعيد في ذاكرتي المرحلة الأخيرة من صراعه ضد قاسم:

فقد سمع قاسم في الاذاعة أثناء توجّهه الى مكتبه في الأركان ان انقلابًا جرى ضده. وان هذا الانقلاب قد نجح. وكان هذا الخبر الأخير مدسوسًا ولا شك وخاطئًا، لكنه ضروري من أجل حماسة أنصار الانقلاب الجديد. فوقع على قاسم وقع النبوءة. فتابع سيره وتوجّه الى مكتبه حيث وجد نفسه محاصرًا أسيرًا. وبدا كأنه ميت مع وقف التنفيذ. عندئذٍ أخذ الهاتف وخاطب رفيقه القديم المنتصر اليوم. وأية مأساة هذه المكالمة وفيها ثقل الخشية، والنداء الى الشفقة! فكأنها تدق آخر نبضات الحياة. وان هذه المكالمة المأساوية – وهل خطوط التلفون إلاّ صلة وصل وأداة قربى؟ – هي إحدى المراحل في سقوط قاسم التي أثّرت فيّ انا أكثر من سواها... والآن ها هو عبد السلام عارف قاعد الى جنبي، والابتسامة لا تفارق شفتيه، قميصه ناصع محكم، ويداه أنيقتان كأنما أظفاره مقلّمة!.

كان يلجأ بلذة فائقة – لذة الأطفال – الى تحذير السلال من مد يده الى الألوان المتراكمة على مائدة الطعام. وكان يسعى إلى إشراكي في هذه المحاولات الرامية الى منع المشير من الأكل.

* * *

من وعود القائد العام الى تهديدات الرئيس العراقي

في اليوم التالي، كانت تنتظرني أمور ذات أهمية أكبر.

في الجلسة الصباحية، كان جدول الأعمال مخصّصًا لموضوع تحديد زمان الأشغال على الأردن، وهنا اضطررت الى مجابهة المجموعة كلها بمن فيها القائد الأعلى وبمن فيها عبد الناصر ايضًا.

كانت أمنية المجتمعين أن يعلن إبّان هذا المؤتمر او في مقرّراته الختامية ان الأوامر قد أُعطيت من أجل المباشرة في الأشغال.

ولم يكن بودّي انا أن أرضى بحل هذه المشكلة عن طريق المزايدة أو بالاعتصام بحبل الخديعة فأتظاهر بالرضى عن المقرّرات ثم بعد ذلك أسعى الى عدم الالتزام بها. فاضطررت عندئذٍ بالرغم من خطر تخييب آمال البعض، وجرح مشاعر البعض الآخر، الى دعوة الجميع إلى مزيدٍ من الواقعية. ولا سيّما ان الواقع هنا بيّن، ظاهر، وعلى مرأى من الكل.

فالقائد الأعلى عينه كان قد لفت أنظارنا في تقريره الى نواقص في الاستعدادات العسكرية، كما انه حمّل بعض الدول مسؤولية الإبطاء في تلبية مطالبه. فكيف نجيز لأنفسنا اذًا ان نتحدّى العدو بمثل هذا التسرّع؟

طلبت من سفيرنا في مصر جوزف ابو خاطر، وهو عضو في الوفد اللبناني، ان يحضر إلي نسخة عن تصريح الفريق علي علي عامر الذي ألقاه في جلسة الليلة الفائتة.

قرأت هذا التصريح على زملائي مضيفًا انني عاجز عن زج لبنان في مغامرة بمثل هذه الخطورة، أي متكلاً على تمنيات القيادة العامة وحسب.

أثار كلامي موجة عارمة من الاستياء. استدعي على أثرها عامر الى الجلسة حيث تراكمت عليه الأسئلة والاستفهامات. وكأنه كان يزين النتائج التي استخلصتها من أجوبته. قال ما معناه:

«لا شك في انني متكل على الدول العربية لأحظى بما وعدتني به من رجال وعتاد ومساعدات مادية. وهذا سيتيح لي وضع استراتيجية موسّعة. اما في الوقت الراهن فالموضوع لا يتعدّى مسألة الردّ على هجمات اسرائيلية محدودة. فالقيادة الموحدة تستطيع مساعدة كل دولة عربية في دفاع محدود».

وبالرغم من المعارضة التي قوبلت بها من كل صوب فقد قلت:

«اعذروني لعدم معرفتي بالأمور الاستراتيجية العسكرية.

ولكنني أظن ان الدفاع والهجوم ليسا في النهاية إلاّ وجهين لعمل عسكري واحد. فالذي لا يستطيع ان يقوم بهجوم، عاجز لا محالة عن الدفاع...»

إجماع ضد الموقف اللبناني

وطالت المناقشات في جو من فقدان الصبر المتزايد.

وتدخّل عبد الناصر فقال:

«إليك مهلةً. هل أربعة أشهر كافية؟»

أجبته:

«لا أعرف أية مهلة أنسب لي، سَواء ان طالت او قصرت. كل شيء عائد الى فعالية المساعدة العسكرية، ولا سيّما المظلة الجوية، التي تُؤمّن لنا.»

وهدّدني عبد السلام عارف صارخًا:

«سنقول للعالم العربي ان لبنان يقف في وجه عملنا. وعليك عندئذٍ ان تجيب عن هذه التهمة امام الرأي العام في جميع الدول بما فيها دولتك».

ومرة اخرى، لجأ عبد الناصر الى حل وسط فسألني:

«وماذا تطلب في النهاية؟»

أجبته :

« أن يأخذ القائد الأعلى على عاتقه مسؤولية إعطاء الأمر ببدء الأشغال ، بعد الاتفاق مع القيادة اللبنانية » .

قال علي علي عامر :

« انكم لا تستطيعون إرغامي على طلب موافقة القيادة اللبنانية . فانا بذلك أفقد المبادرة ، مبادرة إصدار الأمر » .

غير ان عبد الناصر لم يكن يرغب في مزيد من الخلاف ، فأعلن انه متبنٍّ لرأيي ، ولكنه أصرّ على ان لا يُدرَج هذا الحل في المقرّرات التي ستُذاع وتُنشَر . ان المقرّرات ستعلن عن المباشرة الفورية في تحويل روافد الأردن . أما التحفّظ اللبناني فسيُدرَج في محضر الجلسات .

* * *

الجلسة التي واجهتني بعد الظهر كانت من نوع آخر . ذلك انه قبيل التئامها ، كان سفير مصر في بيروت قد اتصل ببعض أعضاء وفدنا الى القمة وقال لهم « بأخوّة صادقة » ان موقف لبنان قد يؤدي الى تفجير القمة وتفشيلها . وقد نقل الأعضاء هذا الكلام إليّ ، والى رئيس أركان جيشنا الزعيم شميط الذي ثبت على موقفه الحازم .

وقد كمنت صعوبة المناقشات في كونها اقتصرت يومها على مسألة قانونية « حقوقية » ما كان الزعماء المشتركون في القمة ليُعيروها كبير اهتمام ، وهي متعلّقة في الحق المطلق الذي يطالب به القائد الأعلى في نقل الجيوش من دولة عربية الى دولة عربية أخرى ...

وهذا المطلب الذي لا بد له ان يثير في لبنان شتى المعضلات على الصعيدين النفسي والدستوري ، كان يبدو طبيعيًا بالنسبة الى معظم المشتركين.

وقد صرّح بن بلا قائلاً :

« هذا الأمر ضروري ، ولولاه لما استطاع القائد الأعلى شيئًا » .

قالها بكل ثقة ووضوح كأنها حقيقة ملزمة .

واقترح الباهي الأدغم – الذي كان يود إبعاد بلاده تونس عن كل تورّط – ان تشترك البلدان العربية المتاخمة لاسرائيل ، ولا سيّما تلك المعنية في استثمار مياه الأردن ، في كتلة واحدة ضمن المجموعة العربية من أجل دراسة المسائل المنوطة بالمواضيع التقنية والعسكرية دراسة أعمق . وقد بدا لي هذا الاقتراح النابع عن المندوب العربي الأكثر لينًا ، شائكًا وخطيرًا اذ ينبئ بشكل آخر وجديد من أشكال فكرة الهلال الخصيب .

والمأساوي في وضعي ، انني أشعر بأنني ملزم في صدد مسألة خاصة ، ان أشرح او أبرّر مجموعة نظمنا الدستورية ، وأن أجيب عن كل شيء لأي كان .

أما الملك حسين – وكنت قد علمت من تقرير الفريق عامر انه قد رفض حتى الآن كل مساعدة عسكرية عراقية – فلم يكن يفوه بكلمة .

الرئيس السوري اكتفى بموقف قد يكون أثره التطبيقي كبيرًا ، غير ان هذا الموقف لم يكن كافيًا لإيفاء الشرعية الدستورية اللبنانية حقها . فقضى موقف الرئيس أمين الحافظ بأن لا يتم دخول جيوش عربية الى أي بلد عربي دون ان يسبق ذلك « تنسيق » واتفاق بين القيادة الموحّدة والقيادة المحلية .

أما أنا فكان همي في التشديد ليس فقط على السيادة اللبنانية ، بل وخاصة ؛ على حقوق المجلس النيابي وصلاحياته .

رفض الفريق عامر مجاراتي في هذا الحقل . فتدخل الرئيس العراقي عارف قائلاً :

« مجلسكم النيابي هذا قد لا يكون أكثر من عذر او ذريعة ! »

أجبته :

«انك توجّه إلينا إهانة أرفضها بشدّة».

أزمة ثقة

واشتدّ الصخب وتلبّد الجو، وإبّان استراحة فاصلة بين الجلستين، تقدّم مني الرئيس جمال عبد الناصر، ثم أخذني على حدة، ونادى الرئيس العراقي. فكان تصارح سريع بيننا.

في الجلسة التالية، طلب عبد الناصر الكلام وقال :

«واضح ان بين الدول العربية نوعًا من أزمة ثقة. لِمَ النكران؟ انني أقترح ان نتبنّى موقف أخينا الرئيس اللبناني. فقبيل المعركة، سيلجأ القائد الأعلى الى نقل الجيوش من دولة الى أخرى ضمن احترام الأسس الدستورية في الدول المعنية».

وابتسم الرئيس مضيفًا :

«هذا ليس شواذًا لبنانيًا، بل هو قاعدة عامة. فلجميعنا نُظم يجب احترامها. وهذا وضعنا نحن في مصر ايضًا».

... وهكذا فقد استطعنا ان ننتصر لموقفنا. أو بالأحرى لأهم مقوّماته. وبقيت مواضيع عديدة قيد المناقشة ومنها : صلاحيات القائد الأعلى، زيادة قيمة المساهمة المالية لدى البلدان القادرة على اعتناق المصاريف العامة وتكبّدها، وكذلك مجمل التوصيات النظرية والتطبيقية الموجّهة الى الأمين العام وهي عائدة لمواضيع شتى.

بعد الجلسة فورًا، اتفقت مع الفريق عامر وطلبت منه ان يأتي الى لبنان او ان يوفد إلينا رئيس أركانه لنتفق معًا في جو من الثقة المتبادلة. وبقي علي ان أشكر الرئيس عبد الناصر لدعمه لنا الآن وفي المستقبل. فأجابني :

«أرجو ان نتلاقى قريبًا. هلا تزور القاهرة في الشهر المقبل للاشتراك في مؤتمر دول عدم الانحياز؟»

فأجبته :

«لم يتعوّد لبنان ان يرى رئيسه يغادره مرتين في وقتٍ قصير. انا ما زلت في بدء ولايتي وعلى كل سأجد وسيلة أعبر فيها عن تضامن لبنان مع دول العالم الثالث وعن شعوري بالنسبة الى شخصك الكريم. لعلني آتي الى جلسة افتتاح المؤتمر ثم أترك الوفد اللبناني يساهم في المناقشات والمقرّرات».

الفصل الثالث

رئاسة الجمهورية في نهاية عام ١٩٦٤

سياسة خارجية ، سياسة داخلية

الأكثرية النيابية والجيش

ترؤسي مجلس الوزراء الذي أنا جُزءٌ منه

ليلة فرح وهواجس

في هذا المساء الثالث والعشرين من أيلول ، بعد ساعات من تسلّمي مهامي الدستورية ، رحتُ أفكّر في الصعوبات المتراكمة على كاهلي منذ بدء ولايتي وأستعيد أهمها وهي ذات طابع خارجي .

يبدو انه لا مناص من المباشرة في أعمال تحويل روافد الأردن . ولكن التأخير الى متى ؟ كما يبدو ان لا شيء جذريًا قد تقرّر من أجل حماية هذه الأشغال أو من أجل أمن العاملين والجنود الموكلين بحمايتها ، على مسافة كيلومترات من الحدود .

لم يقلع القائد الأعلى « رسميًا » عن فكرة تمركز قوات سورية وعربية اخرى في لبنان قبل المواجهة . وحتى في الحالات التي تضطرنا الى قبول قوات عربية على أرضنا ضمن تحفّظاتنا الدستورية فقد اتضح لي ان ليس من نظام قانوني قد اتُّخِذَ أو أُحضر من أجل تمركز هذه القوات او نقلها او سحبها . فلأي قيادة ستخضع اثناء وجودها في أرضنا ؟ اية قوانين ستكون نافذة للبتّ في المعضلات ذات الطابع المدني او الجزائي التي قد تحصل ؟

لدى عودتي من الاسكندرية ، استعرضت القوانين التي وضعتها منظمة الحلف الأطلسي (ناتو) في هذا الحقل . صحيح ان الدول العربية لم تكن تدور في الأجواء التي تحيط ببلدان منظمة الناتو ، غير ان الأخوّة العربية ما كانت لتمنعنا من وضع

أسس ثابتة وصريحة ومكتوبة . فهل يتّسع الوقت لأجعل من هذه النصوص مادّة مقبولة ونافذة؟

كان دأب مجلس الدفاع العربي المشترك ان يتصرّف كأنه مؤسسة استعراضية . فكيف التغلّب على هذا الضعف ان لم يكن في سهر دائب من قبلنا جميعًا ، ولا سيّما من قبلي انا ومن قبل رئيس أركان جيشنا؟ وبعد ، فان القرار المتعلّق باحترام النظم الدستورية لكل دولة في حال تحرّك الجيوش ، بدا لنا مبهمًا ، إذ يمكن فهمه على غير مرماه واعطاؤه تفسيرًا خاطئًا وربما أرعن لم يعطه إياه واضعوه حتمًا : ذلك ان دستور كل دولة سيكون موضع احترام في فترة ما قبل المواجهة وانه بعد بدء الأعمال الحربية ، فلن يكون مجال أمام القيادة العليا إلاّ في الاهتمام بوسائل النصر ، وعدم الاكتراث «لشكليات قانونية» خاصة بالبلدان المعنية .

وجب اذًا سدّ كل هذه الفجوات : فجوات النصوص ، والاستعدادات العسكرية ، والإعلام في الداخل والخارج .

بينما كانت الشخصيات «العليمة» تنبئ منذ مطلع ولايتي بتدابير سياسية وادارية «فذّة» ، كنت أنا ، العائد من الاسكندرية ، أدرس مع العسكريين – اي بصورة مباشرة او غير مباشرة مع الرئيس فؤاد شهاب – الخرائط العسكرية والتدابير المعقول اتخاذها . كما كنت أدرس مع رجال القانون مشاريع المقررات المفروض عرضها على المؤتمرين في اللقاءات العربية المقبلة . وذلك على كل الأصعدة . وفي كل هذه الحقول ، كان علي ان أؤمن المساعدة الأكثر فعالية ، اي : المساعدة المصرية .

كنت الى جانب ذلك مهتمًا بالشروح التي تُعطى إليّ في وضع الخزينة المتدهور . وقد ستر هذا التدهور حتى اليوم بفعل الفوضى وربما الخلط ، اذ كان هناك من يمزج بين أموال الدولة ، وأموال البلديات ، وأموال المؤسسات المستقلة ، وأيضًا بين الأموال التي هي ودائع الشركات والأشخاص . ولا سيّما انه على الصعيد الداخلي ، لم يكن الإجماع السياسي الذي تحقّق حول شخصي ليستر الخصومات الشديدة والعميقة .

وكان أحد رؤساء الوزارة السابقين ، العليم بقسط كبير من مشاكل الحكم ومشاغلي يقول عني : «لنعتصم بحبل الحذر والتكتم . ولنرَ هل في إمكانه أن يحكم؟» .

في الوقت عينه ، جاءوني بما قاله عني «عليم» آخر بسياستنا وهو سفير الولايات المتحدة ، قال :

«ان استطاع الصمود ستة أشهر ، يستطيع متابعة المسيرة الى النهاية» .

كانت كل المسائل المتعلّقة بي ، او المعروضة عليّ تسبح في أجواء عكرة .

الحاجة الى التغيير أصبحت ماسّة

كان سلفي ، وهو رجل عسكري ، قد انتُخب رئيسًا للجمهورية بعد أحداث خطيرة عصفت بالبلاد طوال ستة أشهر . وقد احترم بقدر المستطاع أسس نظامنا الديمقراطي البرلماني ولكنه كان قد أرسى حكمه ، بنوع خاص ، على الجيش الذي كان قائدًا له منذ ان أصبحت فرقه الأولى لبنانية بعد سنة ١٩٤٣ وقد كانت تلك الفرق قبل ذلك التاريخ تحت أمرة قيادة فرنسية . وأشرف طيلة ربع قرن ، على اختيار الجنود وترقية وتبديل الضباط ، ساهرًا على نمو المؤسسة كلها ، فأصبحت قيادة الجيش سلطة إضافية في الدولة .

ومن البديهي أن أتناول ، بموضوعية وانصاف علاقاتي مع الرئيس فؤاد شهاب . (ومع الشخصيات التي لعبت دورًا هامًا طوال فترة ولايتي) . ويبدو لي أكثر وضوحًا أن أسلّط الأضواء على هذه العلاقات رويدًا رويدًا ، وحسب الأحداث على مدى الفصول اللاحقة .

ولكن لا بدّ من التذكير ، في عرضنا الوجيز للوضع الداخلي في نهاية عام ١٩٦٤ ، ان الجنرال شهاب كان ، حتى قبل توليه رئاسة الجمهورية ، يتمتّع بسلطة وهيبة أتاحتا له ان يلعب دور الحكم في الأيام الأخيرة من ولاية الرئيس بشاره

الخوري وكذلك في الشهور الأخيرة من ولاية الرئيس شمعون. ولما انتُخب الجنرال شهاب رئيسًا للجمهورية، بدا للجميع – شاه ام أبى – شبه حاكم مدني وعسكري للبنان.

وهذه الصفة المزدوجة للرئيس شهاب وجدت ايضًا دعمًا جديدًا لها اثر محاولة انقلاب ضدّ حكمه وضدّه شخصيًا، قام بها مدنيون وعسكريون في ٣١ كانون الأول ١٩٦١ اي أكثر من عامين على انتخابه رئيسًا للبلاد. ونجح في التغلّب على تلك المحاولة بمؤازرة الجيش وأجهزة مخابراته.

فأدى ذلك الى ازدياد الربط أكثر فأكثر بين الجانب السياسي والجانب العسكري من الحكم. وبفضل تفاعلات متسلسلة، أصبحت الأكثرية المتراصة، في المجلس، والمؤيّدة لرئيس الجمهورية، تبدو شبه خط الدفاع الأول، ليس فقط لسياسة الرئيس والحكومة، بل لاستتباب الأوضاع جميعها في البلاد.

وكنت وزيرًا في حكومتين تألفتا في عهد الرئيس شهاب. وقدّرت مزاياه الأخلاقية والعملية. ومن البديهي القول، انه كان يبدي الانطباع الحسن نحوي ويرتاح لمؤازرتي له، مما جعله يأخذ هو المبادرة الى ترشيحي لتولي رئاسة الجمهورية بإعلانه ذلك أمام رئيس الحكومة الحاج حسين عويني وامام اثنين من الوزراء قبل ان يطلعني انا شخصيًا على مراده.

وبعد تأييد كل الفرقاء، انتخبني مجلس النواب رئيسًا للجمهورية بشبه إجماع. وهذا المجلس نفسه كان صوّت مرتين بأكثرية ساحقة على تجديد ولاية الرئيس شهاب مقترحًا في سبيل ذلك تعديل الدستور اللبناني.

فعند تسلّمي الرئاسة الأولى كانت لي الأسباب كلها لكي أتعاون مع سلفي كما كان عليّ ايضًا ان أراعي تطلّعات وأماني الأكثرية وان أبقي على ما للجيش من رصيد وتقدير.

ولكني كنت اعتبر ان من أولى واجباتي، رغم كل الصعوبات، ان أمارس

كحكم عادل، مهامي السامية. فانا، طيلة حياتي السياسية، لم أكن منتميًا لحزب سياسي بالرغم من علاقاتي الشخصية وميولي. ولم أوافق مرة واحدة على منطقه للحؤول دون بلوغ أحد الناس منصبًا من المناصب لأنه لا يدين بمبادئ الحزب المسيطر.

فاذا كان للشهابية مناصرون متحمّسون فان لها أيضًا في المقابل معارضين لا يقلّون حماسًا واندفاعًا.

وكان عليّ خلال ولايتي، كما سيأتي ذكره، ان اوفّق بين الاتجاهين في تأليف حكومة اتحاد وطني. وقد حالفني الحظ في ذلك أكثر من مرة. وفي حالات اخرى لم أستطع بلوغ الهدف نظرًا لمتطلبات الأكثرية أو لرفض الأقلية وتشدّدها.

وكانت المواقف تزداد جمودًا ولا تتزحزح عن أمكنتها. أضافةً إلى ان اللعبة السياسية والبرلمانية كانت تبرز أكثر فاكثر عنصرًا واضحًا: نواب، وزراء ورجال سياسة ظهروا وكأنهم ينسجمون كليًا مع الأجهزة العسكرية والبوليسية حتى كانوا يضفون على نشاطات هذه الأجهزة، ايًا كانت هذه النشاطات، طابع الأعمال الداخلة في نطاق الشرعية الديمقراطية.

ظلّت هالة الرئيس شهاب ساطعة غير ان قسطًا وافرًا من الرأي العام بدأ يسأم سياسة مسلطة دائمًا في اتجاه واحد، ويسأم الأساليب المستخدمة في سبيل هذه السياسة.

كانت الرغبة في التغيير تزداد يومًا بعد يوم، غير انها بدت لي أقل حتمية من أسباب الأمن والاستقرار التي تحملني ليس فقط على الأخذ برأي الأكثرية النيابية – ايًا كان مشربها – وإنما في الاعتماد بنوع خاص على القيادة العسكرية اللبنانية، من أجل مجابهة القيادة العربية الموحدة، وبصورة أعمّ، من أجل الحفاظ على الصداقة اللبنانية – المصرية، في العالم العربي بما تتضمّنه من محاسن وموجبات في الداخل والخارج. وذلك من أجل مصلحة لبنان.

حتى في قدس الأقداس يبقى المرء وحيدًا

هذا هو الوضع ، بل هكذا بدا لي . كان كثيرون من مواطنيّ يرتقبون نتائج حميدة لانتخابي (منها تعيين وزراء جدد ومستشارين في الرئاسة ومعاونين أضمن ، وتغييرات في مجرى السياسة الداخلية والخارجية على حدّ سواء) . كما كان كثيرون من أصدقائي يأملون محقّين في مشاركتي وجني فوائد فوزي . ولكن كيف إشراكهم ، ولماذا ، في مشاكلي؟

بعضهم راح يحدّثني عن وحدة القائد ، وقد أحسن التعبير . فاليمين الدستورية ، والاحتفالات ، وأقواس النصر ، ما كانت جميعها لتأتي بعنصر مفيد واحد في الإجابة عن المسائل المطروحة . ورحت أقارن بين حالي وحال كبير الكهنة ، ساعة يدخل لأول مرة الى قدس الأقداس في الهيكل ظانًّا انه سيلقى فيه وجودًا سماويًا او وحيًا إلهيًا . ولعلّ الايمانَ عينه ، يكون لدى الجمهور الذي ينتظر خارج الهيكل عودة رئيس الكهنة ... ولكن حتى في قدس الأقداس ، يبقى الانسان وحيدًا موحشًا يواجه نفسه . وفي نفسه يحاول ان يكتشف الرؤية الصادقة ، والجلد ، والمثابرة الصامتة ، هذه الصفات التي هي القسط الإلهي في كل بشري .

٢٤ ايلول ١٩٦٤

عملاً بالعرف الدستوري استقالت حكومة الحاج حسين العويني التي كنت وزيرًا فيها عند انتخابي رئيسًا . وعملاً بالعرف عينه ، بدأت الاستشارات وكنت من ناحيتي قد اتخذت القرارات في القضايا الأساسية : فقد عزمت على إعطاء أولوية الاهتمام للمسائل العربية والدولية . الأخطار والمحاور التي كنت أخشاها ولا أنقطع عن التفكير بها ، وقد وقعت على نحو آخر وأدهى بعد سنوات ، ممّا يدلّ على انها لم تكن وهمية في ذلك الحين ، اذ نضفي دومًا طابع الوهم على الأحداث التي ننجو منها ولو مؤقتًا . ان

هذه الأخطار كانت حقيقية آنذاك وجدّ مخيفة . ولا بدّ من استعادة الجهود التي بذلت لمواجهتها والتي كانت عنصرًا أساسيًا لسياستنا الداخلية والخارجية .

اقتراح برلماني لبناني تتبناه مؤتمرات القمة

في غضون أربعة أشهر كنت قد وضعت نظمًا خاصة بدخول الجيوش وخروجها وتمركزها . وقد بعثت بالاقتراح ، خلال هذه الأشهر الأربعة ، الى القاهرة حيث وافقت عليه الدول العربية جمعاء . وهكذا فلم تعد مسألة نقل الجيوش من بلد الى آخر ترتدي طابع التخوّف من احتلال عشوائي وغير محدود . كما كنت قد حملت القمة العربية المصغّرة التي التأمت في الأيام الأولى من كانون الثاني ١٩٦٥ على تسجيل تأويلنا الخاص بموضوع احترام النظم الدستورية لكل بلد . وقد أعلن الوفد اللبناني يومها – وقد حظي بالموافقة العربية على هذا الموقف – ان «لبنان يصرّ على ان نحترم الشرعية الدستورية فوق أراضيه ، وذلك ، قبل أية مواجهة ، وأثناءها ، وبعد انتهاء الأعمال الحربية» .

ومن أجل إعطاء هذا الموقف كل دعم وقوة ، مع ما يتضمّنه من مطالب للحدّ من السلطات التي يطالب بها القائد الأعلى ، فقد قدّم اقتراح بهذا الصدد الى المجلس النيابي اللبناني الذي أقرّه بإجماع أعضائه . ويجيز هذا القرار لمجلس الوزراء الموافقة ، عند اللزوم ، على دخول جيوش عربية الى الأراضي اللبنانية من أجل المشاركة في حمايتها . وذلك بعد استشارة القيادة العسكرية اللبنانية . مما يحول دون تنفيذ اي قرار تتخذه القيادة الموحّدة ما لم توافق عليه السلطة اللبنانية .

وهكذا فان روح القرار ونصه ، المرتكزين على حالة الضرورة وعلى وجوب حماية الأراضي اللبنانية ، أبعدا فكرة أي وجود لقوات عربية فوق الأراضي اللبنانية قبل بدء المواجهة ، بل قبل الشعور بأي خطر مداهم تقدّر جدّيته الحكومة اللبنانية نفسها .

أخيرًا ، أوكلت الى القيادة العسكرية اللبنانية أمر تنفيذ برنامج التسلّح الذي وضعته القيادة الموحّدة وطلبت في آن معًا الى رئيس الأركان اللبناني ان يسعى الى نيل تأجيلات جديدة لموعد البدء بأعمال تحويل الروافد . وكانت سورية قد تكبّدت في تشرين الثاني عدوانًا اسرائيليًا كبيرًا . كما ان الطيران الحربي الاسرائيلي قد شرع يقوم بجولات استكشافية فوق أراضينا مع اننا لم نكن قد قمنا بأي عمل هام وفعّال باستثناء إخلاء قطعة أرض غير قريبة من الحدود .

تدابير احترازية

بالإضافة الى قضية افتقارنا الى دعم عسكري ، فقد كنت متكلاً على أسباب عدّة من أجل تأجيل بدء الأعمال . ومنها ، انه ليس من داع للبدء بالأعمال في المنطقة اللبنانية ، وهي الأقرب من الحدود والأخطر ، طالما تظل عملية الالتحام بالقسم السوري عرضةً للتأخير بسبب الإرجاءات السورية .

وهناك سبب آخر كان يتبادر الى ذهني بكل وضوح ، وهو : ان المجلس العربي المولّج باستثمار مياه الاردن كان قد قرّر في مرحلة اولى ان يتمّ الأعمال الرامية الى تحويل المياه نحو البحر . أما المرحلة الأخرى ، المفترض ان تبدأ اثناءها بالاستفادة من المياه ، فلم تكن بعد قد موّلت . اذًا ، وبالرغم من حقنا المقدّس على ينابيعنا وعيون مياهنا وسواقينا ، فسينظر العالم بأسره إلينا نظرة اشمئزاز إن تبيّن له اننا ننفق الملايين من أجل هدر الماء ورميه في البحر ، بل انه سينظر إلينا كمتعنّتين ظالمين ، ومتخلّفين ! والصورة التي سنعطيها عندئذٍ عن أنفسنا ستتيح لاسرائيل ان تكسب عطفًا عالميًا جديدًا ، وذلك ليس فقط بالنسبة الى موضوع مياه الأردن ، انما في مجمل حقول الصراع العربي — الاسرائيلي .

كان علينا اذًا ، نحن اللبنانيين ، ان نضمن مشروعًا لريّ أراضينا وذلك على نفقة القيادة العربية الموحّدة ، او على نفقتنا الخاصة . من أجل ذلك ، كان علينا ان نقوم

بادئ ذي بدء بإنشاء سدّ في منطقة النبطية . وذلك قبل القيام بأي عمل آخر . هذه الطريقة في العمل هي في الوقت عينه وسيلة دفاعية ، ولا سيّما انها قد تجلب لنا رضى الرأي العام اللبناني وكذلك العربي والدولي ، بل انها تتيح لنا ان نحدّ من المجازفة وان نجابه المخاطر بعد زمن طويل وبشيء من راحة الضمير .

غير انه ينبغي من أجل نصرة هذه الاستراتيجية اللبنانية ان نحقّق تفهّم الأوساط العربية ، وفي مقدّمتها الموظفون المصريون ، المدنيون والعسكريون ، اي الفريق علي عامر ، ورئيس أركانه عبد المنعم رياض ، والأمين العام لجامعة الدول العربية حسونة باشا ، اي باختصار : جمال عبد الناصر ، وهكذا ، فقد توصّلنا في غضون ثمانية أشهر الى تحقيق القسط الأوفر من هذه الأمور جميعًا التي كانت أماني الخاصة في ٢٣ ايلول ١٩٦٤ وذلك وسط أخطار كانت تذكّرني بذاك المرشد في الجيش البريطاني اثناء الحرب العالمية الأخيرة الذي كتب رسالة الى جريدة «تايمس» يقول فيها بشيء من بساطة تحاكي الظرف :

«ان حياة الجندي حياة قاسية معرّضة احيانًا لأخطار حقيقية» .

ولكم راق لي هذا البوح .

وانا ، المحسود على مركزي وعلى امتيازاتي كان عليّ ، ان أجابه مشاكل ومصاعب اين منها هذه الخطورة التي يتعرّض لها الجندي المجهول !

الارث الثمين

٢٥ أيلول ١٩٦٤

الأكثرية النيابية موافقة معي على إبقاء حكومة الحاج حسين العويني . وقد تلاقت حساباتنا — المتباينة أساسًا — في الحاجة الى الحفاظ على الحكومة عينها ، فبذلك يستطيع قادة الأكثرية تأمين انتخاب صبري حماده ، أحد حلفائهم ، رئيسًا للمجلس

النيابي فلن يخشوا اثناء هذه الانتخابات التي ستجرى بعد ثلاثة أسابيع ، من خيبة بعض مؤيّديهم وتخاذلهم ، بسبب عدم إشراكهم في حكومة جديدة ، فينضمون عندئذٍ الى صف المعارضين ويقترعون الى جانب كامل الأسعد .

هذه الاستراتيجية كنت أقدّر مراميها منذ الوهلة الأولى ، كما كنت أرى انه ليس من سبب لدي لأعمد – إن على الصعيد الداخلي او الخارجي – إلى معاكسة أماني الأكثرية وتطلّعاتها ، غير انني شخصيًا كان لي اعتبارات اخرى . فتشبّهت بقائد فريق رياضي ، لا يبدّل أعضاء فريقه بين مباراة ناجحة ومباراة لاحقة . وعزمت أن لا أبدّل الوزراء والموظفين الإداريين . وان أتوجّه الى مؤتمر عدم الانحياز في القاهرة في تشرين الأول المقبل بالوفد عينه الذي رافقني الى الاسكندرية في شهر أيلول . لأنني قرّرت الاشتراك في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر ، وأن أطيل إقامتي يومًا إضافيًا في القاهرة ، لألتقي جمال عبد الناصر وأعرض عليه مشاغلي .

ها انني اذًا طيلة أسابيع ، أترأس جلسات مجلس الوزراء . هذا المجلس الذي كنت عضوًا فيه فترة الانتخابات الرئاسية ، وقد بقيت علاقتي بزملائي السابقين ودية . الحق يُقال ان شيئًا لم يتغيّر فيّ أبدًا . بل ربما كل شيء متبدّل . وليس المظهر الخارجي الذي لاقى التبدّل الملحوظ . فإني ما أزال أكنّ الى جميع مواطني ، المقيمين والمغتربين ، نوعًا من عناية أبوية وحنو أبوي نحو الأسرة الكبرى الموكولة إلي . وأكثر من ذلك ، فانني في حديقة الدارة الصغيرة التي جعلت منها مسكني ، في ضاحية بيروت ، أجدني أمشي وأفكر في الارث الجبّار الفذّ الذي وُضع بين يدي القصيرتين . هذا الوطن الذي غنيته عشرات السنوات في الصحف اللبنانية والأجنبية – وهي طريقي في خدمته والدفاع عنه – ها انه الآن قد أوكل إليّ أمرُ الحفاظ عليه ورعايته وحمايته وجعله أكثر جمالاً . وأسعى الى تقويم تصرفاتي فأتساءل :

تُرى ، ما كان حكم أساتذتي ومعلميّ (أمثال بشاره الخوري وميشال شيحا) عليّ الآن ، وهم في الجهة الأخرى من الحياة؟ وما حكم أو رأي رفقائي الكبار الذين

سبقوني ؟ وأراني مثقلاً ايضًا بالمسؤولية تجاه مواطنيّ المغتربين – ولا سيّما أولئك الذين يتمتّعون بمكانة فريدة على الصعيد العلمي او الأدبي او السياسي . وبينهم أفذاذ (كنائب رئيس جمهورية الأوروغواي ، ورئيس المجلس النيابي في فنزويلا ، ووزير العدل البرازيلي ، والمرشّح لرئاسة الجمهورية في كولومبيا ...) . هؤلاء اللبنانيو الأصل يبسطون نفوذهم في بلدان أكبر من لبنان . فعلي اذًا ، كرئيس لوطنهم الأم ان أعضد هذا البلد وأن أرفعه الى أعلى درجات أمانيهم ، بل أن أكون انا في مستوى عزّتهم . ان نصف اللبنانيين يعيشون في الخارج . وحوالى الثلاثة ملايين من أبنائه منثورون في القارات الخمس ينشرون صفاته الإنسانية وتقاليده الخيّرة . وقد فهم مغتربونا قبل غيرهم ان التجارة ليست تبادل سلع وخدمات وحسب ، انما هي تلاقٍ للأفكار والحضارات والمعتقدات . فهذه الجمهورية الصغيرة التي كُتب لي ان أرعى مقدّراتها لهي في الواقع امبراطورية الروح ، الوسيعة الأرجاء . وهنا ، تكمن غاية بقاء لبنان وديمومته . وهذا بالنسبة إليّ بمثابة فعل ايمان لم أتوقّف يومًا عن إعلانه والتمثّل به ، او قل عن السعي الى الامتثال به ، وسلوكه .

في مؤتمر عدم الانحياز

ها أنا في القاهرة للاشتراك في مؤتمر دول عدم الانحياز ، وقد اصطحبت الوفد الذي رافقني الى قمة الاسكندرية . كنت قد اتصلت بالرئيس عبد الناصر بواسطة سفارتنا وأعلمته انني سأمكث في القاهرة وقتًا قصيرًا من أجل تسجيل حضوري المؤتمر ومشاركتي في أعماله . وقد وافق عبد الناصر على هذه الفكرة ، وأعلن عن رغبته بزيارتي وتناول الغداء معي في سفارتنا . كانت مبادرة لطيفة وقد تعرّض صاحبها الى بعض الصعوبات إذ ليس بإمكانه ان يبادر الى الترحيب نفسه بسائر رؤساء الوفود لا سيّما الكبار منهم .

كنتُ في القصر الذي أنزلنا به أراني محاطًا بكبار زعماء العالم الثالث وشخصياته : الماريشال تيتو ، الرئيس الأندونيسي سوكارنو . غير انني كنتُ أتهافت لمصافحة رجل قصير القامة يرتدي اللباس الرسمي الهندي : انه السيد شاستري رئيس وزراء الهند . والهند هي احدى الدول الثلاث (مع مصر ويوغسلافيا) التي أسّست حركة عدم الانحياز . ولكني لم أُسرع نحو شاستري بسبب ذلك . فأنا أعرف هذا الرجل حق المعرفة إذ قد قرأت عنه الكثير . وقد راعني ما عرفته عن جلسة تسلّمه مهامه الدستورية يوم ألقى خطابًا في المجلس النيابي راح يتحدّث فيه عن صفات سلفه ومعلمه نهرو ، وقد اختنقت الكلمات في فمه وامتزجت بالزفرات فراح يبكي كالطفل ويبكي معه المجلس بأسره . لكني لم أستطع ان أعبّر تمامًا للرئيس الهندي عن مشاعري إذ كان يلزمنا ترجمان والكلمات المترجمة تفقد الكثير من حرارتها .

افتتح المؤتمر وكان رئيس الجلسة الأولى جمال عبد الناصر . وبعد ان رحَّب بالمؤتمرين شرع يتحدّث عن الهوة التي تزداد عمقًا بين الدول الثرية – والتي يتزايد ثراؤها يومًا بعد يوم – والدول الفقيرة – والتي يتضاعف بؤسها يومًا بعد يوم . ثم ذكر المشاكل التي تشغل العالم وشدّد ، على المشكلة العربية – الاسرائيلية . وكل ما قاله طبيعي ومنتظر . ثم تلاه على المنصة سوكارنو وقد تُرجم خطابه الى العربية ببلاغة ومتانة ربما لم تكونا واردتين في النص الأساسي ... واختُتمت الجلسة على أن تُستأنَف بعد الظهر .

كنا ننتظر عبد الناصر للغداء في سفارة لبنان . فأعلمنا بأنه قد يتأخّر بعض الشيء . ذلك انه قد تعرّض لشيء من مناقشة مع بعض المؤتمرين بسبب وصول تشومبي المفاجئ الى مطار القاهرة . فهل يمكن استقبال تشومبي بين الزعماء « غير المنحازين » ؟ هل يجوز الاعتراف به كرئيس دولة ؟ سؤالان صعبان ولا شك . في النهاية ، استطاع عبد الناصر التخلّص من تشومبي ومن مشاكله جميعًا ، وها هو الآن يقص علينا كل ذلك مبتسمًا . ورحنا نتبادل أطراف الحديث ، منه ما هو رصين

هام ومنه ما هو عادي . وعندي بشكل عام ، ان ردًّا يثير الابتسامة او الضحك لأبلغ وأجدى من معظم الخطب والمحاضرات . الانسان الذي يضحك هو نصف مقتنع على أقلّ تعديل . وأكثر من ذلك ، انه رجل جُرّد من سلاحه فاستسلم . اني لا أسعى هنا الى تكميل نظرية برغسون في الضحك ، او نقضها . ولكنني أسجّل ان الانسان المكروه او المحتقَر او المخيف لا يثير منك الابتسامة او الضحك . لا في أقواله ولا في أعماله . أما اذا أضحكك فهو لا شك محبّب إليك .

الاختيار المفاجئ

بعد الغداء كان لي خلوة مع عبد الناصر ، فقال لي :

«إننا نقدّر لكم اشتراككم في قمة الاسكندرية بالأمس ، واليوم في مؤتمر عدم الانحياز بالقاهرة . ولكننا كمصريين لا نرى ان إقامتكم بيننا زيارة لنا . لذا ، فاننا ننتظركم في زيارة لنا خاصة» .

اغتنمت الفرصة لأقول له :

«انا ايضًا أودّ القيام بزيارة لكم في المعنى الصحيح . وستكون ولا شك مناسبة لتوطيد علاقة الأخوّة والصداقة بين لبنان ومصر . ولا سيّما انني مدعو الى زيارة فرنسا من قِبَل الرئيس ديغول» .

قال عبد الناصر : «آمل ان تبدأ بالقاهرة» . أجبته : «هذه رغبتي ...» .

واتفقنا على أن نهتم بالتفاصيل في ما بعد .

ثم طلبت الى عبد الناصر ان يدعم المبادرات التي سنقوم بها في اللقاءات العربية التي ستجرى في كانون الثاني التالي على صعيد رؤساء الحكومات . كما طلبت ان يؤيّدنا مندوبو مصر وان يوافقوا على نصوصنا في تفسير مقرّرات الاسكندرية وتنفيذها . وعدني عبد الناصر بتأييدنا على جميع الأصعدة بقدر المستطاع .

ترك لقاؤنا في نفسي انطباعًا بأنني وجدت المُحاور الذي ينفّذ كل تعهّداته ويحترمها ما دمنا نحن من ذوي النيات الحسنة. وكنت مزمعًا على ترك مصر في اليوم التالي فتمنى لي عبد الناصر كل توفيق. ثم اننا غادرنا السفارة معًا نحو مقر المؤتمر حيث كنت مسجّلاً للكلام. في صبيحة اليوم التالي كان علي أن أشترك في الجلسة الأولى ثم أتوجّه الى المطار للعودة.

كان رؤساء الوفود يرئسون الجلسات، دوريًا، وبموجب قرعة. ذلك ان أسماءهم كانت مكتوبة على أوراق دُسَّت في كيس كبير، كما في اليانصيب. كنت أنظر الى هذه العملية من مقعدي، وكم دُهشت عندما رأيت عبد الناصر يُدخل يده الى الكيس ويُخرجها منه وفيها ورقة، ثم يعلن بصوت المغتبط وشبه المنتصر: «الرئيس شارل حلو رئيس الجمهورية اللبنانية».

ومدّ يده نحو المقعد الرئاسي ودعاني الى الجلوس فيه.

كان الجميع يعلمون أنّني سأغادر القاهرة بعد ساعات، فتعالى الهتاف إذ رأوا في هذه القرعة نوعًا من جواب يوجّهه القدر الى مساهمتي في أعمال المؤتمر، وفي حرصي على حضور جزء منه.

صعدت الى المنصة وفي نفسي يقين بأن القدر الذي اختارني يحمل اسمًا آخر هو جمال عبد الناصر. وبينما كنت أدير الجلسة كنت أدرك تمام الادراك ان الرئيس المصري كان يسعى الى إفهامي بأنه لم ينسَ ما وعد به من موقف وفده في المؤتمرات المقبلة لرؤساء الحكومة.

العمل أولى من التفسير

٧ تشرين الأول

العودة الى بيروت.

وعودة الى الأعمال الروتينية.

انني أستعيد اليوم في صفحات مفكرتي أسماء الشخصيات اللبنانية والأجنبية التي قابلتها. اذا كان للدول – كبيرة او صغيرة – الحاجات الأساسية ذاتها، فان رئيس دولة صغيرة مرغم أيضًا على أشياء كثيرة منها استقبال العديد من الزوار. فكل مواطن أيًا كان يستطيع الوصول إليه يومًا ومقابلته. ذلك انه في وطن ضيق، حيث جميع الناس يعرف بعضهم بعضًا، ليس من مسافات جغرافية او اجتماعية او سياسية تفصلهم.

بصورة عامة، ان رئيس دولة صغيرة لا يستطيع التوكل على عدد كبير من المستشارين والتقنيين الذين يساهمون في تحضير المقرّرات ودراستها.

رئيس لبنان، هو، مرغم على استقبال عدد من الزوار ومراجعة عدد من الملفات وكلها يطلب عناء يفوق الجهود التي يقوم بها عادة رؤساء الدول. فكم من مرة اثناء انشغاله بمشاكل خطيرة، يضطر للاستماع الى مواضيع أقل أهمية، والتفرّغ لها، نظرًا لكونها في أكثر الأحيان مواضيع تتعلّق بشؤون رجل أو شخصية مدنية أو دينية هامة.

٩ تشرين الأول

منذ عودتي من مصر وكل مساء أتلقّى مخابرة هاتفية من رئيس الحكومة الحاج حسين العويني الذي بقي في القاهرة لمتابعة أعمال المؤتمر.

يحرص الحاج حسين على إعلامي بكل التفاصيل مع اننا قد اتفقنا مسبقًا على النهج الذي سيتبعه الوفد اللبناني بالنسبة الى مختلف المواضيع المُدرجة على جدول الاعمال. وبدا أنّ هناك قضية طارئة تزعج الحاج: الكثير من زعماء الوفود الافريقية يطلبون اليه بإلحاح مساندتهم في مسألة مقاطعة البورتغال بسبب سياستها في افريقيا.

لا شك اننا نحن اللبنانيين لا نستطيع ان نرضى عن أي تصرف، انّى وقع، قد يسيء الى كرامة الانسان او الى حقوقه الأساسية. ولكن يبدو لي مزعجًا أن نُجرّ، بعد أقل من اسبوعين من تسلّمي مهامي الدستورية، الى مثل هذا الموقف. فسألته هل

انّ الافريقيين مستعدون بالمقابل لقطع علاقاتهم الدبلوماسية مع اسرائيل؟ فتبنّى الحاج هذا الرأي. وعلمت انه في اليوم التالي أمضى ساعات متنقّلاً من وفد افريقي الى وفد آخر سائلاً عن موقفهم من مقاطعة اسرائيل.

فوضعت أسئلتنا ممثلي الجامعة العربية أنفسهم في حيرة. فأسفر ذلك عن قرار من المؤتمر يتسامح مع الجميع فلا يلزم كل الدول بمقاطعة البورتغال؛ كما لا يلزم الكل بمقاطعة اسرائيل.

٢٠ تشرين الاول

انتخب المجلس النيابي رئيسه الجديد، وفاز السيد صبري حماده. فراح الرئيس السابق كامل الأسعد يتساءل مع حلفائه ما اذا كان فشله نتيجة مباشرة او غير مباشرة لإبقاء حكومة الحاج حسين العويني. ولقيت صعوبة كبيرة في الشرح للأسعد ان انتخاب صبري حماده كان نتيجة تلاقي نوعين من الاعتبارات، فالأسباب التي حدتني على ابقاء الحكومة كانت مختلفة تمامًا عن الأسباب التي حرّكت الأكثرية النيابية.

حيفًا علي ان كنت أجد صعوبة في التوفيق بين المصالح المشروعة جميعًا، وحيفًا ايضًا اذا تعذّر علي ان أشرح مسببات مواقفي وأعمالي.

١٤ تشرين الثاني

وزارة الحاج حسين العويني قد أدّت خدمتها، كما يقولون. لقد شُكّلت في شباط من ١٩٦٤ للإشراف على الانتخابات ثم انها لقيت التجديد تلو التجديد. ولكني لا أرى مبرّرًا لابقائها الآن ولا سيّما ان النواب بدأوا يتململون.

استطعت بعد جهدٍ جهيد ان اقنع نواب الأكثرية والمعارضة جميعًا بالاتفاق حول شخص الرئيس الذي سيخلف العويني في السراي. انه الحاج حسين عينه! فهو رجل

حكيم ووديع ولا أعداء له انما له بعض أخصام وحسب. نظافة كفه وابتسامته يرتاح إليها المواطن. وهو الى ذلك معروف في حرصه على تفادي الصدامات، وفنه في تجنّب المواقف الجذرية. انه اذًا الرجل الذي يلزمنا في هذه المرحلة من تاريخنا.

شكّل الرئيس العويني حكومته بسرعة، وساعدته انا في التغلّب على بعض الحواجز فأتت تمثّل جميع التيارات النيابية فكان من السهل عليها ان تنال الثقة في شبه إجماع.

انطلقت الصحافة العربية ذات الطابع «الاشتراكي» تحصي أعضاء الحكومة الجديدة وتغربلهم فوجدت بينهم خمسة أثرياء من أصحاب الملايين. مع ان معظم هؤلاء قد انتُخب نائبًا بدعم من الأحزاب اليسارية. انه وجه آخر من وجوه التناقض في لبنان. ولكن، مهما يكن، ان للحكومة صداقات وتحالفات في جميع الجهات وهي تستطيع اذًا المباشرة في الإصلاح الاجتماعي دونما تأخير التوظيفات المالية. البورصة، وحركة الأعمال، وتطوّر الإعمار، والمداخيل الرسمية والجمركية لم تلبث ان وصلت بسرعة الى قمتها القصوى.

التخطيط هو مجموعة خيارات

واني في الوقت عينه كنت أنظر الى الدراسات العلمية التي كرستها بعثة الأب لوبره والتي يفترض فيها ان تكون نقطة الانطلاق لمشروع ازدهار وانعاش جديد. وكنت حيال هذه الأبحاث المطوّلة الشبيهة بدائرة معارف أحاول ان استخلص خلاصة جديرة بأن توضع موضع التطبيق. وقد تكاثرت جلسات العمل في القصر الجمهوري من أجل ذلك. ومع الأسف تبيّن لنا اننا بحاجة الى فريق عمل يضع في مقترحات مبسطة المشاريع التي تسلّمناها بشكل دراسة عامة. والى هذه الصعوبة تُضاف صعوبة اخرى...

التخطيط يستوجب الاختيار. ولكن هناك طوائف، ومناطق، وأحزابًا ونوابًا قد نالوا وعودًا هي بعض أمل في تحقيق مشاريع لصالحهم (مدرسة مهنية، مستشفى، مشروع ري...) وانهم لا يقبلون بالتخلي عن هذه «الحقوق المكتسبة». هناك وزراء لا تطول إقامتهم في الحكم ليتسنّى لهم ان يحضروا التنفيذ الأكمل لمشاريع عامة، فيخشون إغاظة ناخبيهم بحرمانهم من مشاريع محلية لذا فانهم يتخلّون عن التخطيط والتصميم. وهذه التجربة نجدها في جميع أصعدة الدولة، والدولة قد تعوّدت من زمان بعيد الاتكال على القطاع الخاص من أجل الانعاش والنمو: نمو فوضوي، نمو ظالم، نمو عطب، ولكنه نمو يعبّر عنه ازدهار أكيد.

وهناك صعوبة أخيرة: البلاد مزدهرة اما الدولة فلا. العجز في الموازنة كبير وان ظلّ مستورًا حتى وصولي الى الرئاسة ببعض المداخيل. اذا قبلنا بالتخطيط، وجب علينا اذًا تمويله بصورة سليمة.

اني غير يائس من حسن توجيه خيرات هذا الازدهار، ومن تأمين تقدّم اقتصادي يحاكي في الوقت ذاته مزيدًا من عدالة اجتماعية. من أجل ذلك تكاثرت الاجتماعات مع الوزراء المعنيين ومعاونيهم المباشرين. واننا نرسم مخطّطًا سيتبناه مجلس الوزراء ثم يُحال على المجلس النيابي في مطلع العام ١٩٦٥.

غير ان همي الأول بقي محصورًا في شؤون السياسة الخارجية، العربية منها خاصة، وفي قضية أمن الأراضي اللبنانية وسلامتها.

الفصل الرابع

من سن الفيل إلى القاهرة

زيارة الرئيس بورقيبة للبنان
اول ايار في القاهرة
الجامعة العربية والقيادة الموحّدة

العويني ، تقلا وشميط محاوريّ يوميًا

تشرين الثاني – كانون الأول ١٩٦٤

اخترت إقامتي في سن الفيل ، بضاحية بيروت ، لأكون على مقربة من مكاتب الرئاسة الموجودة على بُعد خمسة عشر كيلومترًا ، بالقرب من جونيه . انني أتوجّه مرة او مرتين كل يوم الى هذه المكاتب . وسأبقى على هذا المنوال حتى سنة ١٩٦٦ حيث سأجمع المكاتب كلّها في سن الفيل . غير ان رئاسة الجمهورية لن تستقر نهائيًا إلاّ سنة ١٩٦٩ ، اذ ستنتقل الى قصر بعبدا ، وبعبدا عاصمة جبل لبنان القديمة ، وهي على بعد دقائق من عاصمتنا الحالية بيروت التي تجمع أكثر من ربع سكان لبنان .

مفكراتي ودفاتري آنذاك تدل على الطابع الروتيني لأعمال المكتب في الصباح كما تدل على أهمية المقابلات التي كانت تجري في المساء في سن الفيل ، حيث كنت استقبل بصورة خاصة رئيس الأركان الزعيم شميط (صار عميدًا اليوم) ووزير الخارجية فيليب تقلا .

على الصعيد العسكري ، بدا لي الزعيم شميط كخير محاور . من حيث وظيفته انه ممثلنا في مجلس الدفاع العربي المشترك . أما من حيث ذكاؤه وفطنته فانه قادر على اختيار الآراء الأكثر صوابًا وحكمة وتذكيتها . وانه الى هذه جميعًا المستشار العسكري

الأمثل لأننا غالبًا ما ننطلق من معطيات واعتبارات عسكرية من أجل تزويد مندوبينا لدى المحافل العربية بتعليمات لا ينقصها الثقل السياسي.

مثال على ذلك: لِمَ القول بتواجد عسكري عربي في الأراضي اللبنانية حيث لا يتسنّى دفاع في العمق، في حين يفترض الدفاع العربي المشترك تحريك كل الجبهات في آن معًا حول اسرائيل؟

هذا السؤال البسيط لم يلق جوابًا حتى الآن. انه جدير بأن يُطرح في وجه بعض النظريات السخيفة ان المساعدة العربية لا تستطيع ان تكون فعّالة هنا إذ ليس من فعالية ممكنة لها سوى في القطاعات العربية – الإسرائيلية الأخرى. وطالما لن تستطيع الجبهات الأخرى مواجهة اسرائيل فان تعريض الجبهة اللبنانية وحدها خطأ فادح بل انه دعوة لنا للانتحار.

أما محاوري الآخر في الجلسات الطويلة بسن الفيل فهو وزير الخارجية الأستاذ فيليب تقلا. انه الرجل الذي كسب في ربع قرن خبرة لا تضاهى في شؤوننا الخارجية والداخلية على حد سواء.

قبل خمس وعشرين سنة، كان كلانا المساعد المقرّب من رئيس الجمهورية، اول رئيس للجمهورية اللبنانية المستقلة. وقد تعوّد الجميع ان ينظر إلينا تارة كصديقين وطورًا كخصمين.

في سنة ١٩٥١ كنا وزيرين معًا انا في الخارجية وهو في وزارة المال. واليوم، في أواخر ١٩٦٤، ها انه اول وزير للخارجية في عهدي. وقد توطّدت أواصر الالفة بيننا فانكببنا جميعًا على حلّ المشاكل ومواجهة الصعاب بتعاون وثيق.

كان فيليب تقلا قد عُيِّن حاكمًا للمصرف المركزي بموجب قانون لا يجيز له القيام بأية وظيفة اخرى أثناء وجوده على رأس المصرف. ولكني وجدت مع معاوني مخرجًا لهذه العقدة. لا أظن اليوم ان الفتوى التي وجدناها هي الفضلى ولا تشكو من نقص او انها بمأمن من انتقاد. غير ان الموقف المناقض لم يكن ايضًا أكثر صوابًا. وانني أرى

وجود تقلا في حكومة العويني أجدى وأنفع من كل ما يُقال ضدنا.

وكان تقلا كثير التأثّر من جراء الانتقادات الموجّهة إليه بسبب جمعه الوظيفتين ولا سيّما في أوبقات كان الحكم مثقلاً بمتاعب وتضحيات. اني لا أنسى تلك الأمسية من ليالي الشتاء حيث جلسنا نقرأ البرقيات الآتية من العواصم العربية، وكلها غير مطمئن. وقد بدا تقلا مفعمًا قلقًا ازاء خطورة الموقف ومستاء من الانتقادات الموجّهة إليه في الداخل إلى جانب المصاعب الخارجية فقال بشيء من السأم:

«كيف نستطيع الذود عن لبنان ازاء عداء خصومه وعدم تفهّم بعض أبنائه؟ كيف ندافع عنه؟ هل أدافع بأظافري؟».

لم أكن متكلاً على يدي وزير خارجيتنا النحيلتين للذود عن لبنان انما اتكلت على ذكائه وحنكته ورصيده. ولا سيّما ان مرونة الحاج حسين وفطنته تسهلان لنا الأمور.

وبين الثامن عشر من تشرين الثاني ١٩٦٤ تاريخ تشكيل الحكومة، ومطلع كانون الثاني ١٩٦٥ كان الثنائي العويني – تقلا قد استطاع بمعاونة العميد شميط، حمل القمة العربية المصغّرة في القاهرة على تبنّي النصوص اللبنانية في موضوع تحويل مياه الأردن ودخول القوات العربية.

وهذه النصوص خير كفيل لنا ازاء المزايدات والديماغوجية، بل انها بالنسبة إلينا خط الدفاع الأول ازاء العدوان الاسرائيلي.

وفي ٢٢ كانون الثاني ١٩٦٥ صوّت المجلس النيابي على مشروع قانون يكرّس هذه النصوص.

زيارة بورقيبة العاصفة للبنان

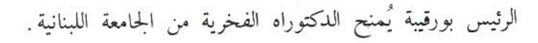
في مطلع العام ١٩٦٥ طرأ حادث ذكّرنا بمدى حاجتنا الى الحذر بل أفهمنا كم يجب علينا ان نعتصم بحبله.

زارنا في أول اسبوع من اذار الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة وعقيلته. وزيارة رئيس الجمهورية التونسية لبنان تدخل في إطار رحلة واسعة الى معظم العواصم العربية. لهذه الرحلة أكثر من داعٍ: بعضها ذو طابع سياسي عام والبعض الآخر أسبابه تونسية داخلية، لأن الرئيس بورقيبة سيجني في قلب تونس ثمار رحلته لأنّ الاستقبال الذي سيحظى به – ان بالنسبة الى مواقفه او بالنسبة الى شخصيته وحسب – سينعكس ايجابًا دونما شك على شعبيته في بلاده.

فآراء الرئيس بورقيبة في سياسة «المراحل»، ان لم تكن تُعتبر على الصعيد العربي صائبة مئة بالمئة، انما تستحق تداولاً ونقاشًا. بدأ هذا النقاش في القاهرة حيث استقبل عبد الناصر ضيفه التونسي بالترحيب. وقد ذهب الحبيب الى أكثر مما كان منتظرًا منه في صداقته لعبد الناصر إذ قرّر في اللحظة الأخيرة عدم زيارة دمشق وهي آنذاك في خصام حاد مع القاهرة. وهكذا اتخذ الرئيس التونسي موقفًا صريحًا الى جانب عبد الناصر ضد خصومه البعثيين السوريين.

استقبلناه في لبنان بالتأهيل. وتبادلنا الخطب الرسمية فألقى خطابًا لدى وصوله، في المطار، وكذلك ألقى كلمة في الجامعة اللبنانية حيث مُنح شهادة دكتوراه فخرية، ولم يأتِ في كلا الخطابين بما يسيء الى سلامة موقفه العربي او التشكيك فيه.

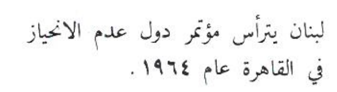
غير ان هذه الزيارة تسبّبت بنتائج مثيرة. ففي الشارع البيروتي او الشارع الطرابلسي حيث تتصادم تيارات سياسية وغرضيات متباينة (شيوعية، وبعثية، وناصرية) لم يكن لآراء بورقيبة صدى ولا وجود. وزاد في «التحفظ الناقم» ازاءه الاهتمام الكبير الذي أولاه البروتوكول اللبناني للزيارة، ذلك انه وضع برنامجًا لائقًا بنا وبزائرنا... ولا سيّما ان بورقيبة كان يتّخذ لنفسه مظهر الحكم والحكيم ويبدي تحفّظًا وابتعادًا ازاء زعماء آخرين هم أكثر شعبية منه في الشرق العربي، أخيرًا، فقد أخذ عليّ بعضهم دعوتي الى الحفلات الرسمية المقامة على شرف الحبيب، الرئيس كميل شمعون، وقد


الرئيس بورقيبة يُمنح الدكتوراه الفخرية من الجامعة اللبنانية.





أولى المحادثات
مع الرئيس جمال عبد الناصر.



لبنان يترأس مؤتمر دول عدم الانحياز
في القاهرة عام ١٩٦٤.



الوصول إلى القاهرة
في أول أيار من عام ١٩٦٥
مع الرئيس الحاج حسين العويني
والسيّدين الياس سركيس
وفؤاد عمون



١٩٦٥

الاحتفال بنيل الدكتوراه الفخرية

في جامعة القاهرة.



خصصت مكانًا لائقًا بمقامه كرئيس سابق وفقًا لأبسط المقتضيات البروتوكولية. كل هذه الظروف بالاضافة الى ردة الفعل على الأقوال المنسوبة الى بورقيبة، سبّبت لنا تظاهرات شجب وجلبت لنا العداءات، انطلاقًا من موقف بعض قادة الأكثرية النيابية الذين رفضوا الاشتراك في حفلات تضم رئيسًا سابقًا اعتبروا دعوته جرأة ولم تكن إلاّ بادرة بديهية، وانتهاءً بتظاهرات طرابلس التي قامت ضدّ الرئيس التونسي ذاته. أخيرًا وقعت سلسلة اضطرابات – محكمة التدبير – في بيروت وطرابلس (حيث انتُهكت حرمة مدرسة خاصة) وجرت تظاهرات استنكار ضدّ المساعدات التي تقدّمها المانية الغربية لاسرائيل (؟!) – لا شك ان السياسة الالمانية بالنسبة لاسرائيل تستحق الاستنكار – وقد استنكرنا نحن هذه السياسة في الجامعة العربية بالاشتراك مع الدول الشقيقة. غير ان السخط الذي سبّبته، لا يعقل ان يوجّه ضد الدولة اللبنانية. وليست هذه المرّة الأولى التي يعبّر فيها البعض عن استيائهم بمثل هذا التصرّف الأرعن. كان جليًا واضحًا انها تنبيه لي في الداخل والخارج وان هناك من يحذّرني من خطر تبديل صداقاتنا اللبنانية والعربية. صحيح انني لم أكن أفكّر في الأمر. غير ان تفسيرًا معاكسًا لتصرفاتي كان كافيًا لتصدر هذه الردود العنيفة.

كان ذلك كله امتحانًا لي، فقابلته برباطة جأش وتظاهرت بجهله.

الفريق اللبناني الآخر بدأ يحضّر لمسيرة معاكسة. فبدأ الشباب يتجمّعون في مدرسة الحكمة المارونية استعدادًا لتظاهرة كبرى في شوارع بيروت. لكن هذه التظاهرة التي لا بدّ لها ان تسبّب ردود فعل لا متناهية، ثم ردود فعل اخرى على الردود الأولى، استطعنا وقفها وابدالها بمهرجان خطابي في باحة المدرسة.

في أثناء ذلك كان وزير الخارجية يحضّر باهتمام فائق تفاصيل زياراتي المقبلة الى القاهرة وباريس والفاتيكان. ويكفينا ان نبيّن ان هذه الزيارات غير متناقضة لنكون قد حقّقنا مأثرة. اما أن نتوصّل الى إظهارها كأنها متكاملة فأمر أجدى وأعظم. وكل الاحتياطات مفيدة دون استثناء في رأي تقلا ورأيي.

احتفال أوّل أيار من عام ١٩٦٥ في القاهرة.



هنا بدأت الأقاويل والاشاعات وتعليقات الصحف والقال والقيل تدور على كل الألسن بشأن كل واحدة من هذه الزيارات ، ولو جمعت الأقاويل كلها لملأت ملفات وأسفارًا . قيل انني عكفت عن القيام باحدى زياراتي الثلاث . قيل ان ديغول وعبد الناصر بدّلا الرأي في طريقة استقبالي . وقيل ايضًا انني في سفري مصمّم على تنفيذ أمور عجيبة غريبة وانني مستعد لمشاريع رعناء .

واجهنا كل شيء ببعد نظر ولكن ليس دون خوف . فقد درسنا باهتمام وتأنٍ اسماء اعضاء الوفد المرافق . واتخذنا التدابير كيلا تصدر عن مواطن أحمق ، او أي فريق من المواطنين ، اية بادرة من شأنها ان تسيء الى برنامجنا او ان تعطي عنا فكرة سيئة . ولكن من الضروري ان تكون التواريخ المحدّدة للزيارات متقاربة من أجل الدلالة على وحدة الرحلة واستمراريتها .

كان كل شيء جاهزًا عندما طرأ أمر جديد حسن مناخ زيارتي لمصر وبالتالي مناخ السفرة كلها .

زيارتي الرسمية لمصر

كان موعد زيارتي القاهرة مقرّرًا في الثاني من نوار كما أكّده لي عبد الناصر شخصيًا في رسالة ، على أن تنتهي في الرابع من هذا الشهر مساءً فأطير بعدها الى مدينة نيس الفرنسية ، ومنها أتوجّه الى باريس في الخامس منه .

رغب عبد الناصر لأسباب لا مجال لعرضها هنا أن تكون زيارتي أطول . ولما كانت ستنتهي لا محالة في الرابع من نوار ، طلب إليّ ان أقدّمها يومًا . فقبلت . وبموجب البرنامج الجديد كان وصولي الى القاهرة منتظرًا في اول نوار ، عيد العمل . جاءني السفير المصري عشية سفري وسألني ما اذا كنت موافقًا على حضور الاحتفال بعيد العمل في القاهرة وإلقاء كلمة فيه . ولم يكن لديّ أي داعٍ للرفض

فوافقت . وقد كلّفني ذلك ساعة سهر لكتابة خطاب جديد أضفته الى مجموعة الخطب التي كنت قد حضّرتها .

فكرت أكثر من مرة في أمر العنصر الفاعل الذي يسبب بعض النجاحات ووجدت انه ذاك الذي يفلت من حساباتنا وتصوراتنا وتقديراتنا . وقد قلت أكثر من مرة في بعض العمليات الناجحة مئة بالمئة انها ممتازة الاتقان والسير فلا يعقل ان تكون قد جُهِّزت ورُتِّبت سابقًا . فهناك ولا شك قدر سامٍ يكلّل جهودنا احيانًا بنتائج تفوق حساباتنا وتخطيطنا .

هل السنّة هي التي رعت سفري الى العواصم الثلاث منذ بدئه ، اي منذ زيارة القاهرة ؟

منذ بضعة أسابيع كانت مصر قد استقبلت أكثر من زائر رسمي لدرجة ان المواطن المصري امسى لا يبالي بالمراسم والاحتفالات التي يشاهدها ، وحتى ان الأجهزة المختصة بالاستقبالات صارت تترك أقواس النصر ولافتات الترحيب مكانها وتكتفي بتبديل الأعلام في الشوارع . فمن بورقيبة الى الحسن الثاني الى رئيس المانية الشرقية الى رئيس ماليزية الى الماريشال تيتو – الذي غادر القاهرة في الثلاثين من نيسان اي عشية وصولي – شهدت العاصمة المصرية سلسلة احتفالات متماثلة ومراسم متشابهة .

وصلت بعد الظهر فاستقبلني عبد الناصر في المطار ورافقني الى قصر القبة . وكان لي استقبال شعبي رائع وترحيب ودي . لكني كنت أفكر في نفسي ان الجماهير المنتشرة بين المطار وقصر القبة ، والمنثورة من قصر القبة الى منزل عبد الناصر لا بد ان تشعر بسأم ازاء استقبالها بالطريقة عينها جميع أصدقاء الرئيس .

لكن رأيي بدأ يتبدّل بعد خروجنا من منزل عبد الناصر حيث قمت بزيارة خاطفة بموجب المراسم الموضوعة . وتوجّهنا معًا الى المهرجان الخطابي . وكلما اقتربنا من مكان الاحتفال ، كانت الجماهير تزداد كثافة وتتهافت امامنا لتحيّينا وتهتف بحياتنا .

في مقدمة المنصة المخصصة للشخصيات السياسية والرسميين جلسنا انا وعبد الناصر. وعندما صعدت السلم المؤدي الى هذه المنصة أخذ بي عجبٌ لرؤية المشهد الذي أمامي وكأنه رؤيا.

كم كان عدد هؤلاء الذين تهافتوا الى المكان، ومنهم من قعد ومنهم من وقف ومنهم من ملأ الأفق! هل هم مئتا ألف او ثلاث مئة او أربع مئة او أكثر؟ اخشى ان أكون مخطئًا في تقديراتي فأعود الى مراجعة الصحف والصور والتقارير العربية والأجنبية التي صدرت يومها. وأرجع الى الواقع. فهذا البحر المحيط من الرؤوس واقع حقيقي لم أكن أحلم به. هذه الهتافات والدعاءات والصراخ والضوضاء والحماسة جرت فعلاً في القاهرة ذاك اليوم. لا شك انها لعبد الناصر وللاتحاد الاشتراكي وللثورة، ومن أجل النضال ضد الامبريالية الصهيونية والأمبريالية الاخرى. ولكني كنت ضيف الشرف الذي أشرك في الشعارات الوطنية، والرموز الانسانية التي تحرّك هذه الجماهير وتدفعها في هذا المدّ من العاطفة والاعجاب والعرفان، ومن مشاعر أخرى كثيرة ظاهرة وخفية.

وكانت الخطب تُقطع مرات عديدة بالهتافات التي طالما كان يتردّد فيها اسمي واسم لبنان بكثرة مؤثّرة.

كنت أرنو الى المكان المخصّص للخطباء حيث سأقف بدوري بعد لحظات. رأيت امام الخطباء نوعًا من طاولة منبرية يستطيعون وضع عليها اي ورقة او نص او خطاب، وان الأضواء مسلّطة على هذه الطاولة ليتسنّى للخطباء القراءة دونما جهد.

لا اعرّضك لمناقشات مع بورقيبة

لما انتهى ممثّلو النقابات والاتحاد الاشتراكي من إلقاء كلماتهم، قال لي عبد الناصر: لم يبقَ إلاّ نحن. هل تودّ ان تكون خاتمة المتكلمين او تفضّل ان تتكلّم قبلي كيلا تضطر الى الدخول في تفاصيل حملتي على بورقيبة؟

كل الاعتبارات كانت تقضي بأن أسبقه الى المنبر. فتوجّهتُ نحوه وسط وابل من التصفيق.

كنت قد أمضيت وقتًا من الليل في كتابة كلمتي وأنهيتها قبل بضع ساعات. لذا بدا لي سهلاً ان أتحرّر من ورقتي وأن ألقي كلمتي غيبًا أو شبه ذلك كما لو ارتجلتها، ساعدتني في ذلك حافظة جيّدة. وانطلقت من شفتي كلمات جديدة وتعابير لم أكن قد كتبتها أو فكّرت بها من قبل فوضعت النص الأساسي بقوة آنيتها وتناسبها مع الوضع. وكان يقاطع كلامي تصفيق حار حتى اضطررت الى إعادة بعضه أكثر من مرة. في الوقت عينه، لم أخرج من إطار العيد، عيد العمل والعامل والانسان.

وكانت كلمتي كلمة لبنان حقًا.

فلما جاء دور عبد الناصر بدأ بشكري بحرارة ثم أبدى مشاعر اعجاب واكبار للبنان «وطن الأحرار» حسب تعبيره، بل «البلاد حيث الصداقات الحرة هي خير ثروة».

وأكمل الرئيس المصري خطابه بعودة الى مواضيعه المفضلة، وعنوانها ضرورة التضحية من أجل الوطن.

كنت أستمع إليه وأفكاري سائحة في الوقت ذاته، اذ تبيّن لي ان كل ما اود قوله له انما سمعه، وان اجتماعاتنا واجتماعات وفدينا ستكون فقط من أجل تدعيم الصداقة بيننا في سبيل مصلحة بلدينا.

مشروع تنمية لا خطة حربية

وبالفعل وفي اليوم التالي، كان اول من زارني في قصر القبة الفريق علي علي عامر. اتى ليطمئنّ عن مشاكلي ويسأل عن تمنياتي. كررت دعوتي إليه لزيارة لبنان والتلاقي مع القيادة العسكرية عندنا للبتّ معها في الشؤون العسكرية. ولكنني أسرعت في القول له انه في ما يختص بأعمال تحويل الأردن، عليه ان ينتظر انتهاءنا من بناء

سدّ النبطية . وهي الحجة الأولى لقيامنا بأي عمل تحويل ، اذ يكون بمثابة تبرير لمشاريع الإنماء والري عندنا .

رددت هذه الفكرة في ما بعد على مسمع من الأمين العام عبد الخالق حسونة ثم على مسمع من عبد الناصر الذي وافق عليها كل الموافقة مما جعلنا بعد ذلك بمأمن من عصبيَّة البعض ، ومن مزايدات البعض الآخر .

وتلا ذلك مآدب ، وتبادل أنخاب ، واجتماعات ثنائية بين وفدينا .

نوقشت أهدافنا المشتركة جميعًا ابتداءً بقضية تحرير الشعوب وانتهاءً بمسألة بيع تفاحنا وبموضوع فكّ الحجز عن أملاك مواطنينا في مصر . غير ان الفائدة الكبرى تخطّت هذه المواضيع . ذلك ان الأساس كمن في ازدياد متانة لقائنا الأول . كما كمن في الكلمات التي ألقاها عبد الناصر اثناء المأدبة التي أقامها على شرفي وهي : «أصرّ وأؤكّد ان كل عدوان على لبنان نعتبره عدوانًا ضد مصر» . وقد سبّب لي هذا الكلام ارتياحًا مضاعفًا اذ فهمت ان مصر لن تهبّ لنصرتنا ان كان هناك خطر علينا فحسب ، بل تبيّن لي ان استراتيجية القيادة ستوفّر علينا خطر التعرّض لعدوان ، وبالتالي طلب المساعدة .

صدر البيان المشترك بعد انتهاء الزيارة فامتاز «بجديد» ، وهو ان لا جديد فيه ، على حدّ قول أحد المراقبين.

حرص عبد الناصر ومعاونوه على عدم التسبّب لنا بأي ازعاج . وقد بدأ هذا الحرص في الصيغة الكلاسيكية العادية جدًا التي اخترناها لوضع البيان .

خلافًا للتقليد ، لم يذكر في البيان اني وجّهت دعوة الى الرئيس المصري لزيارة لبنان . وقد قرّرنا ذلك بالتوافق بين كلا الفريقين . لأن الأمر – كما لا يُخفى على عبد الناصر – سيسبّب ردود فعل و«حرتقات» نحن عنها بغنى .

أثناء مأدبة كانت قرينة الرئيس عبد الناصر أبدت لي مخاوفها من رحلات زوجها خارج بلاده . وأخبرني هو انه تلقّى أكثر من دعوة لزيارة العراق ولكنه متأكّد من ان

بلدًا متاخمًا للعراق سيسعى الى تدبير اغتياله اثناء زيارته .

بالنسبة إلينا ، ان أية محاولة اغتيال في لبنان غير واردة حتى وان كانت من تدبير خارجي ، وحتى لو كان الجناة غير لبنانيين . ولكن الاعلان عن زيارة جمال عبد الناصر غير وارد ايضًا .

شملت زيارتي مصر حفلة استقبال في جامعة الدول العربية ، وحفلة وضع الحجر الأساسي لبيت الطالب اللبناني ايضًا . وقد انتهت الزيارة باحتفالين : الأول كلاسيكي والآخر غير معهود وغير منتظر في نظر بعض مواطنينا .

الاحتفال الكلاسيكي هو قداس نهار الأحد الذي يشترك فيه كل رئيس دولة لبناني عندما يزور بلدًا عربيًا ويمضي فيه نهار احد . كنت في مصر سعيدًا بل حريصًا على نهج هذا التقليد الذي أضحى طقسًا بين الطقوس .

أصبحت حاملاً دكتوراه شرف من جامعة القاهرة

أما الذي قد يثير تعجّبًا وكثيرًا من الاعجاب فهو الاستقبال الذي أُجري لي في جامعة الأزهر حيث مُنحت شهادة دكتوراه فخرية بعد أن ألقيت محاضرة بحضور رجال العلم في مصر .

هنا سأقول شيئًا لم أعد أجد صعوبة ، اليوم ، في البوح به : انني من الرعيل الذي تلقّى دروسه الابتدائية والثانوية في عهد الانتداب الفرنسي . وكانت هذه الدروس تكلّل بنيل شهادة البكالورية الفرنسية . فكان التلامذة محمولين طبيعيًا على إعطاء اللغة الفرنسية الأفضلية على اللغة العربية . لم تكن تلك حال جميع رفقائنا ، انما معظمهم . فانا أستطيع تعداد كثيرين من رفقائي الذين كانوا وما زالوا خطباء وكتّابًا وأساتذة أفذاذًا في لغة الضاد . غير انني كنت ، لسوء الطالع ، من الفريق الآخر .

للمناسبة سأذكّر بحرب تحرير الجزائر وقد خاضت الجزائر معركتها من أجل الاستقلال

ببسالة فريدة ومعظم قادتها من الناطقين بالفرنسية . مما يدل على ان الوطنية ، في الإطار العربي وفي أي إطار آخر ، غير مرتبطة بالفصاحة وبفقه اللغة .

غير ان هذا ما كان ليحملني على الكسل . فقد سعيت طويلاً وتدريجيًا طوال سنوات عديدة ولحاجات سياسية وانتخابية الى تحسين إلمامي بالعربية ، فتوصّلت الى مستوى مشرّف . وقد جاءت الدكتوراه الفخرية في نظر العديد من اللبنانيين تتويجًا لجهودي الخاصة .

ساعة الوداع بدا لعبد الناصر انه يصافح صديقًا صدوقًا .

رأيت عبد الناصر ثانيةً ومرارًا فيما بعد ، لا بل كنت في القاهرة عشية وفاته . هل انا بحاجة الى ان أعيد القول ان هزيمة حزيران ١٩٦٧ أوجبت عليه تعديل موقفه ، أكثر من مرة ، تجاه بعض الجهات العربية وبصفة خاصة تجاه المقاومة الفلسطينية ، ومن جهة أخرى ، ان استقالة الجنرال ديغول عام ١٩٦٩ قد أخلّت الى حدّ خطير بتوازن سياستنا الخارجية ؟

ولكن ، في شهر ايار هذا من عام ١٩٦٥ ، لم يظهر ما ينذر بأي فاجعة من هذا النوع . وبقلب منشرح استقللت الطائرة مع الوفد اللبناني متجهين الى نيس حيث كانت طائرة الجنرال ديغول في انتظارنا لتنقلنا في الغد الى باريس .

من العقيد عبد الناصر الى الجنرال ديغول ، ثم من الجنرال ديغول الى قداسة بولس السادس ، ان ذلك لقدر من اللقاءات ومن المحطات على طريق القمم الذي تبعته .

الفصل الخامس

زيارة للجنرال ديغول وللباريس

مونولوج البطل

انضمامي يومًا واحدًا إلى الأكاديمية الفرنسية

«باطل الأباطيل»

التصريحات المطمئنة

الحاضر يحيي الماضي

عند الجنرال ديغول حيث يتلاقى الخيال والحياة.

باريس الأربعاء الخامس من نوار ١٩٦٥

«فخامة الرئيس،

زيارتكم باريس تعطي بلدينا فرصة هامة ومؤثّرة فتتيح لنا استعادة عرى الماضي وتوطيد أواصر الحاضر وارساء علائق المستقبل. ان ذلك يحلو لنا ويطيب ولا سيّما ان رئيس الدولة الذي نستقبله اليوم هو انتم، يا فخامة الرئيس، الرجل الذي نحيّي فيه الصفات الرفيعة والثقافة المحيطة...»

هو الجنرال ديغول يلقي كلمته في قاعة الاحتفالات الكبرى بقصر الإليزه حيث أُقيمت على شرفي مساء وصولي الى باريس مأدبة عشاء. إدارة المراسم أجلستنا الواحد جنب الآخر وراء الطاولة الضخمة حيث جلس حوالى مئتي مدعوّ، وجلُّهم ضيوف مميّزون سينضم إليهم بعد العشاء حوالى ألف ضيف آخر.

في هذا الاستقبال الرسمي حيث يتلاقى الواقع والمسرح، ها اننا نصل الى المشهد الرئيسي: مشهد خطاب الجنرال ديغول. من روايات كورناي الى روايات مونترلان لم يكن بطل ليتحدّث بمثل هذه الأناقة وهذا التسامي اللذين ينطق بهما «البطل» الواقف الى جانبي. اما دوري انا فهو في آن معًا دور ضيف الشرف ودور الصديق المستمع وكاتم الأسرار في المسرحيات الكلاسيكية. لذا وجب علي ليس الاستماع

وحسب انما تجسيد الاستماع كله. عسى ان يقرأ الحاضرون في ملامح وجهي مرآة المشاعر التي ينتظر رؤيتها عندي وأولها الاعجاب والامتنان، وانا لشاعر بهما حقاً.

ويسرّح الجنرال ديغول نظره في الحضور ويتابع:

«منذ أقدم العهود يتبادر الى الفرنسيين ان لبنان باب الشرق كله. ومنذ قرون عديدة يرى اللبنانيون ان صوت الغرب هو أولاً صوت فرنسا...»

هذا الكلام المبسّط، الذي يسوده الارتياح ونوع من العفوية، هل يمكن ان يكون ارتجالاً؟ انني قد أذهب الى ظن ذلك. بل انني أعتقده، بالرغم من الورقة التي وضعها الجنرال أمامه على المائدة، ليلقي النظرة عليها، ورغم الورقة التي أحسها في جيبي – وهي نسخة عن الخطاب – تسلّمتها امس لدى وصولي الى نيس، ليتسنّى لي تحضير الجواب. ان نبرة الجنرال وكلمته تمتازان بواقعية تسمو فوق معالم الورقة المطبوعة التي في حوزتي.

لدي في حقيبتي ملف كامل يحوي أجوبتي على خطب الشخصيات الرسمية (رئيس مجلس بلدية باريس، رئيس مجلس إدارة الاذاعة والتلفزيون، عميد المدينة الجامعية...) وقد أرسلت إلي هذه الشخصيات خطبها منذ اسبوع ليتسنّى لي الردّ عليها. أما كلمة الجنرال ديغول فأتت متأخرة بعض الشيء ذلك أنه كتبها في ساعات راحته أي في عطلة آخر الأسبوع بمنزله الخاص في كولومبي. هذا حسب المعلومات الصحافية التي نُشرت يومها.

ساعة تسلّمت الخطاب في نيس – أولى مراحل زيارتي – أمضيت قسطاً وافراً من الليل أتمعّن فيه وأعيد قراءته. وقد أثلج قلبي. انه يمتاز بالاصرار على الصداقة اللبنانية – الفرنسية بشكل لا يمكن ان يثير اي تحفّظ عربي ولا ان يمس بحساسية اية فئة من الشعب اللبناني.

– كيف أنسى انني آت من القاهرة؟

ليست رحلة بل طموح

لقد تسلّمت غداة انتخابي رئيساً للجمهورية اللبنانية في ايلول ١٩٦٤ دعوتين من الرئيسين الفرنسي والمصري. وذلك في غضون ايام قليلة. فحرصت على جعل الزيارتين متصلتين. فسعيت لأن تكونا غير متناقضتين بل متكاملتين. (واستطعت ان أتوّجها بزيارة الى قداسة البابا بولس السادس).

بيروت – القاهرة – باريس... ليست هذه مراحل زيارة بل انها معالم طموح. وانها لن تسبّب صداماً بين القوى السياسية او الاقتصادية او البوليسية التي ما زال صراع النفوذ قائماً بينها في منطقتنا منذ دهور.

قبل مغادرتي بيروت شعرت ببعض تحرّكات هنا وهناك! وفي يوم سفري بالذات استطاع احدهم ان يدس في جريدتين لبنانيتين نبأ تسليم أسلحة فرنسية لاسرائيل تعكيراً لجوّ زيارتي الى فرنسا، أما مصدر الخبر فهو ولا شك أحد الأجهزة الرسمية او السرية الأوروبية او الأميركية. وقد جاء التوقيت في آنه. اما الغاية فواضحة لا تقبل شكّاً.

كانت هذه كلها تجول في خاطري في نيس، ساعة كان موفدو السلطات الفرنسية الإدارية والسياسية يحيطونني باهتمام. ورحت أفكّر انه يكفي تحوير صيغة مقطع من خطاب الجنرال ديغول كي يمس شعور قسم من اللبنانيين او العرب، لتنشط كل المؤامرات التي تُحاك ضدّنا، وليخلق نوع من توتّر في العلاقات اللبنانية – الفرنسية فتفشل زيارتي. أضف الى ذلك التعذّر بل الاستحالة في الطلب الى الرئيس المضيف، ذي الوجه الملهم والطالع التاريخي، ان يبدّل اي حرف في النص الذي أعدّه. فكأنك تسعى الى تحرير نص كتاب من كتب السماء.

ما كتب فقد كتب

أحمد الله إذ تبيّن لي ان لا «منكر» في ما ورد. فالكاتب «الملهم» يعرف مليًا نفسية الانسان، ولا سيّما الانسان في لبنان وفي الشرق العربي. كانت كلماته تهطل من عل، ولكنها تقع برقة ولطف. وهكذا فقد ارتاحت نفسي واستطعت أن أنعم كسائر المدعوين في قاعة الإليزيه الفخمة ببلاغة شارل ديغول، وان أهتز طربًا بهذا الصوت حيث الكلام مناسب ومكيّف كما الموقف.

ما كُتب قد كُتب

كنت أردّد هاتين الكلمتين كأنني في صدد تلاوةٍ مقدّسة. وحافظتي ترافق الخطيب فقرة فقرة، وتستبقه احيانًا.

أما «البطل»، فكان يتابع كلامه في غربة عن المخاوف التي انتابتني أمس، وفي معزل عن شعوري اليوم. إلقاء رائع مبدع. غير انني أجدني أسجّل تحويرًا طفيفًا في الخطاب: هل هو تبديل صغير او انها أناقة أدبية عند كاتب مبدع ورئيس دولة مسؤول يسعى حتى آخر لحظة الى تصحيح ما كتبه؟ لقد قال:

«كيف تراني أنسى، وقد تبيّنت الأمر شخصيًا، الدعم الذي قدّمه لبنان لفرنسا، اثناء الحرب العالمية الأخيرة – وذلك فوق كل الاعتبارات السياسية – كانت فرنسا اذ ذاك منكوبة، غير انها أبقت على نضالها وعلى الحرب فأمست حاضرة ومشاركة في صفوف النصر!»

القراءة والارتجال

وكان النص الذي تسلّمته امس يذكر «دعم لبنان لفرنسا المنكوبة في البدء، المنتصرة في النهاية».

«المنتصرة»!

لقد انتصرت فرنسا حقًا. غير ان الجنرال ديغول لم يشأ ان يجعل منها محتكرة للنصر. فآثر التذكير بأنها كانت حاضرة فيه، غير بعيدة عنه ولا غريبة.

انها «مآثر» يسجّلها ديغول الأديب على ديغول القائد.

ويضيف:

«تجاه ذلك، وإذ نرى بين لبنان وفرنسا هذه الروابط المتينة أكثر منها في أي وقت مضى، ولا سيّما في صداقتها التقليدية، وحضارتها المشتركة في أكثر من ميدان، ورغبتها الواحدة في العمل – كل في محيطه ومن ثم في كل مكان – من أجل التقدّم والسلام، فتلك تلزم كلتا الدولتين على إنشاء روابط أقوى وأمتن على أصعدة عديدة...»

ثم أتت الخاتمة لتذكّر بوجوب حشد جهودنا – بل مواقفنا اذا اقتضى الأمر – «تجاه الأزمات الخطيرة التي تهدّد الكون بفعل الامبرياليات الحديثة التي تبشّر بايديولوجيات وعقائد مختلفة متباينة».

وقفت لألقي كلمتي، وكلام الرئيس الفرنسي يرنّ في أذني.

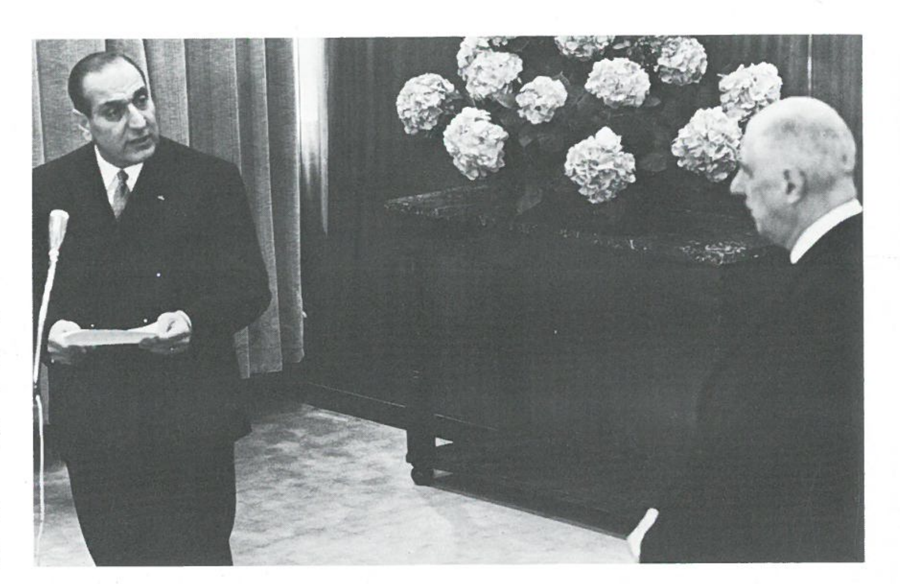
كنت قد حفظت خطابي كما الجنرال حفظ خطابه. فانا صاحب ذاكرة تجعلني أرى النص كما لو كان مطبوعًا امامي في وجوه السامعين، وما يحيط بهم. فالاستظهار عندي يحاكي القراءة دونما مزيد عناء. ولكن، هل أجيز لنفسي في مثل هذا الحفل أن أتظاهر بالارتجال؟ او أن أبدو كأنني أحاول تقليد الجنرال او مجاراته؟ فأبعدت عني هذا النوع من الفوز ثم تناولت الورقة ورفعتها لا لأقرأها وقد حفظت مضمونها بل لأعطي نفسي مظهرًا طبيعيًا. وتغلبت على فكرة عدم تخييب مواطنيّ الذين كانوا يودون ان يروني أعرض مواهبي الخطابية. فآثرت على كل النجاحات تلك الفضيلة التي تكلّل الرزانة والوداعة، وبدأت أقرأ بصوت استطاع ان يستر مشاعري هذه كلها، فقلت:

«عيد الصداقة هذا الذي نحتفل به ، أشعر معكم بالغبطة المتدفّقة منه . انني أقدّر معانيه السامية وانني أحيي غده . فصوت فرنسا الذي سمعناه وما زلنا نسمعه منذ عصور يلقى في قلوب اللبنانيين صدى أعمق ساعة يكون صوتكم انتم بالذات يا حضرة الرئيس ، كما هي الحال اليوم» .

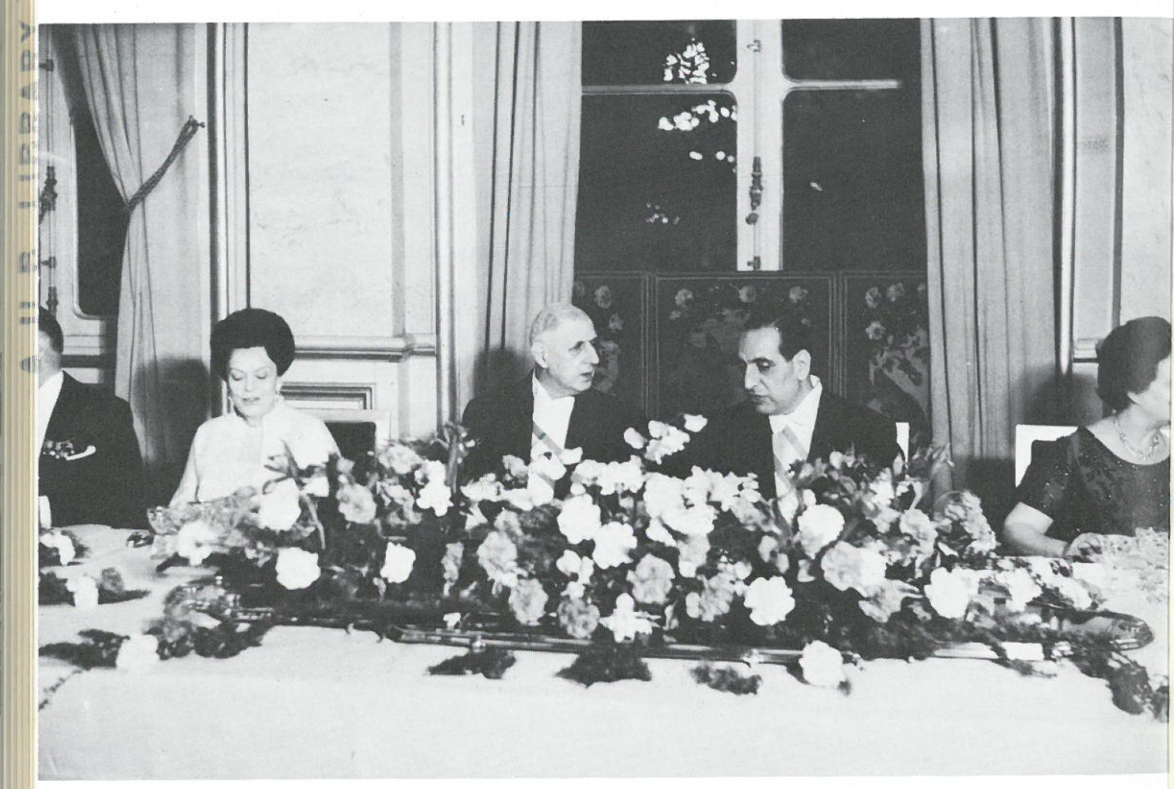
واستعدت بدوري الصداقة القديمة والمستمرة التجديد بين بلدينا ، كما استعدت تعلّقنا بالقيم عينها ، واستعدت ايضًا الدعم الذي يقدّمه العلم الفرنسي والتقنية الفرنسية لتقنيتنا في مشاريع التقدّم والبناء عندنا .

أخيرًا أتيت على ذكر المأساة الفلسطينية – هذه الفاجعة المستمرة على حدودنا – وتمنّيت ان تهتم فرنسا بها بفعالية أقوى ، فقلت :

«ان وجه فرنسا المميّز بين الدول هو وجه العدالة . انها تظهر للملأ بمظهر العدل . ففي زمان المعضلات الاقتصادية وتضارب المصالح ، نحن من الذين يؤمنون بسلطان الحق . ونحن مؤمنون ايضًا بأن فرنسا لا تستطيع إلاّ أن تتألم حيث عذاب الحق» .



٤ أيار ١٩٦٥ .
مع الجنرال ديغول
خلال الاستقبال
في مطار أورلي .



العشاء الرسمي
في الأليزه .

كانت الآلهة راضية

لدى جلوسي ، شعرت من كلام مضيفي العظيم ، ومن نبرة صوته ، ومن مظهره كله ، بأن التقدير الذي غمرني به نابع عن شعور حقيقي عنده . وقد ذهب بي هذا كل مذهب إذ ان الجنرال كان ، كسائر الحاضرين ، يسمع كلامي لأول مرة ، لأنه لم يكن يتوجّب عليّ إرسال نسخة مسبقة من الخطاب إليه . رضاه اذًا عفوي ، لم يتسنَّ له الوقت ليفتر .

عندما وقفت الى جانبه لاستقبال الألف مدعو كنت واثقًا أكثر من أي وقت آخر بنتائج زيارتي . فنسيت تعب يوم مرهق كان قد بدأ ليس مع الفجر وانما في الليلة



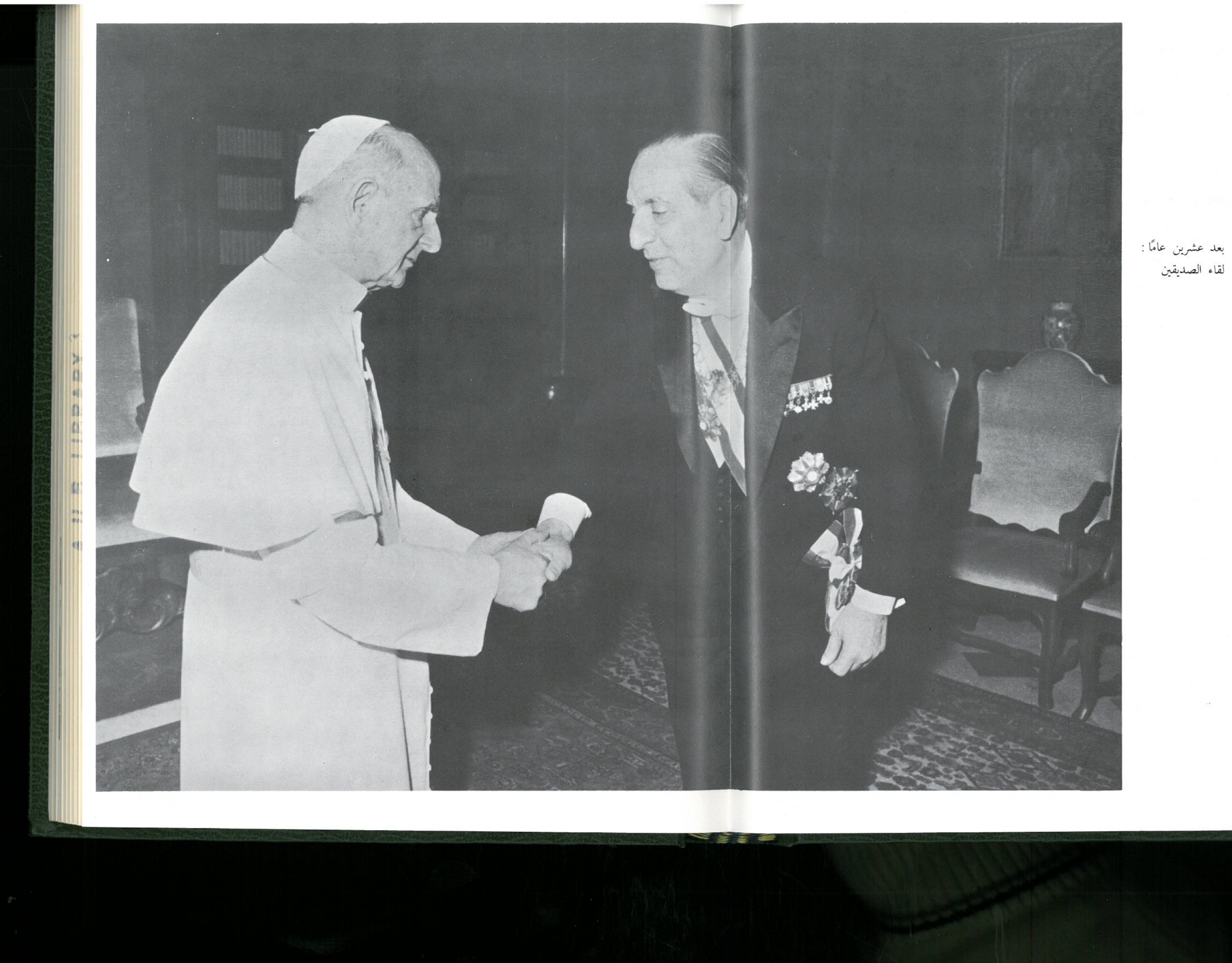
١٩٦٥.
المسيرة من المطار
إلى الأليزه.



من اليسار إلى اليمين: الجنرال ديغول، الرئيس اللبناني، السيد جورج پومپيدو، السيد مسمير.



١٩٤٨. من الماضي. المونسنيور مونتيني (البابا بولس السادس في ما بعد)
والوزير المفوّض لدى الكرسي الرسولي



بعد عشرين عامًا :
لقاء الصديقين

الفائتة ان جاز التحديد. وكنت أقابل كل مدعو بوجه مشرق سعيد بحيث لم أتحْ لأحد من المدعوين أن يشعر بالمصاعب والمتاعب التي أدّت بي الى هذه السعادة. وكما في العديد من الاحتفالات التي شاركت فيها طوال حياتي السياسية والدبلوماسية حيث كان علي ان أكتم إرهاقي، فكرة واحدة كانت تطغى على حديثي وترافق تصرفاتي: ضرورة استقبال الناس بهذا «الحاجز» الذي قوامه لباس رسمي وأوسمة، فتقف أنظارهم عنده ولا يعرفون ماذا يخبّئ وراءه من خلجات دفينة «ودقّات قلب مضطربة».

لدى عودتي الى قصر الضيافة في المساء، رحت أستعيد تفاصيل النهار بكامله: الإقلاع من نيس، الوصول الى مطار أورلي، استقبال الشخصيات الرسمية الواقفة وراء الجنرال ديغول والسيدة قرينته (وبين هذه الشخصيات السادة جورج بومبيدو، اندره مالرو، بيار مسمير، والجنرال كاترو الذي جاوز الثالثة والثمانين). حقًّا ان السماء معنا، والصحافة مؤيدة لنا. والطقس عينه أضحى جميلاً.

من المطار الى قصر أورلي قطع الموكب الرسمي ستة عشر كيلومترًا بالإضافة الى ثلاثة قرون من تاريخ باريس. كما كان قد أحيا ذكر عدة عصور من الصداقة اللبنانية – الفرنسية.

في السيارة الرسمية المجهّزة خصيصًا للرئيس الفرنسي، راح الجنرال ديغول بلطف وابتسام يدلني على حشود اللبنانيين والفرنسيين الذين وقفوا على الارصفة ليهتفوا لنا. غير انني ابّان هذا التنقّل، لاحظت لدى مضيفي ما اثرني وسبغ على فرحي مسحة حزن. كان ديغول قد انحنى فوقي ليقفل زجاج النافذة، فرأيت يده حائرة في البحث عن المفتاح – هل تعبت عينا الجنرال فلم تعودا تسمحان له برؤية الأشياء على هذه المسافة الصغيرة؟ ما كنت لأتحمّل ان مثل هذا الرجل العظيم قد يهرم.

قضى البرنامج بأن نجتمع في لقاء خاص قبل الغداء. وهذا الاجتماع الثنائي يُعقد في قاعة العمل بالطبقة الأولى من الاليزه.



جموع غفيرة في استقبال قداسة البابا بولس السادس خلال زيارته لبنان.

انه لقاء قصير، علي أن أعرض فيه أهداف زيارتي الأساسية، وهي: توطيد التعاون التقني والاقتصادي بين بلدينا، كما عرضت على الرئيس ديغول حاجتنا الى صداقة فرنسية فاعلة تجاه التهديدات الاسرائيلية المتزايدة ضد لبنان، ولا سيّما بعد القرار العربي بتحويل مياه الأردن.

كان ديغول قد استقبل قبل فترة السيدة غولدا ماير، مما حدا وكالة يونايتد برس على ان تصرّح بأن الرئيس الفرنسي قد يقوم بوساطة بين الدول العربية واسرائيل. ولكن، أنّى هذه الوساطة؟

وقد قال الجنرال ديغول، وكأنه شاء ان يزكّي موقفنا:

«ان اسرائيل تبالغ حقًا، ثم أردف... المنبع الأساسي للهجرة اليهودية موجود في روسية. وحده الاتحاد السوفياتي يستطيع ان يساعد على إعمار اسرائيل او ان يقف في وجه الهجرة إليها».

ثم تطرّقنا الى القضايا الفرنسية – العربية. فسألني عن رأيي الخاص في وضع العلاقات بين فرنسا والعالم العربي، والتفت إليَّ بغتة وقال:

هل تعرف بن بلا؟

كنت قد التقيت بن بلا منذ شهر في الاسكندرية حيث رئس الوفد الجزائري وقد كان لنا آنذاك عدة جلسات حوار تبدأ باللغة العربية ثم تنتهي بالفرنسية، لمزيد من التفاهم.

لم يكن بن بلا ليشكو من أيّ مركب نقص في هذا المجال. وقد قال لي:
«نتفاهم كما نستطيع. لم لا بالفرنسية. ان اللغة الفرنسية بالنسبة إلينا حجم اضافي. بل بعد إضافي».

قلت لديغول انني سألتقي الزعيم الجزائري الصيف التالي، في الجزائر، حيث سيجتمع مؤتمر عدم الانحياز.

فأطرق الجنرال قليلاً. لكنه لم يطلب شيئًا. غير انني واثق من انه سيسعى الى استغلال «استعداداتي» عند الحاجة.

القول والفعل

حوى البرنامج ايضًا حفلة غداء مصغّرة في قاعة مورا بقصر الإليزه. فالتقينا انا والجنرال ديغول اعضاء الوفدين اللبناني والفرنسي وبعض المدعوين الى هذا الغداء وكانوا قلّة.

حرارة الاستقبال – وقد ساهمت فيها انخاب الراح – أضفت على الجو شيئًا من الالفة فرحنا ننتقل من الجد الى الظرف دونما جهد. ولم يخل الكلام من فن التلاعب بالألفاظ. وقد أطلقت طرفة أعجبت الجنرال ديغول فوعدني بحفظها واستعمالها في مناسبة أخرى.

لا شك في ان الجليد ذاب تمامًا. في وقت آخر من الحفلة كنا نتساءل ايهما يسبق الآخر الفكر او الكلام: فهل النطق يتبع التفكير ام التفكير يتبع النطق؟ قال الرئيس بومبيدو: «أظن ان الكلام غالبًا ما يحل مكان التفكير». فاسترسل الجميع في الضحك. وقلت بدوري: «اسمح لي يا دولة الرئيس بالقول ان الكلام يحل محل العمل».

بعد سنوات تسنّى لي أن أذكّر الرئيس بومبيدو بكل هذا في قصر الإليزه وقد أصبح رئيسًا للجمهورية.

هل هي أعباء الرئاسة تحمله على مزيد من تسامح؟ او هو الزمان المنصرم الذي يجرّه الى مزيد من ريبة؟ او انها الانتخابات النيابية المقبلة؟ (كنا في كانون الثاني من ١٩٧٣) التي جعلت أمثلة الديماغوجية تتكاثر نصب عينيه.
قال لي:

«أظن ان الكلام يستطيع ان يحل محل العمل والفكر جميعًا».

بعد الظهر رافقني رئيس الحكومة جورج بومبيدو الى قوس النصر حيث كان ينتظرنا السيد بيار مسمير وزير الدفاع ، فوضعت اكليلاً من الزهر على ضريح الجندي المجهول . ولدى عودتي الى قصر الضيافة استقبلت رؤساء البعثات الدبلوماسية ، واعضاء الكتل البرلمانية المنتسبين الى جمعية الصداقة اللبنانية – الفرنسية وعلى رأسهم السيد رينه ريبيير رئيس كتلة الصداقة اللبنانية – الفرنسية في مجلس النواب ، والسيد موريس كاريه رئيس هذه الكتلة في مجلس الشيوخ ، وأخيرًا أعضاء الشرف في لجنة الصداقة اللبنانية – الفرنسية وعلى رأسهم السيد بيار ليوتيه .

ثم كان علي أن أرتدي اللباس الرسمي وان أعلّق الأوسمة للتوجّه الى قصر الاليزه حيث حفلة العشاء والاستقبال الكبير .

... والآن ، بعد حوالى أربع وعشرين ساعة من السهر ، أحاول ان انسى التكريم والحفاوة وما إليهما ، وأسعى الى لذّة الرقاد .

إسهامي في المجمع العلمي الفرنسي

باريس في السابع من نوار ١٩٦٥

نهارنا كله مسلّط على وليمة العشاء التي سأقيمها على شرف الرئيس ديغول . ولكن ، قبل ذلك ، هناك بعض زيارات (الى مبنى الاذاعة والتلفزيون ، الى غرفة الصناعة والتجارة ، والى المجمع العلمي او الأكاديمي فرانسيز) .

زيارة الأكاديمي اخترتها في بيروت بين عدّة زيارات عُرضت علي لأنتقي من بينها . فكيف لا أغتنم الفرصة ولا أتوجّه الى قصر الخالدين ، فأحيي اعضاءه في عرينهم ؟ ولكن لا بد من الاشارة هنا الى ان الشرف الذي أحاطوني به ليس فريدًا من نوعه وحسب ، وإنما كان نادرًا . ذلك انه لم يسبقني الى حضور اجتماع في الأكاديمي إلاّ ضيفان اثنان : قيصر الروسية نيقولا الثاني والرئيس الايطالي سيغي .

انها الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر ، توجّهت ، يرافقني وزير التربية كريستيان فوشيه ، الى الأكاديمي ، حيث استقبلنا مديرها القس بوغنر محاطًا بأعضاء المكتب . ودخلنا قاعة العمل فألقى القس بوغنر كلمة رحّب فيها بي . وأجبته بكلمة جاء فيها ان التكريم الذي ألقاه في مثل هذا المكان انما هو تكريم لمواطني الذين منذ عصر ريشليو ، مؤسّس الأكاديمي ، ساهموا حتى اليوم في تنمية التراث الثقافي والانساني في فرنسا .

وبدأت جلسة العمل .

بحث يومها أعضاء المجمع العلمي (المكلّفون وضع المعجم) في معاني عدة كلمات من أجل تحديدها . وكان مني ان ابديت رأيًا في تحديد معنى Collège électoral «الهيئة الانتخابية» يخالف رأي الأعضاء البارزين في المجمع وبعد نقاش طويل وافق المجتمعون على التحديد الذي أعطيته .

كما أبديت رأيًا آخر في تحديد معنى amitié de collège «الصداقة المدرسية» وكان قد ورد من قبل انها صداقة تبدأ في المدرسة وتستمر بعد الدراسة . فقلت ان هذا التحديد خاطئ لانه متفائل ، وبيّنت بكل أسف ان أكثر الصداقات المدرسية تزول على مرّ الزمان .

لدى خروجنا شكرتُ الله على الظروف التي سمحت لي في مثل هذا المجمع العظيم ألاّ أكتفي بالحضور بل ان أستطيع ابداء الرأي والاشتراك الفعلي في أعمال الجلسة . وقد ذكرت الصحف بشيء من الودّ بعض تفاصيل الجلسة وقالت اني تركت ورأيي «آثارًا في معجم الأكاديمي» .

هل يكون ذلك لي منطلقًا للخلود ؟

نجم عن القصة ذيول : ففي حفلة العشاء التي أقمتها ذلك المساء على شرف الرئيس ديغول ، بدأ المدعوون يمرّون بنا – كما هي العادة – مصافحين ، ثم يدخلون قاعة الطعام الكبرى ، توقّف القس بوغنر ، وهو من المدعوين ، أمام الجنرال ديغول لينقل

إليه بعض ما جرى في الأكاديمي . ثم انه هنّأني مرة أخرى وأثنى على معرفتي . وبعد ذلك ، قال لي :

– هل تعرف يا فخامة الرئيس انني ارتضيت بتحديدك معنى «الهيئة الانتخابية» عن صداقة لا عن اقتناع كلّي؟ فقد عدت الى المسألة بعد الجلسة وتبيّن لي انه خلافًا لما قلت ان مجلس النواب ومجلس الشيوخ المجتمعين لانتخاب رئيس جمهورية يُعتبران «مؤتمرًا وطنيًا» وليس هيئة انتخابية !

أجبته :

لا شك . ولكن هذا المؤتمر الوطني هو الى ذلك هيئة انتخابية .

وتدخّل ديغول فقال :

الرئيس حلو على حق . ومن الأدلة على صحة رأيه ان دستور الجمهورية الرابعة في كلامه على اجتماع مجلسي النواب والشيوخ كان يسمى ذلك هيئة انتخابية .

فانحنى القس بوغنر بعد تدخّل الرئيس الكبير الذي زكّى حجتي ببرهانه المبرم القاطع .

باطل الأباطيل

فكّرت في ما بعد في ذيول هذه الجلسة – ذلك ان هذه «الذيول» كانت لها ذيول أخرى بعد ثماني سنين – وهذا غير مستغرب . فكل شيء له ذيول وتكملة . وأرى انه ليس من فصل أخير او ختام إلاّ في الجهل او الموت .

في كانون الثاني من ١٩٧٣ دعاني الأمين العام الدائم للأكاديمية الأديب موريس جنفوا وقرينته الى غداء مع زوجتي في منزلها قرب المجمع العلمي ، لأنّني كنت مدعوًا بعد الظهر الى حفلة استقبال عضو جديد في الأكاديمي . ومن غرابة الأقدار انه كان استقبال الدوق دي كاستري مكان القس بوغنر المتوفى . فرحت أفكر

في هذا الكون الفاني اذ كان يطوف فوق رأسي طيفا رجلين عظيمين تسنّى لي ان ألتقيهما قبل سنوات : القس بوغنر والجنرال ديغول .

بعد الغداء شكرت السيد جنفوا والسيدة زوجته على حفاوتهما وأتيت على ذكر تلك الجلسة ، جلسة العمل ، التي اشتركت فيها قبل سنين ، وكان يرئسها القس بوغنر ، فتعجّب موريس جنفوا وقال :

– جلسة في الأكاديمي فرانسيز ؟ هل انت متأكّد؟ ام هي جلسة لجمعية اخرى من جمعيات المجمع العلمي ؟

رأيت ان لا ضرورة لافحام محدّثي وتبييني له خطأه بتذكيره بما جرى . فدسست في أدراج النسيان «مآثري القديمة» اذ بدأ النسيان يمحو معالمها .

ابتسمت وما أزال ، عندما أرى بين الأوراق والصور وقصاصات الصحف التي أمامي صورة لاستقبالي على عتبة الأكاديمي فرانسيز وقد خفّ لاستقبالي القس بوغنر والامين العام الدائم موريس جنفوا عينه . تفصيل آخر من بين التفاصيل ليس أكثر .

اما النقد ، اذا كان هناك من نقد ، فموجّه نحو رجال الدولة الذين يحاولون اضفاء حلة من الخلود على أحداث زائلة تافهة . وهي من باب باطل الأباطيل .

زيارة فرنسا كانت ناجحة مئة بالمئة

باريس في الثامن من نوار

انتهت الزيارة الرسمية ، وقد تبع الجلسة الثنائية مع ديغول ، اجتماع موسّع ، ضم أعضاء الوفدين حول طاولة ضخمة .

أظن انها المرة الأولى التي تجري في فرنسا مثل هذه المباحثات الرسمية حول العلاقات الودية بين العرب والفرنسيين. فالجنرال ديغول جاء على ذكر الرئيس عبد الناصر باهتمام وبشيء من التفهّم والاستلطاف .

في ما يتعلّق بلبنان ، كلام البيان المشترك واضح لا يقبل اي تأويل . وقد أشادت الصحف بالزيارة وقالت ان «نجاحها تام» . وقبل يوم ، كانت جريدة «لوموند» تقوّم الزيارة بقولها :

«ان هذا البلد الصغير (لبنان) القائم على توازن لا مثيل له بين مختلف الأُسر الروحية والأجناس العرقية ، يود ان يكون في آن معًا عضوًا فاعلاً في جامعة الدول العربية ، وهمزة وصل بين العرب والعالم الغربي .. لذلك كان طبيعيًا ، قبل زيارة باريس ، ان يعرّج الرئيس اللبناني على القاهرة للتحدّث الى عبد الناصر . وهذه الزيارة تزيده نفوذًا عندما يعرض – كما هي أمنية الحكومة الفرنسية – وجهة النظر العربية في مواضيع الساعة» .

أما البلاغ الرسمي فقد صيغ طبعًا بعبارات مألوفة تتعلّق «باحترام سلامة الدول وسيادتها واستقلالها» . ولكن ما أحفظه من ذلك بنوع خاص (وممثلي الرأي العام اللبناني والعربي) هو النص القائل ان «الجنرال ديغول قد أبدى في هذه المناسبة الاهتمام الذي يتتبّعون به في فرنسا تنفيذ مشروع الإنماء اللبناني الهادف الى رفع مستوى الحياة واستخدام الموارد الطبيعية ...

كان جليًا ان القصد من ذكر الموارد الطبيعية في هذا الظرف بالذات هو الإشارة الى مياه نهر الأردن وروافده . وبعبارة أخرى كان هناك تصريح رسمي فرنسي وديغولي ومفاده ان الأشغال اللبنانية على الروافد انما هي أشغال إنمائية وليست بعملية اعتداء تبرّر القيام بانتقام .

وكان من الصعب ان ننبّه بصراحة أكثر الأعداء والأصدقاء الى ان التفاهم الفرنسي – اللبناني انما كان يردّ على جميع المشاكل والتهديدات .

على صعيد آخر بدأت معلومات صحافية – وكانت تبدو يومها كأنها تنبؤ ومجازفة – تذكر ان فرنسا قد توقف تسليم الأسلحة لاسرائيل .

أخيرًا ، كما لو كانت تسعى الى الردّ على حملات صحافية مغرضة ، نشرت الوكالتان الرسميتان للأنباء في فرنسا ولبنان بيانين .

قال بيان الوكالة الوطنية للأنباء (اي الوكالة الرسمية اللبنانية) :

«نشرت جريدة لوموند الفرنسية نبأً نقلاً عن صحف لبنانية حول تسليم فرنسا صواريخ هجومية لاسرائيل . وقد وُصفت هذه الصواريخ بأنها السلاح الفصل في النزاع العربي – الاسرائيلي .

«اهتمّ اعضاء الوفد اللبناني (في باريس) بهذا الموضوع واتصلوا بسرعة بالمراجع الفرنسية المختصة .

«وقد أكّد لي ناطق لبناني رسمي بعد هذه الاتصالات بأن الخبر عار من الصحة جملةً وتفصيلاً . كما استغرب الناطق نشر مثل هذا النبأ ، الناجم عن مصدر مجهول ، إبّان زيارة الرئيس حلو باريس .

«وجدير بالذكر ان النبأ جاء في برقية لوكالة الصحافة الفرنسية على انه منشور «في كل الصحف اللبنانية» في حين انه لم ينشر إلاّ في جريدتين شريكتين تستقيان الأخبار من مصدر واحد .

«هذا الخطأ الذي وقعت فيه وكالة الصحافة الفرنسية قد أثار غيظ الحكومة اللبنانية واستياءها ابان قيام رئيس الدولة بزيارة رسمية لفرنسا في اجواء من الصداقة والود الكبيرين اللذين تجاوبت معهما الصحافة اللبنانية . وقد أعربت وزارة الاعلام امس الى مدير وكالة الصحافة الفرنسية في بيروت عن استيائها تجاه الخطأ الفادح الذي وقعت فيه الوكالة .

في الوقت ذاته ، نشرت وكالة الصحافة الفرنسية ما يلي :

باريس ٨ نوار (و.ص.ف) :

علمت مصادر مسؤولة في باريس بالأنباء المنشورة حول تسليم أسلحة هجومية فرنسية في الشرق الأوسط.

وقد أوضحت هذه المصادر موقفها ازاء ذلك بقولها انه «ليس صعبًا ان نتبيّن النيات الكامنة وراء مثل هذه الحملة. لقد كانت فرنسا وما زالت أكثر من أي وقت مضى حريصة على عدم القيام بأي تحرّك قد يشجّع عدوانًا او يشكّل خطرًا على السلام».

البعد العربي لصداقتنا مع فرنسا

كنا، فرنسيين ولبنانيين، قد عملنا ما باستطاعتنا من أجل خدمة مصالح فرنسا ولبنان والعالم العربي.

على الصعيد السياسي الفرنسي – اللبناني الفرنسي – العربي تكلّلت الزيارة بالنجاح الأكمل. حتى ان بعض الصحافيين اللبنانيين والعرب – المتسرّعين – عمدوا الى القول: «ان عبد الناصر سيستفيد من زيارته المقبلة الى يوغوسلافية للقيام بزيارة لباريس». وذكرت صحف أخرى إمكانية دعوة يوجّهها عبد الناصر لديغول.

– أقاويل؟ جس نبض؟ ما هم! المهم ان الرأي العام في الشرق العربي – وايضًا في الغرب – كان قد أينع فصار مؤهّلاً لتقبّل نبأ تقارب في المواقف بين البلدين ورئيسيهما.

على الصعيد الاقتصادي والتقني، ان مصالحنا ومصالح فرنسا متوافقة. وقد عمدت الحكومة الفرنسية الى تخطي النظم المالية السائدة في فرنسا ليتسنّى لنا ان نستعين بالمؤسسات وبالأجهزة الفرنسية. وكنا بحاجة الى هذا الاتفاق لاحياء مشروع الإنماء عندنا.

كنا بحاجة الى الاتفاق مع فرنسا لنتمكّن، على جميع الأصعدة الأخرى، من نيل مساعدة فرنسية أقوى وأجدى تجاه الأخطار المحيطة بنا. بالمقابل، كانت فرنسا ترى في لبنان المنفذ الأمثل لكثير من سلعها لأنّ السوق اللبنانية منفتحة على أسواق عديدة عربية وأجنبية.

وانضمت الى الارتياح الذي توصّلت إليه بتحقيق أهدافنا اللبنانية مشاعر شتى قد لا تنفع إلاّ التاريخ الصغير او «العنعنة»، غير اني أرمي بها في هذه الذكريات. منها الغداء في قصر لوزون حيث يحوم طيف الشاعر بودلير وقد رحت انا ومدير البوليس ننشد ابياتًا من ديوان بودلير «أزهار الشر». وكذلك السهرة في الأوبرا، حيث بدا لأكثر من ناظر، ان المشهد الحقيقي كان لا على المسرح بل في المقصورة الرئاسية حيث كنت والجنرال ديغول جنبًا الى جنب. وفي كل مكان حرارة الاستقبال. وكذلك «الارتجالات» المهيأة سلفًا باهتمام وتأنٍّ. حتى انني تمالكت في المدينة الجامعية من ردّ الخطيب الذي بدا كأنه يفتش عن كلماته في خطابه «المرتجل»، وكنت أكمل عنه الجمل. ذلك انه كان قدّم إلي نسخة من الخطاب الذي «ارتجله» في ما بعد، وقد حفظت قسمًا كبيرًا منه.

هي اعتبارات شخصية قد تكون تافهة ولكنها كامنة في حنايا الضمير ذلك ان عناوين الصحف العريضة قد احتلّت واجهة الحافظة.

أحد هذه العناوين وكان يتحدّث عن «إعادة الصداقة الفرنسية – اللبنانية الى الإطار العربي – الفرنسي الجديد» أعادني انا خمسة عشر عامًا الى الوراء، اي الى سنة ١٩٥١. كنت يومها وزيرًا للخارجية ورئيسًا للوفد اللبناني الى دورة الأمم المتحدة العادية في قصر شايو، بباريس. واني، بالاشتراك مع زملائي الستة الذين يمثّلون الدول العربية المستقلة في الأمم المتحدة، اثرت مسألة استقلال مراكش. وقد دافعنا عن الفكرة في منصة الجمعية العامة مما أثار اشمئزاز الكثيرين من أصدقائنا الفرنسيين.

كان لي مع وزير الخارجية الفرنسية روبر شومان حديث صريح. قلت له :

«عليكم ان تفكّروا ليس باستقلال مراكش وحسب، بل في استقلال تونس والجزائر ايضًا. فباستباقكم الزمان – وأحكامه مبرمة لا مناص منها – تربحون الوقت والأصدقاء. ان حركة التحرّر لا مفر منها وليس ما يمنع من ان تسهلوا ارتقاء سدة الحكم لأشخاص يتمتّعون بقاعدة شعبية كبرى، ويستطيعون ان يوقّعوا مع فرنسا، ضمن الكرامة والحرية، اتفاقات من شأنها ان تحترم وتنفَّذ وتؤمّن مصالح الطرفين معًا».

لم يتأثر محدّثي بحججي وشكا الي موقف الدول العربية تجاه فرنسا التي كانت قد أظهرت تفاهمًا وتعاطفًا معها في ما يخص المأساة الفلسطينية.

ثم قال لي الوزير الفرنسي هذه الكلمات التي غالبًا ما تعود الى ذهني خلال الخلافات والأزمات المتواصلة بين الحكومة الفرنسية ودول المغرب العربي. قال :

«أنتم تواجهون في بلادكم رأيًا عامًا واحدًا. أما انا فاني مضطر الى مجابهة تيارين».

كان يشير الى وضع الفرنسيين المقيمين في المغرب والى مشاعرهم ومصالحهم، وهي تستحق في نظره اهتمامًا، كما يستحق الاهتمام عينه الرأي العام الفرنسي المقيم في فرنسا.

* * *

شاءت الأقدار ان تكون أول إقامة لي في باريس ذات مدلول خاص. كان ذلك سنة ١٩٤٨ اثناء دورة الأمم المتحدة التي اهتمت بمسألة تقسيم فلسطين. وكانت الجامعة العربية قد طلبت الى لبنان ان يسعى الى تأسيس مكتب إعلامي في باريس. تساءل كبار المسؤولين عندنا هل باستطاعتهم إسناد هذه المهمة إلي وكنت آنذاك

وزيرًا مفوّضًا لدى الكرسي الرسولي، ودروسي أتممتها كلّها في لبنان، فلم يتسنَّ لي اذًا ان أزور فرنسا وأن يصير لي فيها اصدقاء ومعارف.

عدت الى بيروت لأخذ التعليمات والتوضيحات، ومنها انتقلت الى القاهرة لمقابلة المسؤولين في الجامعة العربية. كان علي ان أحدّد معهم فترة قيامي بالمهمة، وأهمية الوسائل المادية الموضوعة في تصرفي، كما كان علي أن أتسلّم الوثائق التي تمكّنني من عرض وجهة النظر العربية امام الرأي العام الفرنسي والعالمي. وعلى جميع الأصعدة لاقيت فوضى وعدم دقة.

كان علي أن أؤسّس المكتب «الذي أشاء» وبالرغم من هذه الفوضى وهذه المصاعب قرّرت أن أقوم بمهمتي كاملة. وفي وقت قصير، كنت قد أمّنت معاونين ذوي شأن اخترتهم من شتى البلدان العربية. واستعنت اولاً بزميل لبناني، هو محيي الدين النصولي، تاجر وصحافي، ثري ومثالي. فطلبت إليه ان يعمل الى جانبي معاونًا ومحاضرًا أو محاسبًا.

في غضون أسابيع كان مساعديّ قد تجهّزوا وبدأوا يطوفون في أروقة الأمم المتحدة وفي مكاتب المنظمات الدولية وفي قاعات الصحف الفرنسية. لم نطلب من أحد المستحيل. غير ان الممكن كان محدودًا للغاية : بعض معلومات ايجابية عن الموقف العربي، تعليقات شبه محايدة، وبين وقت وآخر مقال في صفحات الجرائد «الحرّة» اي الصفحات المخصّصة لمقالات القراء. كل ذلك في جهد متواصل. وفي كل يوم كنت أتبيّن مدى سطوة الصهيونية على وسائل الإعلام وعلى عقول العامة. كان علي من أجل القيام بمهمتي أن أكون في كل مكان، ان أشارك في مناقشات متباينة، وأن أجيب ليل نهار عن الأسئلة المطروحة علي بواسطة البريد والهاتف والبرق. كانت تأتيني الأسئلة من كل جهة، وأحيانًا من عواصم نائية، مما جعلني بفعل فرق التوقيت ان أظلّ جاهزًا أربعًا وعشرين ساعة على أربع وعشرين. ولما كان نشر مقالاتنا ضعيفًا، عمدنا الى الاستعاضة عن هذا النقص بإلقاء الشرح والتصاريح خلال لقاءات

وندوات وعشاءات ندعو إليها السياسيين والصحافيين والمندوبين لدى الأمم المتحدة. ولما كنت انا صاحب الدعوة الى هذه الحفلات صار البعض ينظر الي كأنني صاحب إمكانات وامتيازات أُحسَد عليها في حين كنت أعدّ الايام حتى آخر الدورة. انها النسبية في الرأي. تبًا لوضع رجل مرهق عملاً ومسؤولية، وهو الى ذلك محسود!

انتهت دورة الأمم المتحدة بمقرّرات خاصة بتقسيم فلسطين، وبمصير اللاجئين، وبنظام القدس، وقد أمست هذه المقررات مخاذل وخسائر بالنسبة الى البعثات العربية. ولكن تبقى الخسارة أقل فداحة من الانكسارات التي مُنيت بها الجيوش العربية في ساحة القتال. وفرنسا قد أدّت بالمناسبة دورًا أكثر تفهمًا بل أكثر إنسانية من معظم الدول.

من ناحيتي، قمت بواجبي على أحسن وجه وسافرت الى روما مرافقًا رئيس الحكومة رياض الصلح. كان الصلح لأسباب سياسية – داخلية وخارجية – يرغب في مقابلة الحبر الأعظم بيوس الثاني عشر، وكذلك في الاجتماع الى المسؤولين الايطاليين.

زيارتي الأولى لفرنسا

هذه الإقامة الأولى في فرنسا في قصر شايو وفي إطار صغير ذي طابع دولي. فكأني كنت في دولة اسمها «الأمم المتحدة» وليس في باريس. لم أجز لنفسي اية نزهة في العاصمة الفرنسية، مع ان الأسماء التي كنت أقرأها اثناء تنقّلي في السيارة – وهي أسماء الشوارع والصروح والقصور – قد أصابتني في الصميم. ذلك انني كنت أشعر بانني قد شاهدتها من قبل او اني أحسستها. كنت «أعرف» هذه الأشياء قبل رؤيتها وكنت أطوف في غابات من الرموز كما في أمكنة أليفة.

كانت موجباتي تجعلني في اتصال مستمر بالبعثات الأجنبية. ولكني كنت ايضًا

على اتصال – وان متقطع – مع شعب فرنسا. انه اتصال فريد من الأخوة والفتوة الدائمة بهذا الشعب. عنيت عامة الشعب لأن هذه الفئة كانت حتى الآن غريبة عني.

كان لبنان قد خرج منذ وقت قصير من تحت وطأة الانتداب الفرنسي وفي سنوات فتوتي وشبابي لم أعرف من فرنسا إلاّ الشخصيات الهامة، أشاهدها من بعيد إذ يفصلها عني الفرق الشاسع بين صلاحياتها الضخمة وامكاناتي الضعيفة.

انني الآن في باريس مندوب دولة مستقلة ورجل رسمي، يافع، يحمل معه نفقات إقامته بالعملة الصعبة. وعلي ليس فقط مخالطة الرسميين ولكن ايضًا الاحتكاك بفرنسيين من كل الطبقات، من كل المهن، صحفيين وفنيين ومحامين وأطباء وكذلك صغار الناس: العمّال والباعة وحراس البنايات وخدام الفنادق. فكانت العلاقات مع هؤلاء أكثر تأثيرًا وصعوبةً. اذ كان علي إعطاء الأوامر للخدم والمرؤوسين بطريقة واضحة وقاطعة. غير ان وضاعة مستوى الأفراد، كثيرًا ما تتوافق مع عظمة الجماعة. لم أكن ذا تعجرف مهما كبر او صغر بل كنت في نوع من تقدّم مستمر في المعرفة. ففرنسا ليست فقط دولة تصدّر المفوضين السامين، علي اذًا ان أتعوّدها كما هي. ومن أجل التفاهم مع الآخرين وافهامهم مآربي، علي ان أتخلّى عن اللغة الأدبية التي تعلمتها في المدرسة. دون التنكّر لعبقرية راسين او پاسكال، بل وجب عليَّ ان أفهم شيئًا واحدًا وهو: – في كل فنادق العالم – وفنادق فرنسا ايضًا – الخادم اسمه خادم والفرّاش فرّاش. فلا أحد من هؤلاء الحشم يعرف انك تناديه إن أنت لجأت الى تسميته بغير الاسم المصطلح عليه، فأن تسمي أحدهما «موسيو» لا يغيّر شيئًا في علاقتك به.

أخيرًا ان البخشيش تقليد متبع ومألوف ومتعارف عليه دوليًا!

الفصل السادس

في المدينة الخالدة مع
بيوس الثاني عشر، يوحنا الثالث والعشرين
وبولس السادس

ثياب اصبحت بيضاء كالثلج
البابا يكتب خطبه
بين «بنات نعش الكبرى» و «الرامي»
على صفحة منديل فيرونيكا

زيارة الڤاتيكان هي أولاً عربون خشوع

زيارة الڤاتيكان هي أولاً فعل إيمان وتأمُّل ؛ يستطيع فيها الزائر النظرَ إلى الناس والأشياء بعينٍ ملؤها الروح ؛ فيبدو عندئذٍ الحبرُ الأعظم متشحًا بنوره السماوي ؛ يتجلّى مشعًا.

هكذا بدا لي المونسنيور مونتيني ، الذي صار فيما بعد حبرًا أعظم باسم البابا بولس السادس ؛ والذي كانت لي معه – على مرٍّ أكثر من عامين (من سنة ١٩٤٧ الى سنة ١٩٤٩) ؛ علاقات لم أنسَ منها حتى الآن شيئًا ؛ وحرص هو أيضًا بدوره على ألاَّ ينساها .

لقد كان امينَ وزارة الدولة الڤاتيكانية ، وكنت أنا وزيرًا مفوضًا للحكومة اللبنانية لدى الكرسي الرسولي . ثم سمحت الفرصة ، فيما بعد ، أن التقي به عندما ارتقى السدّة البابوية ، اذ كنتُ عضوًا في الوفد الرسمي الذي مثّل لبنان في حفلات التتويج عام ١٩٦٣ . ولما صرت رئيسًا للجمهورية ، استقبلته في مطار بيروت في كانون الأول من عام ١٩٦٤ ، عندما حطّت طائرته برهة من الزمن ، قبل ان تتابع سفرها الى بومباي .

إلاَّ أن الاجتماع الذي خصّني به في العاشر من نوار من عام ١٩٦٥ ، والحفاوة التي تجلّت به ، أظهرَا ان الحبر الأعظم يستقبل رئيس دولة صديقة ، في قصر طالما اجتمعنا فيه مرارًا من قبلُ ، كلٌّ منا كانت له صفة أخرى تختلف عن صفته اليوم ، وفي ظروف مختلفة .

وفي هذا المكان الذي كنت أعرفه فيما مضى جيدًا ، بدا لي الآن ، كلّ شيء فيه جديد ومختلف ؛ فرحت أستعيد في ذاكرتي بعض آيات الانجيل ، وأردّد احداها :

«حتى ثيابه أضحت ناصعة كالثلج» .

استقبلني بولس السادس ببساطة ومحبة . وكان طبيعيًا ان يدور حديثنا على المسألة اللبنانية . فجدّد الحبر الأعظم دعمه لي ولبلادي . ثم ، بوصفه زعيمًا روحيًا ومرشدًا للنفوس ، اعطاني هذه النصيحة لأعمل بموجبها في اثناء إدارتي أمور الدولة ، قال :

«انما في الشكل بعض الجوهر» .

كأنما البابا شاء الإشارة الى انه لا يكفيني ان أتحلّى بالنية السليمة – وهو متأكّد من حسن نيتي – بل علي في اختيار الوسائل ، وفي احترام النظم والشرائع ، وفي المظاهر الخارجية وفي المثل الذي أعطيه ، ان أظل في مستوى المسؤولية الكبرى المُلقاة على كاهلي .

كم من مرة فكرت في ما بعد بهذه النصيحة – الحكمة ، اي يوم كنت أحاسب النفس اذ أسلّط على أعمالي وتصرفاتي نظرة المراقب المجرّد .

واليوم عندما أستعيد سني ولايتي الست ، اتساءل ما هي الأسباب الحقيقية التي جعلت الأمور تبدو للناظر أحيانًا بعكس ما أردتها؟ لا أقصي هنا الصعوبات الناتجة عن الأخطاء الممكنة ، وعن التردّد الصحيح او المزعوم . ولكن ، لم عدم التفهّم ولم كل هذه العداوة من قبل الأشخاص – حتى بعض المقرّبين والأصدقاء – حول تصرفاتي ونياتي؟ هل ذلك لأنني لم أشأ أن أجابه مطالب مستحيلة بـ«لا» قاطعة ومذلة؟ أم لأنني كنت أؤثّر لسان الدبلوماسية وهو لا يتناسب مع العادات والظروف ومقتضيات القيادة؟ او انني في مناسبات شتى لم أستطع ان أنفّذ مشاريعي حتى النهاية؟ او انني لم أستحسن تكذيب ما أسند الي من كلام لم أقله وبما نسب إلي من تدابير لم أتّخذها ، انما اكتفيت بالمصادقة عليها؟

تبًا لقدري ! فالإنسان ، مسؤول دائمًا بطريقة او بأخرى عن ما لا يعجب فيه ، وحتى عن الظلامة التي تلحق به او تلك التي يخيّل إليه انها تصيبه . انه قضاء سامٍ يعاقب بهذه الصورة ضعفه وهفواته .

لكنّه يستطيع ، إن كان يستحقّ ذلك ، أن يعتمد ، في يوم من الأيام ، على تعويضات ذات صدى كبير .

غالبًا ما أتساءل : لو أتيح لي أن أعود الى «ذلك» ، اي ان أرجع الى الماضي ، الى شهر ايلول من ١٩٦٤ ! ، لو استطاع سحر ساحر ان يمحو سني ولايتي وان لا يترك لي منها إلاّ الخبرة التي كسبتها ، ماذا تراني أفعله؟ اي خطأ اتفاداه؟ كم أرجو أن أتفادى جميع الأخطاء ! ولكن ، أليس وهمًا الظن بأن الانسان قد يتصرّف تصرّفًا آخر تجاه المعطيات عينها؟

أيًّا كانت أعماله وسيرته ، يجب على كل امرئ يستعيد ماضيه ان يطرح على نفسه في بعض الظروف التساؤلات نفسها . وما شكّنا او أسفنا إلاّ هرب من متطلبات الساعة . الأجدى بنا تحسين الحاضر وتجميله عوضًا عن البكاء على مناسبات ضاعت .

ومن يدري لعلّ لعبة القدر في استعاضة الفعل تجعل ما نعمله للمستقبل مسجّلاً في خانة المزايا التي تحسب على الماضي ايضًا؟

* * *

ولكن ، ها نحن في أيار من ١٩٦٥ . في الفاتيكان ، أثناء الاستقبال العام الذي تلا لقاءنا الثاني ، قال قداسة البابا :

«بشخصكم ، هوذا لبنان كله يأتي إلينا ...»

وأضاف بولس السادس :

«انها ذكريات قديمة وحديثة نستعيدها . فاننا لا نستطيع ان ننسى الصحافي

اللامع والدبلوماسي الفذّ الذي كان لنا بالأمس سرور تقديمه الى سلفنا قداسة البابا بيوس الثاني عشر ، كأول ممثل لوطنه لدى الكرسي الرسولي . . . »

وفي تأثّر بالغ ، كنت استمع الى البابا يتحدّث عن « طابع الود الذي امتازت به علاقاتنا ، وقد تخطّى حدود اللياقة والرسميات . . . »

البابا بولس السادس يقول لي : لك صديق في روما

هكذا تلطّف بولس السادس وكرّس جوَّ الألفة الذي شاع بيننا وفي أحاديثنا ، خلال زياراتي العديدة له ، قبل خمسة عشر عامًا تقريبًا .

بعد سنوات ، غداة انتهاء ولايتي الرئاسية ، أتيح لي مرارًا ان أقابل قداسة بولس السادس ، الذي كان يطيب له ان يشجّع طلباتي لمقابلته بقوله :

« ان لك في روما صديقًا » .

وقوله ايضًا :

« انك بالنسبة إلينا ، قبل ولايتك وبعدها وفي اثنائها ، ستبقى شارل حلو » .

قال لي أحدهم يومًا :

« ان البابا يحب استقبال الأشخاص الذين عرفهم قبل انتخابه حبرًا اعظم ! » – هل هذا صحيح؟ هل ان قداسته – كما نحن جميعًا – يكنّ حبًا خفيًا للماضي ، وللأشخاص الذين عايشهم وللمناسبات التي عاشها قبل وصوله الى القمة؟

انه شأننا في ان نؤثّر « القبل » على « البعد » وحتى على « الآن » ، وان نفضّل السبت على الأحد . أما البابا؟ !

مهما يكن فبالنسبة اليّ، أرى ان شوقي يتوق إلى تلك الفترة التي كنت أثناءها وزيرًا مفوّضًا لدى الكرسي الرسولي حيث كان كل شيء يبدو لي جديدًا في مدينة

خالدة أزلية ، وانني لا أتمالك عن استعادة ماضٍ يرجع الى حوالى خمسة وعشرين عامًا .

كان ذلك منذ ربع قرن وكأنه بالأمس القريب

انها أواخر سنة ١٩٤٦ . لبنان قد استعاد استقلاله منذ عام ١٩٤٣ ، أما جلاء القوات الأجنبية التي احتلّت أراضيه قد تمّ بضعة أسابيع قبل تعييني . وبدأت الدولة تختار وزراءها المفوضين (لم تكن بعد قد رفعت تمثيلها الدبلوماسي الى رتبة سفارات) في عالمي السياسة والمهن الحرة بانتظار تأسيس سلك موظفين اختصاصيين. وقد اتكلت على نشاط كل فرد من ممثليها وعلى طاقته وقدرته في الانسجام. وانا المحامي والصحافي الشاب شرفت بأن أُختار (كما لو انتُخِبت) لأرئس احدى أهم بعثاتنا وأعظمها شأنًا .وكأن ذلك بالأمس. لقد كان ذلك منذ ربع قرن .

في يوم صاقع ورمادي من شتاء ١٩٤٧ ، ها هي الطائرة التي تنقلنا الى روما – انا وأعضاء البعثة اللبنانية في اول مهمة دبلوماسية لنا واول سفر جوي – تسبح فوق الغيوم فلا تنتهي من اجتيازها . لقد أضعنا ثلاثة ايام في محطة القاهرة . والآن ها هي تتأخّر بضع ساعات عن موعدها . كان خوفنا عظيمًا . وقد حرصت من ناحيتي على تعلّم او استعادة كل ما يجب معرفته من أجل قيامي بوظيفتي الجديدة فقضيت أسابيع طويلة وسط دراسات لا تُحصى عن حاضرة الڤاتيكان ، والمجامع المسكونية ، وعلاقة الكنيسة بالدولة الايطالية وانصرفت الى مطالعة شتى كتب التاريخ والفن والسياحة .

ولكن ، كأول خطوة للبدء في معالجة المسائل التي تنتظرني ، كان علي بادئ ذي بدء ان أحط أرضًا . أخيرًا ، بدأت الطيارة تشق عباب الغيم والضباب . فظننت اننا وصلنا . ورحت أسرح النظر في بهاء الريف الروماني (وقد ألفته في مطالعة الصفحات العديدة عنه) عندما جاء القبطان وأعلمنا بأنه من أجل تجهيز الطائرة بالوقود وقبل متابعة السفر قد اضطر الى النزول في بلدة بيزا على بعد أربع مئة كيلومتر من روما .

– ان التأمّل في الريف الروماني ، من بيزا ، يُذكّرني بمطالعات جمة ومشاهد رائعة ، أو ربما بالكثير من البساطة ! ...

اعترف بأن الأمثولة لم تذهب سدًى .

رحلة بين الكواكب

هناك تجربة اخرى أصابتني بعد فترة فجعلتني في عصمة من كل ما هو سراب وخيال ، كما ذكرتني بأن المهمة – مهما سمت – لا تفقد عبودية الوظيفة .

كان ذلك غداة إرسالنا الحقيبة الدبلوماسية الأولى : حقيبة ملأى بالمعلومات ، والوثائق ، و...التأثّر . رحت أنتظر الردود التي لا بد ان تصدر عن مثل هذه المعطيات الخطيرة بل الافشاءات . وأتى الجواب في برقية عاجلة ، إذ أسرع أحد الموظفين الاداريين في الوزارة يقول لنا ما حرفيته :

« بريدكم وصل إلينا غير محكم الربط ، سيئ الختم. الرجاء الاهتمام بالتوضيب » .

ساعة وصلت البرقية ، جمعت معاوني لأقرأها عليهم . ثم قرأت عليهم صفحة من كتاب « أرض البشر » لسانتكزوبري . فيها يروي المؤلّف كيف انه في احدى الليالي ضاع في أرجاء القبة السماوية وضلّ الطريق بين النجوم التي كان يتوجّه نحوها ظنًّا منه ان أنوارها ضياء محطة الهبوط ، فراح ينتظر دون جدوى مساعدة من الأرض او علامة نافعة . وأخيرًا جاءته برقية فقرأها وراعه مضمونها :

« انك قمت بانعطاف قريب جدًا من المستودعات لدى إقلاعك من كازابلانكا لذا أراني مرغمًا على طلب عقوبة بحقك » .

ويعترف الطيار :

« أجل انني قمت بانعطاف ملاصق للمستودعات . وصحيح ان هذا الرجل يقوم

بواجبه حين يسخط . غير ان اللوم أدركنا حيث لم يجب له ان يدركنا . انه غير منسجم مع هذه النجوم النادرة . لقد أقلق حلمنا اذ كنّا نتنقّل بوقار من بنات نعش الكبرى الى الرامي ... »

قراءة هذه الصفحة كانت معزية ولا شك . غير ان الحقيبة الدبلوماسية التالية أُرسلت مُحكمة الختم والإقفال وبطريقة أكثر قانونية .

لن أصف المنظر الفريد الذي تطل فيه روما على ساحة لعلها أبهى ساحات الكون والتاريخ : معالم ، آثار ، معابد ، صروح ... كلها روائع منثورة في الشوارع كما في متاحف مكشوفة .

فوق محاسن الطبيعة والفن ، هناك قيمة العلاقات بين الكائنات ، وحرارتها . ذلك انه كما جاء في حكمة جميلة وصحيحة : « ان أروع مساحات الأرض هو مساحة الوجه البشري » . فالوجوه في روما بدت لي أليفة منذ البدء وذلك بفعل انسجام عفوي وتعاطف طبيعي . فكم من مرة ، وسط جمعٍ او عند منعطف طريق ، خيّل إلي انني ألتقي صديقًا قديمًا أو قريبًا فهممت لمصافحته . ولم يكن هذا إلاّ غريبًا باسمًا ، منفتحًا ، أخويًا . وبالرغم من ذيول الحرب النفسية والسياسية والاقتصادية ، فقد احتفظت روما بابتسامة شجاعة ومؤثّرة . وفي فترة قصيرة ، وجدتني ليس فقط مقيمًا في المدينة الخالدة ، بل بدا لي انها تحتضنني .

تقديم أوراق اعتمادي للبابا بيوس الثاني عشر في ١٧ آذار ١٩٤٧

في هذه الأجواء قدر لي ان أقابل قداسة البابا بيوس الثاني عشر لأقدّم إليه أوراق اعتمادي . في السابع عشر من آذار ١٩٤٧ .

بالإضافة الى أوراق الاعتماد ، شعرت بأنني مكلّف بأن أحمل معي الى الڤاتيكان بعضًا من روح بلادي ومن ماضيها المثقل روحانية : طراوة شواطئ صيدا وصور حيث

قدم السيد المسيح ، ذكرى بانياس التي تستعيد عند حدودنا الجنوبية قيصرية فيليبوس حيث أسّس ابن الله الحي بيعته (انت الصخرة...) .

غير انه كان علينا ان نضع علاقاتنا بالڤاتيكان في إطار أعمّ وأوسع .

ان بلدًا كبلدنا ، حيث التسامح والمحبة في العيش المشترك يشكّلان نوعًا ما الغاية الكبرى الواجبة الوجود ، ويضع الى ذلك مسبّبات عيشه على أسس من العدل والأخوة المعلنين رسميًا ، ان بلدًا كهذا هو ايضًا مثل عن وضعه للروحانية في المرتبة الأولى . وانه ليستطيع القول مع صاحب المزامير :

«آلهي ، نورك مالئ وجهي ، فيطلّ بذلك على العالم حاملاً رجاءً لا يطوله غشٌّ ، ورسالةً يسعى فيها الى نشر نفسية أنصع ، كما يسعى الى استتباب الحق ، الحق الذي لا أولوية إلاّ له» .

هذه الصفات التي نتحلّى بها وهذه المهمة التي أُلقيت على عاتقنا ، شاء بيوس الثاني عشر ان يدعمها بسلطانه المعنوي ويذكرها رسميًا في خطابه يوم استقبلني رسميًا اذ كان يستقبل لأول مرة في التاريخ دبلوماسيًا لبنانيًا .

قال البابا في خطابه :

«هذه هي أوّل مرة ، خلال التاريخ ، يُتاح فيها لحبر روماني أن يُحيّي هنا ابنًا من لبنان مدعوًّا لأن يمثّل رسميًا ، في مركز المسيحية ، هذا الوطن النبيل» .

وقال أيضًا :

«ان وطنكم ، في تعدّدية عناصره العرقية واللغوية ، يشبه ذاك النسر ذا الجناحين المشعين بألف لون الذي رآه النبي حزقيال محلّقًا فوق جبل لبنان (حزقيال (٣ – ١٧) وانه مدعو بموجب رسالة خاصة الى تحقيق هذه المجموعة الأخوية المحبة التي ذكرها النبي داوود (مزامير ١ – ١٣٢) ولو كان ذلك بواسطة مواطنين متباينين أصلاً وتفكيرًا» .

وقال أيضًا :

«فيما يتعلّق بالدور المعدّ لبلدكم ، يمكننا ، على ما نعتقد، أن نُشير، من جملة الأمور ، إلى ما يتّسم به من طابع مميّز. فالتلال والحقول المسطّحة التي يُغطّيها نبات وافر النمّو ومتنوعٍ وينخفض بها لبنان نحو البحر على شكل منحدر خفيف ، تعرض للفكر ، كما يلوح لنا ، صورة عن حضارته القديمة التي تتحدّر ، مع ما تحمله من ثمار نافعة ، إلى الجيل الحاضر منذ عهد الفينيقيّين البعيد والمزدهر ، مُظهرةً للتاريخ مَثَل شعب ، كان دائمًا ولا يزال حتى اليوم منفتحًا أبدًا على كل جديد سليم...» .

وجهًا لقداسته وقف الوزير المفوّض الشاب – انا – مستقيمًا في ثيابه الرسمية ، وقد يبس بسبب البروتوكول وبسبب تأثّره ، فاضطرب كما لو كان في حضرة ملك من الملائكة . وقد شعر بقلبه يذوب تحت سترته المنشاة كما انسابت نقاط حارة على وجهه لمّا سمع محدّثه الفذّ مضيفًا :

«حان الوقت لتتراجع الاعتبارات الحسابية العائدة الى مقياس القوة المادية ، وحان ان تحلّ مكانها القيم الروحية والأخلاقية التي ينحني الأقوياء أنفسهم أمامها . هذا ، اذا شئنا عتق الأمم من كابوس صراعات جديدة .

«وليس لغير هذه الدول المسماة صغيرة نفع في محو هذه العقلية .

«غير ان هذه الدول «الصغيرة» تستطيع أعمالاً مجيدة وتقدر ان تبيّن للملأ انها رائدة تقدّم صحيح ومشعّ» .

هكذا تكلّم الأب الأقدس بلهجة رئيس كهنة ونبيّ في آن معًا. ولما انتهى الاحتفال ، دعاني الى الاجتماع به في مكتبته الخاصة . وكان ينتظرني هناك مشهد غير عاديّ. فبعد أن وجد البابا ألطف التعابير ليُغدقها عليّ ، قال لي :

«أعطني ، اذا سمحت ، نص خطابك في نسخته الأخيرة التي ألقيتها الساعة» .

بهذه الطريقة أدرك قداسته أنني قد عدّلت جملة او جملتين في النص الذي

كنت أوصلته إليه قبل خمسة عشر يومًا . في الواقع ، كان عليّ أن أُكيِّفه مع ظروف الساعة التي ألقيته فيها . والحال ان هذه التعديلات ، والتنقيحات ، قد كتبتها باليد . فشوّهت مجمل النص المضروب بوضوح على الآلة الكاتبة والذي قضيت طويلاً في تحضيره . عندها شعرت بالارتباك . وأفضيت بذلك الى الأب الأقدس الذي قال لي :

« أنا أيضًا أدخلتُ على نصّي كثيرًا من التعديلات » . وبغية تشجيعي والتفريج عني ، ناولني ورقة مكتوبة كليًّا بيده مع شُطَب وتصحيحات .

فدُهشت ، والحالة هذه ، عندما رأيت أن البابا يكتب بنفسه خطبه ، حتى في مناسبة مثل تقديم أوراق اعتمادي .

كان ذلك ، فيما يخصّني ، بمثابة اكتشاف لنشاط البابا واهتمامه .

* * *

تقديمي أوراق اعتمادي فتح لي رسميًا ابواب الفاتيكان . أما كلمات البابا النبيلة فقد جعلتني أشعر بأنني أدخل بيت الاب في موكب بهي ، آتيًا من مكان سامٍ آخر حيث ينفح الروح .

وعن الدولة التي يرئسها قال بيوس الثاني عشر :

« انها نقطة صغيرة في الخرائط ولكنها في الميزان الروحي مثل اسمى . طاقتها الحربية معدومة ، أما طاقتها في خدمة السلام فلا تُقدّر » .

* * *

زياراتي للبابا بيوس الثاني عشر

وقد سنحت لي الفرص – بعد ذلك ؛ أن أرى البابا بيوس الثاني عشر كثيرًا ؛ في مقابلات خاصة أو مناسبات عامة . وكان التأثّر ذاته يأخذ مني – إن هذا الكائن النحيل ؛ الذي كان يُشَفُ من خلاله ملامح المسيح ؛ الذي هو نائبه على الأرض ؛ قد بدا لي متحركًا على حدود عالمَين : منظور وغير منظور . وكنت منذ تحدّثي إليه ؛ اشعر بأني قد انتقلت الى عالم مجهول .

في ختام زيارة قمنا بها لقداسة البابا بيوس الثاني عشر ، قال لي الأستاذ حميد فرنجيه ، وزير خارجيتنا في ذلك العهد :

« لقد كنت في حالة غير عاديَّة . صرتَ وكأنك شربت كأسًا من الشمبانيا » .

فأجبته :

« ذاك أنني أرى في البابا ليس فقط رئيس مئات الملايين من المؤمنين وأباهم ، ولا الحبر الأعظم الممتلئ عطفًا على لبنان ، بل الممثِّل للكلمة المتجسِّد والصورة المُنْعكِسة له » .

في ربيع ١٩٤٧ ، صحبت ، لمقابلة البابا ، الرئيس الحاج حسين العويني الذي قال لي :

« سأُلقي بنفسي أولى عبارات المجاملة ، باللغة الفرنسية ، ثم أتركك تترجم أجوبتي الأخرى تجنُّبًا لكل خطإٍ من قبلي » .

كان اذًا من مهمتي ومن حظِّي أن أُترجم للبابا أفكار وعواطف ذلك الرجل الطيِّب الحاج العويني .

لقد أدَّيت المهمة كمترجم بكل صدق وحرارة . وأعتقد أن ما نتج عن ذلك كان أبلغ تأثيرًا من خطابٍ ألقاه حاجّ من حجّاج مكة في نهاية زيارة لأقدس مكان في روما .

دولة التناقض الأكبر

وما انفكت التباينات تبهرني خلال زيارتي هذه الحاضرة، دولة التناقض الأكبر. فتساءلت:

أَوليس من سوء الطالع ان يفقد المرء، بفعل التطبع، مزية التعجّب، التي هي نقطة انطلاق لكل علم ومعرفة بل هي ايضًا نقطة الوصول؟ فالحقيقة تقضي بأن نجابهها، خارج إطار الأحكام المسبقة والروتينية، ببساطة ورزانة ودهشة الأطفال.

الڤاتيكان مملكة حيث الحقائق الملموسة عينها تدهش، وحيث تظل صعبة الفهم اذا حصرناها اعتباطيًا في مظهرها الخارجي وحسب. أي في شكلها الأقل ثباتًا. والأقل تأكيدًا. وبطريقة أخرى، الأقل واقعية في الواقع.

ان يكون موقع هذه المملكة عند المفترق الروحاني والزمني، فمثل آخر على هذه الحقيقة التي وصفها الشاعر شارل بيغي في بيتين خالدين:

«لأن المتسامي هو ايضًا حسي
وشجرة النعمة راسخة ...»

– الحق يُقال ان التسامي لا يستطيع ان يكون غائبًا عن أي مكان. فهو حاضر دائمًا وتحت كل متناول. ولكن، من أجل إدراك ذلك، علينا في كل لحظة، ان نرتفع فوق نظرتنا الخاطئة الى العالم، عالم الحوادث والظواهر التي خيل إلينا اننا نحن واضعو أسسها وقواعدها.

كل واحد منا ضعيف البصر، احسر، بفعل النظارات والعدسات التي يلجأ إليها ويستعملها.

يقول الحكيم:

«اغمض جفونك تبصر!».

غير ان هناك أمكنة لا حاجة فيها لمثل هذه النصيحة: الڤاتيكان حيث الرموز وتفسيرها مرتبطة ارتباطًا كليًّا، وحيث غير المرئي يتجلّى بعظمة فائقة في المرئيات. الڤاتيكان مملكة لا ضرورة فيها لإغماض الجفنين من أجل الرؤية.

* * *

في كاتدرائية القديس بطرس في رومة

الاحتفالات التي كانت تُقام في كنيسة القديس بطرس، هذه الاحتفالات الرائعة من أجل تطويب او إعلان قداسة، وقدر لي أن أحضرها، أراني اليوم أستعيد ذكراها وتلخيصها بواحدة. فقد وجدت ذلك في الكلمة التي سجّلتها بعد مقابلة قداسة البابا بيوس الثاني عشر، وكنت يومها أرافق الأستاذ كميل شمعون، الذي كان في ذلك الحين وزير المالية ورئيس الوفد اللبناني الى الأمم المتحدة.

إني أقتطف من مفكّراتي آنذاك هذه الرواية التي أنقلها بكاملها.

روما في ١٥ آب ١٩٤٧

«كان الأستاذ شمعون بروما في مطلع هذا الأسبوع. وقد قمنا معًا بالزيارات والمساعي المعيَّنة في البرنامج.

«وبالرغم مما انطوى عليه طلبنا من دراية شديدة، فقد تلطّف الأب الأقدس واستقبلنا بصفة استثنائية في كاستيل غندلفو، مقرّه الصيفي.

سأصف، فيما بعد، هذه الجولة الصباحية في الكَمْپانيا الرومانية (١٢٠ كلم بالساعة)، من خلال ذكريات ما زالت حيَّة مثل المناظر. وصلنا، كما تقتضي الأعراف، قبل الوقت بربع ساعة. وعلى الفور أُدْخلنا إلى قاعة الانتظار الأخيرة. وبينما نحن جالسان فيها تجاه باب المدخل المؤدّي الى غرفة عمل الأب الأقدس،

أخذنا نتبادل انطباعاتنا. كان الأستاذ شمعون قادمًا من لندن عن طريق باريس، وينوي السفر في الغد الى جنيف. ومنها يودّ العودة الى لبنان بعد توقُّف في باريس، ثم السفر الى الأمم المتحدة في أوائل أيلول. وقد حضرتني في هذه الساعة ذكرى قراءة ملاحظة في كتاب «الأمير الصغير» لسان اكزوبيري. فقلت للأستاذ شمعون: «كان «الأمير الصغير» يقول إنّه، كي يُحسن استعمال ساعة من الوقت، يُحب التقدُّم ببطء نحو عين ماء. إنّ مفهومًا كهذا للسعادة ولكيفية استعمال الوقت قد يكون لنا بمثابة مَثَل. فما من حركة تملأ الحياة أكثر من هذا الانتظار الساكن قبالة باب مغلق».

ثم انفتح الباب. وبعد لحظات كنا جالسين إزاء البابا، وجوابًا على ما أبداه الاستاذ شمعون من دلائل الاحترام وعرفان الجميل، عبّر قداسته تعبيرًا صار تقليديًا، عن عواطفه نحو لبنان، مضيفًا، وهو ينظر إليّ، أن لبنان «ممثَّل بكل جدارة، نعم بكل جدارة». ما كنت أتوقَّع منذ البدء هذا الكلام الصريح. فبقيت صامتًا تاركًا بالطبع للأستاذ شمعون المجال ليتابع مع الأب الأقدس حديثًا على جانب كبير من الأهمية: مميّزات لبنان، مصير الأمم المتحدة، دور بلدنا في العالم، شروط سلم حقيقيّ. (كل هذا القسم من المقابلة كان يجب، في الغد، أن يدوَّن في محضر مفصّل ويُرسل الى بيروت). ثم اتَّسمت المحادثة بطابع شخصيّ أكثر من قبل. وقد تدخَّلت لأقول إن جميع الآمال في السلم تكمن في تعليم قداسته وعمله. فالتفت الاب الأقدس إليّ وتكلمنا عنه. وطرح عليّ سؤالاً عن الاحتفالات باعلان القداسة. فأجبته بأنني لم أتغيّب عن أي منها. وسألني عمّا اذا كانت طويلة نوعًا ما وأضاف: «مع أن بعض أقسام منها قد تمّ اختصاره». فقلت إن هذه الاحتفالات لم تبدُ لي طويلة وإنها تتّسم بطابع مؤثِّر منذ دخول قداسته، الذي يحيُّونه بهتافات كأنها هدير بحر.

عند ذاك، تتابع بين البابا وبيني الحوار التالي؛ قال:

«لربّما يصفِّقون أكثر مما ينبغي بقليل»؛ قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة خجول لطيفة.

أجبت بصورة قاطعة: «لا يمكن أبدًا، أيها الاب الأقدس، أن يكون ذلك أكثر من اللازم. إنه لجميل إلى حدّ كبير».

وعاد البابا يقول مبتسمًا الابتسامة عينها:

«إننا لا نفعل شيئًا لتشجيع هذه المظاهر. بالعكس، لقد حاولوا مَنْعها. ولكن بدون فائدة...»

قلت:

«كيف يمكن، أيها الاب الأقدس، إلزام الجماهير الصمت والدبلوماسيون أنفسهم يُصفّقون بكل جوارحهم».

فأجاب البابا:

«ولكن ألا يكون الانطباع معاكسًا بالنسبة الى غير الكاثوليك؟»

فقلت مؤكّدًا:

— ان انطباع غير الكاثوليك يكون مماثلاً غالب الأحيان لانطباع الكاثوليك. فقد روى لي صديق موثوق به المراحل المختلفة التي مرَّ بها اهتداء أخت زوجته في أحد احتفالات التطويب. إذ تمكّن من أن يتتبّع، على وجه هذه المرأة غير الكاثوليكية، تدريج تأثُّراتها منذ دخول قداستك... وهي الآن تواظب على المناولة اليومية.

ابتسم البابا ابتسامة لطيفة للغاية وقال:

«إنني سعيد بذلك».

قال لي الأستاذ شمعون، فيما بعد، إنّ البابا كان في ذلك الوقت «وقد بدا عليه السرور وكانت عيناه مشرقتين وثغره باسمًا وجبينه متألِّقًا».

نِعْمَ الأمر!

وتابعتُ: «إنّ الاحتفالات بإعلان القداسة مؤثِّرة من أوّلها إلى آخرها. ولربما

تبلغ ذروتها في بعض نقاط منها. ذلك، مثلاً، عندما ترفع قداستك القربان فوق الرؤوس المنحنية، وتقدّم للمؤمنين، بحركة متماثلة كليًّا، السيد وممثّله المنظور. أو أيضًا، عندما تروح قداستك، وأنت جالس على العرش، تُعلن، بصفتك رئيس الكنيسة الجامعة، أن عضوًا من الأسرة الكبرى غدا قدّيسًا وأنّ بالإمكان أن يرفع فوق المذابح تعبُّدًا له.

«إن هذا التعبير عن وحدة الكنيسة لا مثيل له. وكلّ واحد يُدرك أنه ينتمي ليس فقط الى الكنيسة المجاهدة بل أيضًا إلى الكنيسة المتألّمة والكنيسة الظافرة. وهكذا نحسّ كأننا مرفعون بين السماء والأرض».

ولدى خروجنا من المقابلة، قال لي الأستاذ شمعون بمداعبة لطيفة:

«رأيتك تنتقل من حال الى حال تحت نظري، بينما كنت تتحدّث إلى البابا. لقد كان ذلك مشهدًا رائعًا حقًّا...»

هل من حاجة إلى القول إنّ الأستاذ شمعون كان راضيًا عن زيارته كل الرِّضى؟ وبعد مرور بضعة أسابيع، راح يستند إلى تلك المقابلة البابوية مذكرًا، من على منبر الأمم المتحدة، ما بذله الأب الأقدس من توجيه وأغدقه من حِكَم لقيام سلم مبنيّ على العدالة.

السيادة والصمت

حاضرة الڤاتيكان دولة ذات طابع خاص ولكن لها مميزات الدولة ومقوماتها جميعًا. انها أولاً الدلالة البيّنة على استقلال الكرسي الرسولي. كما انها القاعدة الحسية والمادية لسيادة البابا الروحية.

قد يتساءل المتزمّتون المتعلّقون بحرفية القانون الدولي وبنصه: ما هي السيادة الروحية؟

أحاديثي الأسبوعية مع من غدا بولس السادس

علاقاتي بأمانة دولة الڤاتيكان كان يسوسها ويهيمن عليها وجه المونسنيور مونتيني المشعّ المشرق. والمونسنيور مونتيني هو وكيل أمانة الدولة وأمين دائرة الشؤون العادية، وله صلاحية البتّ شخصيًا أو بواسطة معاونيه في مختلف الأمور التي قد تهمني. أما انا فكنت أشعر بنوع من فرح – فرح نفساني وغبطة روحانية – في معاطاتي مع هذا الرجل المشع لطفًا ونورًا.

وكيل أمانة الدولة يستقبل الدبلوماسيين المعتمدين لدى الڤاتيكان مرتين في الأسبوع: يوم الجمعة، وهو مخصَّص للسفراء، والسبت وهو للوزراء المفوّضين. وذلك دونما موعد سابق ودون تحديد ساعة للمقابلة. وفي القاعة المتاخمة لمكتب المونسنيور، كان الدبلوماسيون يجتمعون وينتظرون الدخول عليه حسب ترتيب وصولهم. المقابلات تبدأ بعد الساعة العاشرة، أما قبل ذلك، فكان مونتيني يجتمع الى قداسة البابا. وتتوالى المقابلات حتى ساعة متأخرة من بعد الظهر تمتدّ إلى الثالثة او الرابعة احيانًا، وفي اثنائها ينتقل الوكيل مع كل ضيف من بلد الى آخر ومن موضوع الى آخر مبديًا التفهّم ذاته والصبر عينه.

لم يكن الدبلوماسيون أنفسهم يتوافدون الجمعة والسبت من كل أسبوع، بعكسي انا اذ كنت أحرص على حضور جميع هذه اللقاءات حتى أمست مواظبتي دوامًا قد يحاكي الفضول. وباستثناء بعض ايام اضطررت فيها الى التغيّب عن روما بمهمات رسمية، فما أظنني تغيّبت يومًا عن هذه اللقاءات التي كنت أخرج منها وقلبي وروحي في بهجة وحبور.

بين صفات المونسنيور مونتيني المتعدّدة، صفة الدقة، ذلك ان المذكرات الصادرة عنه او عن معاونيه – وهم يعملون تحت إشرافه المباشر – كانت تبدو قطعًا من الفسيفساء. فلا حرف تستطيع حذفه او تبديله دونما المساس بالانسجام الكامل

للمعنى . وهذا أيضًا من بعض صفات حديثه العادي لدرجة ان التعابير كانت تفرض نفسها على المستمع كأنها فن قائم بذاته لا كأنها عفوية .

تسنّى لي بعد سنوات ان أذكّر قداسة البابا بولس السادس ببعض مناسبات ساعدني فيها الوكيل السابق في التعبير عن مشاعري وأماني بطريقة أكثر وضوحًا .

إليك مثلاً على بعض هذه «التصحيحات» المونتينية :

كان لبعثتنا مشكلة طفيفة مع الادارة الايطالية وقد تلكّأت الإدارة في معالجتها . وأخّر هذا التسويف نشاطنا بعض الشيء كما بدا لي بعضها أنه نوع من المساس بكرامتنا . أخيرًا أطلعت الوكيل الڤاتيكاني على الأمر . وبعد أن عرضت عليه المسألة قلت :

«لا أستطيع القول يا سيدي انني مُهان فقد يكون في التعبير بعض مبالغة ، كما لا أستطيع القول بأنني منزعج وحسب فقد لا يكون الكلام كافيًا ...» قاطعني المونسنيور مونتيني قائلاً : «بل أنت مكدّر» .

يوم استعدت بعض هذه الذكريات امام قداسة البابا بولس السادس ، بعد خمسة عشر عامًا ، ابتسم وقال :

«لقد قدر لنا ان نتتلمذ في مدرسة صارمة ، هي مدرسة سلفنا الصالح ...» .

واليوم ، بعد ربع قرن ، أستطيع البوح بحادث طريف كنت قد كتمته ، وذلك لكي لا أنتقص شيئًا من ذكريات هذه المقابلات الاسبوعية ، فأستميح زملائي القدماء عذرًا .

لما كان الدبلوماسيون ينتظرون طويلاً في الصالة المتاخمة لمكتب الوكيل ، كانوا ينصرفون احيانًا – الى جانب حوارهم ومحادثاتهم المفيدة – الى نوع من العبث البريء . فيسأل أحدهم الدبلوماسي الواصل ، والذي سينتظر طويلاً قبل الدخول على الوكيل ، ما اذا كان قد تناول غداءه . ومن أسبوع الى آخر كان السؤال نفسه يتردّد

على الألسن ويثير الابتسامة عينها . وفي ذات يوم وصل أحد زملائنا – وهو ضخم الجثة بدين – فسُئل هل تغدّى فأجاب : «طبعًا . بل انني تناولت افطارًا وافرًا» . ثم قعد على كرسي عريض وراح يشاركنا أطراف الحديث بشيء من تسام ، بل كأنه علينا شفيق . وبعد فترة توقّف عن الإدارة في الحديث وبدت عليه ملامح النعاس . وأخيرًا سمعناه يشخر . ثم استيقظ بغتة ، وبكل انفة ، استأذن وغادر المكان . وفي الأسبوع التالي ، كان اول الوافدين وراح يسأل من جاء بعده بابتسامة ما اذا كانوا قد تناولوا الغداء .

فالطريق السالك الوحيد في الڤاتيكان ، هو الصراط الضيق . وعلى الدبلوماسيين ان يجدّدوا دماثتهم وبشاشتهم مرحلة بعد أخرى .

* * *

شيوخ الدبلوماسية في الڤاتيكان

مجموعة الدبلوماسيين في حاضرة الڤاتيكان تشكّل أسرة كبيرة وبسيطة ، بدت لي عندما دخلتها في وجه بشوش ، انها مجموعة من رجال معظمهم في ذروة وظيفته . بعضهم بدا هرمًا في بزته او لباسه الرسمي أو أوسمته ولكن جميعهم ذوو مرونة ولين ، بل وكأن الخبرة والسنين قد صقلتهم صقلاً . أذكر هنا الثلاثة الأقدم عهدًا وقد كانوا في مناصبهم منذ أكثر من عشر سنين – أي ما قبل ١٩٣٧ – وهم سفير بولونيا السيد بابه ، وممثل الرئيس الاميركي روزفلت ثم ممثل الرئيس ترومان السيد تايلور ، ووزير بريطانيا المفوض السيد برسي اوسبورن . وقد تسنّى لهم ان يراقبوا من مركزهم هنا ايام الحرب والأيام المأسوية التي سبقت إعلانه ، أي عندما كان البابا يردّد لبولونيا ولألمانيا وللعالم بأسره :

«ان الخطر محدق ولكن الأوان لم يفت بعد. لا خسارة في السلام، أمّا في الحرب فكل الخسارة».

وأذكر زملاء آخرين. منهم سفير فرنسا جاك ماريتان هذا الفيلسوف الذي رضي ان «يدخل العصر» لفترة وجيزة. وخلفه فلاديمير دورمسون، المراقب النمر والحذر الذي كان يردّد ازاء بعض الظروف: «التروي لازب» وسفير النمسا السيد كوملروس الذي بقي في منصبه الڤاتيكاني من سنة ١٩٢٧ حتى الانشلوس (١٩٣٨) ثم عاد ليمثّل بلاده لدى الكرسي الرسولي بعد تحريرها. وممثل بريطانيا السيد بيرون خلف اوسبورن الذي كان يحضر كل الاحتفالات الدينية ويقول لي بظرف اثر بعض الاحتفالات الطويلة:

– على كل حال، هذا خير لنا من العمل مثلاً في أحد مناجم سيبيريا!

أذكر وزير مصر المفوض طاهر العمري الذي كان يطل علينا اثناء الاحتفالات الكبرى بلباسه وطربوشه. وقد أوفدته حكومته الى الڤاتيكان بعد ان مثّلها بضعة أشهر في جده. وان في الخيار والتوقيت لحكمة وعبرة! اذكر أخيرًا وزير الصين – صين ما قبل ماو تسي تونغ – السيد جان وو الذي كان قد اشترك في وضع دستور بلاده وفي ترجمة المزامير بمعاونة تشانغ كاي تشك.

جان وو الرجل العالم المحب امتاز بلسانه المعبّر. كان يقول لي مثلاً:

«إنني بحكمتك نشوان». كما يقول: «انني أشرب نخب صداقتنا التي تبدأ انطلاقتها من هذا العالم الزائل».

تعوّد وو ارتداء اللباس الصيني وقوامه جبة طويلة قاتمة اللون. ذات مساء قدّمت له في الفندق بعض مواطنيّ اللبنانيين الوافدين الى روما. فصافحهم وانصرف. وتابعت الحديث عنه وعن أسرته الضخمة وهي مؤلّفة من ثلاثة عشر ولدًا. فصُعق أحد اللبنانيين وسألني:

«عائلته؟ ١٣ ولدًا؟ من هو؟» أجبت: «انه سفير الصين».

قال:

«ويحي! أهذا الذي يرتدي الجبة السوداء سفير؟ لقد انحنيت امامه وقبّلت يده!»

لعلّ في هذا التصرّف مبالغة. والأغرب ما في الأمر ان صديقي الصيني لم يبد لي أي تعجّب. واني أتساءل عن الفكرة التي تكوّنت لديه بعد ذلك عن التقاليد اللبنانية والتربية عندنا.

أما المبادرة المؤثّرة والمعبّرة بل الأكثر تعبيرًا التي صدرت عن الهيئة الدبلوماسية في الڤاتيكان فكانت ولا شك في الاحتجاج الرسمي على محاكمة الكاردينال البولوني ميدزنتي وسجنه. ففي استقبال رسمي حاشد ضمّ جميع المعتمدين لدى الكرسي الرسولي حول قداسة البابا قام أحدنا وقرأ الاحتجاج الذي كنا قد اشتركنا جميعًا في صياغته.

في أثناء هذه القراءة، كنت أفكّر في ما يسمونه «الضمير العالمي». انه تعبير للواقع صحيح ولا شك ما دام هذا أحد مظاهره. بل انه تجسيد صحيح له مسعى ممثلي الدول لدى قداسة البابا باسم الحق.

* * *

جولة بين القرون

لا أعرف أن أسلخ ذكرياتي في الڤاتيكان عن ذكرياتي في روما. ذلك ان روما العلمانية وروما الدينية متداخلتان متلازمتان مختلطتان. فالمعابد الوثنية قد تألّقت كنائس. **والطرق الرومانية تؤدّي الى الدياميس.**

ان النزهة في روما – أكثر منها في أي مكان آخر – تشبه سفرًا في الزمان ودلجًا في أرجاء العصور الغابرة. كنت أراني أسير فوق رجمة من المدن الدفينة، والمطامح الزائلة والأمجاد الغابرة. أو لسنا ندوس بأرجلنا الأحلام عينها التي تكمن فينا، والأهواء نفسها، ونحن غافلون؟

في أثناء تنقّلي بأرجاء روما، كان يلازمني بيت من الشعر الفرنسي، وقد تحكّم بعقلي، وتسلّط على حافظتي. هذه ترجمته:

«تطأ الثرى حيث توارى التكبّر الروماني».

ولكن، بينما تدوس غبار الأجيال، لِمَ لا تتطلّع بأمل نحو القبب المشرفة على المدينة؟ لأنه بالرغم من المظاهر، وفي خضم تنازع الماضي والحاضر، فإن المستقبل لمشرق.

اذا كانت هناك احتياطات مستمرة ودائمة لإظهار استقلالية حاضرة الڤاتيكان عن الدولة الايطالية، فذلك لا يمنع من القول ان الحياة العامة في ايطاليا، وفي روما خصوصًا، متأثّرة الى حدّ بعيد بعامل متاخمة الڤاتيكان. فغداة الحرب الكونية الأخيرة مثلاً، يوم سقطت القيم السياسية جميعًا، ظلّت هالة الكنيسة وتعاليمها ملجأً أمينًا.

الانتخابات الايطالية سنة ١٩٤٨

تسنّى لي أن أحضر اول انتخابات نيابية ايطالية، بعد الحرب، أي في الثامن عشر من نيسان ١٩٤٨. وعلى كون المعركة انتخابية سياسية، فقد اتّسمت بطابع خلقي. بدا فوز الشيوعيين ممكنًا، بكل ما يشكّل ذلك من نتائج وذيول لا تقدّر بالنسبة الى ايطاليا، والى الڤاتيكان، والى مئات ملايين البشر في أوروبا وفي العالم. ولم تستر الصحافة الشيوعية غاياتها ومآربها في حال نجاح الحزب. وكأن الحياة كلها

توقّفت في انتظار هذه النتائج حتى ان الذي كان ينوي سفرًا او تبديل مسكن او إبرام اتفاق تجاري او ينوي زواجًا راح ينتظر قائلاً: «سنرى بعد الثامن عشر من نيسان». وكنت تسمع على كل لسان: «Dopo il diciotto» (اي بعد الثامن عشر).

وكان ذلك الثامن عشر من نيسان واقعًا بعد اسبوعين من عيد الفصح. فطوال الصوم، تركّزت المواعظ في الكنائس على ضرورة إتمام الواجب الوطني، حتى انني عندما رأيت هذه الجماهير الغفيرة التي احتشدت في الكنائس، حتى الأبواب الخارجية، وملأت الساحات للاستماع الى الوعظ، لم أشك لحظة في نتائج الاقتراع. وقد ذهب الواعظون الى القول ان كل تلكؤ او كسل او تمنّع يوم الانتخاب يكون خطأً فادحًا بل خطيئة. وحياتي، لن أنسى مشاهد الثامن عشر والتاسع عشر من نيسان ١٩٤٨. فالذين اقترعوا في البدء وضعوا إمكاناتهم من أجل مساعدة الآخرين على الوصول الى صناديق الاقتراع. وقد تهافت الشيوخ والمرضى، والمعاقون، بعضهم على العصي، والبعض الآخر محمّل او في عربات نقل. هبّوا جميعًا، الأصحاء وذوو العاهات ليشجّعوا الفاترين ويحثّوا الحائرين. فجاءت نسبة المقترعين ساحقة كما النصر. لأنها كانت اندفاعًا عظيمًا شبيهًا بمد بحري أطاح بكل ما اعترض طريقه.

أما تأثير الحبر الأعظم في ذلك فكان نفسيًا أو قل لغاية روحانية. غير انه ساهم في إعطاء المجلس النيابي، والبلاد، وربما أوروبا بأسرها، شكلاً سياسيًا خلوقًا.

هذه الأحداث تعود الى زمان بعيد ولا شك، غير اني اذ أصفها كما عايشتها، لا أراني جديرًا بتحديد تطوّراتها اللاحقة. ولكن الذي أرجوه – وذلك الرجاء ليس لايطاليا وحسب بل لكل البلاد بما فيها وطني لبنان – هو ان تدخل القيم الخلقية والانسانية التي يمثّلها الكرسي الرسولي الى كل الضمائر، كما النظم الوطنية والدولية.

في الميدان الاجتماعي مثلاً، تبدو تعاليم الكنيسة – وقوامها عدالة متكاملة يسودها الاخاء الصحيح والمحبة – كخميرة ثورة مستمرة منذ عشرين قرنًا، بعيدًا عن العنف.

وكذلك في علاقاتها مع الدول ، فقد سعت تعاليم الكرسي الرسولي وجهوده على مرّ الأجيال الى محاربة شريعة القوة بقوة الشرائع .

الكرسي الرسولي والمأساة الفلسطينية

قلت في كلامي على الانتخابات النيابية الايطالية ان تدخّل الڤاتيكان انحصر في الميدان الروحي ، واني أستطيع قول الكلام عينه على صعيد آخر ، دولي ، ألا وهو موضوع المأساة الفلسطينية التي جرت فصولها الأولى اثناء وجودي في الڤاتيكان اي من سنة ١٩٤٧ الى سنة ١٩٤٩ .

فمنذ البدء حرص الكرسي الرسولي – وهو الذي لا يستطيع الخوض في أي معركة – على الالتزام بالمواقف التي تمليها مبادئ المحبة والعدل فهو الذي أعطى خير أمثولة في إغاثة اللاجئين ، وهو الذي طالب بقانون خاص يقي القدس شر العنف . وهو الذي ما برح يطالب بوجوب إحلال سلام عادل قائم على احترام الحق .

في كانون الأول ١٩٤٨ – بعد انتهاء جلسات الجمعية العامة للأمم المتحدة التي ادّعت معالجة ذيول بدء الصراع في فلسطين ، رافقت الى روما رجلاً كان واثقًا تمامًا بعدم فعالية المقرّرات . انه رياض الصلح ، رئيس وزرائنا ورئيس الوفد اللبناني الى الأمم المتحدة (في قصر شايو بباريس) ، وأحد الزعماء العرب الأكثر نفوذًا وشأنًا .

استقبلنا قداسة البابا بيوس الثاني عشر بكل ترحاب وطرح علينا أسئلة دقيقة حول الوضع في لبنان ، وفي الشرق ، وحول اجتماعات الأمم المتحدة . وفي سياق حديثه على أعمال الجمعية العامة – التي بدت بعض مقرّراتها كانتصار عربي بل كانتصار شخصي له – قال رياض الصلح بابتسامة المرتاب : «في النتيجة ، اننا لم نتوصّل الى شيء !» . فهذا التصريح العفوي ، المتواضع والصريح الذي يكشف عن بعد نظر كبير ، سبغ على المقابلة جوًّا من الصراحة انقلب بسرعة الى صداقة وألفة .

انتهت مهمتي لدى الڤاتيكان في أواخر عام ١٩٤٩ اذ غادرت روما الى بيروت لأتسلّم حقيبتي العدل والاعلام (الأنباء يومها) في حكومة ائتلافية . غير ان حنيني ظلّ يشدّني الى روما . وبقيت أعود إليها أحيانًا . ولكن أقل بكثير مما كنت أودّ .

ثم تسنّى لي أن أمثّل لبنان لدى الڤاتيكان في مناسبتين كبيرتين . الاحتفالات بتتويج قداسة البابا يوحنا الثالث والعشرين ، والاحتفالات بتتويج قداسة البابا بولس السادس .

الكردينال رونكالي يصبح يوحنا الثالث والعشرين

انتخاب الكاردينال رونكالي حبرًا أعظم لم يستغربه إلاّ الذين جهلوه . فقد أُتيح لنا نحن اللبنانيين ان نتعرّف إليه في ديارنا وان نؤخذ به ونحبه . استقبلناه قبيل الحرب بوصفه مفوضًا رسوليًا لاستنبول في المؤتمر القرباني سنة ١٩٣٩ . كما انه رئس بوصفه موفدًا رسوليًا المؤتمر المريمي عام ١٩٥٤ . وكان هو يستعيد أولى زياراته لبيروت يوم كان شابًا فتيًّا ، في طريقه الى الحج ، الى القدس ، سنة ١٩٠٦ .

عندما رأيت للمرة الأولى «على الكرسي النقّال» شخص يوحنا الثالث والعشرين ، أحسستُ ببعض الانزعاج وبشعور من الخيبة . فقد كان خليفة للبابا بيوس الثاني عشر والرؤية التي كنت قد كوّنتها عنه خلال سنوات هي على طرفي نقيض .

ولكن حين سمعت يوحنا الثالث والعشرين ، بعد أن حملوه حتى كاتدرائية القديس بطرس ، يلقي عظته ، بدا لي كلّ شيء متغيّرًا . قال الأب الأقدس :

«كلٌّ واحد يتصوّر البابا على طريقته . هذا يريده أن يكون قبل كلّ شيء عالمًا ، وذاك يريده خطيبًا أو دبلوماسيًّا . غير أن البابا هو أولاً الراعي الصالح الذي يبذل حياته عن خرافه» .

ولدى سماعي يوحنا الثالث والعشرين يبذل هكذا حياته أو يُعيد بذلها في خدمة الآخرين، بمثل هذه البساطة وبمثل هذا التواضع، أحدث فيَّ ذلك تحوُّلاً عميقاً. فقد اهتديتُ إلى هذا الرجل، إلى هذا البابا، إلى هذا الراعي الصالح.

وأضاف أيضًا، فيما هو ينظر الى الكرادلة: «أنا هو جوزف أخوكم...»

لكنني ما عُدْتُ أسمعه. لقد فهمت. إن الكنيسة لمستمرَّة.

قُدِّر لي بعد سنتين ان أقابل قداسته. كان ذلك غداة محاولة انقلاب غريبة وفاشلة، بدا من خلالها وجه العداء الخارجي لبلادنا. فكلفت بحشد صداقاتنا الخارجية وباحاطة الضمير العالمي علمًا بهذا العدوان السافر. وفكّرت أنه من الضروري ان أتوجّه أولاً الى قداسة البابا. فطلبت موعدًا لمقابلته بالرغم من معارضة بعض مستشاري. وقد راح يتساءل هؤلاء ماذا يستطيع الكرسي الرسولي فعله في مثل هذه الظروف، وأليس من الأفضل ان نجنّبه الولوج في مثل هذه المصاعب؟

أثناء توجّهي الى المقابلة دارت في خلدي هذه الاعتبارات والمخاوف جميعًا فأدركتني الحيرة. غير ان البابا طمأنني بابتسامةٍ وكلمة! قال:

– «كنت أنتظرك»

وأضاف:

«لقد درست مع الكاردينال الأمين العام جميع إمكانات مساعدتكم».

ثم طرح علي أسئلة تنمّ ليس عن محبة قداسته الكبرى لوطني وحسب بل عن إرادته ايضًا في ترجمة هذه المحبة أفعالاً بيّنة. وقبل انتهاء المقابلة، أتى على ذكر زيارته للبنان سنة ١٩٥٤ عندما كان يرئس المؤتمر المريمي.

لدى وصوله الى بيروت يومها، عرض عليه برنامج إقامته. وهذا البرنامج، كما لم يخف على أحد، كان مبعثًا لمشاكل بروتوكولية مع زعماء الطوائف اللبنانية

الكاثوليكية، ولا سيّما مع البطريرك الماروني. منها: أيّها سيتوجّه لزيارة الآخر، الكاردينال الموفد من قبل روما، ام البطريرك؟.

لم يُظهر الكاردينال رونكالي لمحدّثيه انه قد فقه مخاوفهم بل راح يدرس تفاصيل البرنامج حتى وجد اول سانحة، فسأل:

– ما المقرّر لهذه الفترة؟

أجابوه: لا شيء. انها فترة استراحة.

قال: اذًا سنشغلها.

وبعد أن حدّق في الحاضرين، قال: سنزور في اثنائها غبطة البطريرك الماروني.

راح الكاردينال السابق – اي البابا يوحنا الثالث والعشرون – يستعيد أمامي هذه الذكريات بسرور ظاهر. وأضاف:

«شعرت عندئذٍ ان أوراق الأشجار من حولي قد ارتعشت فرحًا».

أما انا فقد لاحظت في ابتسامة قداسته شيئًا من عبث زال بسرعة، لتحلّ مكانه هالة من محبة.

أتى انتخاب البابا بولس السادس وارتقاؤه الكرسي الرسولي عام ١٩٦٣، تكريسًا لما كان منتظرًا ومقدّرًا من زمان. وكنت أحد الذين تعوّدوا ان يروا في المونسنيور مونتيني الخلف الآتي وبابا الغد. ولكن يوم تحقّق ذلك تكدّست بغتة في حافظتي ذكريات قديمة وصور جديدة. ان الأب والقائد الذي كنا نشاهده امامنا في احتفالات التتويج هو حقًا الرائد الذي عرفناه سابقًا. غير أننا كنا في حضرته كالباهتين.

بولس السادس ولبنان

في السنة التالية وقد انتُخبت رئيسًا للجمهورية استقبلت في مطار بيروت الغاص بالجماهير، قداسة البابا بولس السادس في طريقه الى بومباي.

كان ذلك في الثاني من كانون الأول ١٩٦٤. وقد قلت للبابا النازل إلينا من السماء كالبركة والأمل، باسم المسيحيين والمسلمين الملتقين في تقدير واحد للزائر السامي، «هوذا صبح التلاقي بيننا وبين قداسة البابا عينه، والاتحاد المباشر، والغبطة العامة».

ألقى البابا السلام وشكر وبارك كل الذين أتوا لاستقباله. ووجّه كلمة صغيرة جاء فيها:

«انه يبارك لبنان بأسره وهو الذي بفضل تاريخه وحضارته وطبيعة شعبه المسالم، قد استحق احترام الجميع وصداقتهم».

وهناك وصف بليغ لذاك اليوم، جاء على لسان شاهد كان على متن الطائرة البابوية وقد وصف انطلاقة الطائرة بعد محطة بيروت في خبر لوكالة الصحافة الفرنسية:

«بعد التوقّف في مطار بيروت انطلقت طائرة «تانغا باراباء» في رحلتها الى بومباي. بدا البابا مشرقًا: ان استقبال اللبنانيين له – مسيحيين ومسلمين – قد أنسى قداسته بعض مشاعر السخط التي أُثيرت في الشرق الأوسط بعد ان وافق المجمع المقدس على التصريح المتعلّق بعلاقات الكنيسة بالأديان الأخرى».

واذا كان بولس السادس لدى مغادرته بيروت مشرقًا في أواخر سنة ١٩٦٤ فكنت انا بدوري في روما في شهر أيار هذا من عام ١٩٦٥، أحملُ، حسب تعبيره، «كلَّ لبنان معي». إن ما سعيت إليه، لم يكن تتويج رحلة سياحية هامَّة فحسب، بل أيضًا وعلى الأخص مؤازرة روحية وزمنية قيِّمة ودائمة.

ولم أنفكّ ألتمس عطف وعناية الأب الأقدس خلال السنوات التي تلت، متوجِّهًا إليه بواسطة سفيرنا لدى الكرسي الرسولي أو بواسطة السفير البابوي في بيروت. فلم يُرَدَّ أيُّ طلب من طلباتي، المبنيَّة جميعها في كلّ حال على العدالة والمحبة. وفي كثير من الحالات، كان جواب بولس السادس يتخطّى كل آمالي.

إن أحد سفرائنا لدى الكرسي الرسولي يذكر بالطبع كيف ان مذكِّرة، اقترحتُها في عهد ولايتي ورفعها إلى قداسة بولس السادس، أسفرت عن نتيجة رائعة. فقد سلَّمها البابا بنفسه للرئيس نيكسون دون أن يوضح عمّا إذا كانت مقدَّمة منه أو منِّي. وهكذا تبنَّى قداسته تمامًا وجهة نظرنا وطلبنا.

وقبل كل شيء كان لقاء أيار ١٩٦٥ بالنسبة إليّ مليئًا بالنِّعم، فعدت الى لبنان بطريق الجو وشعرت بالدفء يغمر كياني.

اليوم، عندما أستعيد ذكرياتي الرومانية وعلاقاتي الحاضرة بالكرسي الرسولي لا يهمني كثيرًا ان تكون بعض تعابير الصداقة قد أمست مستغربة وشبه مضحكة. وذلك بفعل التطورات التي حصلت في الكنيسة والمجتمع، لأن في الفاتيكان المجرد من معظم حلله والذي أمسى بسيطًا مبسطًا حتى العراء، يبقى رجل، يثير في مشاعري فعل هذا البيت للشاعر الفرنسي كلوديل:

«لن تستطيع محو ذات صورة من قلبك
إن هي إلّا الصورة المطبوعة على صفحة منديل فيرونيكا».

– إن لم تكن تلك الصورة المطبوعة على منديل القديسة فيرونيكا صورة البابا، فهي على كل حال مرآتها، مرآتها الصادقة. والصورة كلها روحانية، تذهب بك كل مذهب.

كما لا أود الايهام بأن مشاكلي الخاصة قد حجبت عني يومًا المصاعب الضخمة التي تتعرّض لها الكنيسة، او رئيسها. ان هذه المشاكل تطولنا جميعًا، في قلب روما وخارجها.

لكنني من الذين يؤمنون بأن ملكوت الله ليس مسألة مساومة وان حلوله لا يستطاع التعبير عنه بلغة الاحصاءات . انه أولاً ارتقاء للانسان وسمو ، بل انسياق البر إليه انسياق النسغ في الشجر . في هذا الإطار هناك انشقاقات كثيرة كامنة خارج الكنيسة ، التي هي – وضروري ان تظل – موطن القداسة لا الأرقام العددية .

تلك هي ، وتلك تبقى ، الحدود الحقيقية والخطوط الفاصلة للملكوت الذي أُنشئ يومًا عندنا في بانياس – قيصرية فيليبوس ...

الفصل السابع

صيف المنعطف

الانتخابات الفرعية في زحلة وجبيل
مخطّط الإنماء
الإعداد للإصلاح الإداري
استقالة حكومة العويني

مشكلات داخلية ، انتخابات فرعية

بيروت ١٢ ايار ١٩٦٥

جماهير غفيرة ملأت جانبي المدرج وغصّ بها بناء المطار وشوارع بيروت وضواحيها وقد عمّها الحماس وذهب بها نوع من الهزج . أمام عيني الآن صور وصحف حفظتها من ذاك اليوم . انها شبه اسطورية وقد فاقت كل مألوف . إني أعود من زيارتي لأماكن تُعتبر بالنسبة الى مختلف الفئات اللبنانية ، نوعًا من أماكن مقدسة ، قد أدركت مشاعر معظم المواطنين ، بل غاصت الى أعماق قلوبهم . وصرتُ طوال ساعات وايام وأسابيع أشعر بإجماع سعيد حولي ، إجماع فيه طرب خافق ، ولكنه عطب ومهدّد .

لدى عودتي ، صدر تصريح رسمي يقول انني لا أنوي التفرّد بهذه الزيارات ، وانني مستعد للاستجابة الى دعوات اخرى . وقد بيّنت الصحف ووسائل الإعلام الأخرى ان الخطب والبلاغات الرسمية والبيانات جميعًا قد وُضعت في صيغة تؤكّد انفتاحنا على العالم أجمع .

واستشهدت احدى الصحف بتصاريحي عن الصراعات الغربية في شرقنا وقولي الشهير – منذ كنت اعمل في الصحافة – الذي مفاده ان ليس هناك مسألة شرقية بل «مسألة غربية في الشرق» .

أمّا الأحداث فقد أتت خيرًا من التعليقات لتسبغ على جهودي حلّة النجاح.

تمّ إبرام الاتفاق بين لبنان والسوق الأوروبية المشتركة. وقد أصبحنا أول دولة في الشرق الأوسط تنعم بامتياز «الدول المستفيدة».

كما ان هناك أحداثًا أخرى تبرّر بحثنا الدائم عن وسائل دفاعية جديدة. ففي الثالث عشر من ايار، أي غداة عودتي، فتح الاسرائيليون النار للمرة الثانية على مركز الأشغال السوري الرامي الى تحويل نهر الأردن واستثمار مياهه. وقد أنزلت المدفعية والمصفحات خسائر فادحة بالرجال والعتاد، وذلك دون ان تحاول القيادة العربية الموحّدة ردًا. في اليوم عينه، نشرت جريدة «يهودوت أحرونوت» خبرًا مفاده ان رئيس الحكومة الاسرائيلية ليفي أشكول قد أرسل قبيل سفري الى باريس كتابًا الى الجنرال ديغول يشرح له فيه موقف بلاده بشأن مسألة مياه الأردن. وقد أتى ردّ ديغول بواسطة سفير اسرائيل في باريس. ما فحوى جواب ديغول؟ ان الجواب بسيط ويمكنك فهمه بإعادة قراءة خطبه وبلاغنا المشترك بشأن مشاريع الري والازدهار عندنا.

غير ان المشاكل المطروحة في الخارج هي في غاية الدقة، إلاّ أنّها لا تثير اهتمام فئة من اللبنانيين أكثر من الانتخابات النيابية الفرعية التي ستجرى قريبًا في زحلة اثر وفاة النائب جورج هراوي. فالنائب المتوفى عضو في كتلة السيد جوزف سكاف وطبيعي ان يكون بين مرشحي آل هراوي – فالانتخابات ما زالت ترتدي طابعًا عائليًا – مرشح أكثر حظًّا من سواه وأوفره، وهو المرشّح الذي يدعمه السيد جوزف سكاف.

غير ان خصوم السيد سكاف لا يعترفون بهذا المنطق ويتّهمون سلفي – فؤاد شهاب – بدعم محاربة سكاف ومرشحه. في هذه الظروف العصيبة التي يمرّ بها لبنان، سعيت جاهدًا مخلصًا الى التخفيف من حدّة المعركة بواسطة سلسلة من الاتفاقات والتنازلات.

شجّعت السيد جوزف سكاف على تبنّي طبيب من آل الهراوي مقرّب إليه. ذلك ان نفسيته الفذّة وتسامحه ومهنته الإنسانية تجعل منه رجلاً محبًا وليس مرشح تحدّ. وفي الوقت نفسه، قمت، سعيًا الى التوازن والتهدئة، بتغييرات إدارية، منها نقل الأستاذ الياس سركيس الى منصب مدير غرفة رئاسة الجمهورية التي تولّى إدارتها طيلة سنوات قبل انتخابي للرئاسة، وكنت قد قوّمت وقدّرت جهوده الفعّالة اثناء مؤتمري الاسكندرية والقاهرة، ونقل السيد نصري سلهب من منصب محافظ البقاع الى إدارة الجمارك.

كنت أوظّف علاقاتي بالرئيس شهاب للحصول على آرائه وتعاونه في مواجهة مخطّطات وتقارير الفريق علي علي عامر الذي كنا نلقّبه اثناء أحاديثنا في التلفون بلقب «الادجوان».

الرئيس فؤاد شهاب كان ذا سطوة وهيمنة على كبار ضباط الجيش وصغارهم – وقد أمسوا اليوم متقاعدين بدورهم – ورأيت انه ينبغي عدم التخلّي عن اي عنصر مفيد من أجل تأمين السلامة الوطنية في الداخل والخارج.

في هذا الجو من التعاون بيني وبين سلفي، كان علي يومها ان اختار قائدًا جديدًا للجيش. تجدر الإشارة هنا الى ان الدستور اللبناني، خلافًا للدستور الفرنسي، لا يجعل رئيس الجمهورية القائد الأعلى للجيش، بل هناك قانون يضع الجيش تحت تصرّف الرئيس. القانون وضع ايام الانتداب الفرنسي اي في زمان لم يكن للبنان جيش بالمعنى الكامل.

في ايار من ١٩٦٥ كان قائد الجيش اللواء عادل شهاب – وقد أُبقي في منصبه بموجب تعاقد مؤقت – ولم يعد يستطيع، رغم صفاته، مجابهة الصعوبات التي تطرحها علينا الأوضاع العربية والمشاكل العربية – الاسرائيلية.

نقلت إليّ أوساط في الجيش انباء خلافات تعود الى ايام كان فيها الأمير فؤاد شهاب رئيسًا للجمهورية ونوعًا ما قائدًا للجيش. ولكن، هل يستوجب ذلك

تفكيك هذه المؤسسة بحجة بعض الأسباب؟ وكنت أرى ان أكبر ظلامة نلحقها بالجيش تكمن في خطر تقسيمه.

وعكفت على اختيار قائد للجيش ووقع اختيار الحكومة لملء هذا المركز على الكولونيل اميل بستاني الذي كان يرشّحه لهذا المنصب ما كان له من حقوق في الترقية مشفوعة بدعم من رئيس الأركان العقيد شميط وهو على اتصال مستمر بالرئيس شهاب.

لاقى تعيين العقيد بستاني استحسان من قبل الأحزاب المتخاصمة التي كان بعضها يعلّق الآمال على تبديل الأساليب القديمة عن طريق رجل جديد والبعض الآخر لأنه كان يعلم ان العقيد اميل بستاني كان يدعمه الرئيس شهاب.

الشعبة الثانية

وبقي الجدل حول الشعبة الثانية.

هذه الشعبة – وهي تستلزم شروحًا مفصّلة في شأن وضعها ونشاطها، سأعود إليها في ما بعد – كانت تقوم بمهمتين في آن معًا: مهمة المكتب الثاني في الجيش، ومهمة البوليس السري (او البوليس غير المنظور). وأكثر من ذلك، فان الشعبة الثانية كانت تقوم في لبنان بدور أجهزة الاستعلامات، والبوليس السري، ومكافحة التجسس، وهي أجهزة تعمل عادةً الى جانب المكتب الثاني في مختلف البلدان الديموقراطية، بل الأكثر تعلّقًا بالديموقراطية والأكثر حفاظًا عليها.

كان سلفي قد جعل من ضباط المكتب الثاني في ولايته نوعًا من حاكمين بأمرهم يسند إليهم شتى الوظائف والمهمات. وينتقد عند اللزوم مغالاتهم واسرافهم في التنفيذ، وكذلك اخطاءهم.

وظيفتهم – كما الأجهزة البوليسية في معظم الدول – وأهدافهم ومهامهم كانت

تصطدم في لبنان، بمعارضة شديدة وذلك بفعل التقاليد اللبنانية وضيق مساحة الأراضي اللبنانية، لأنهم كانوا دائمًا في مواجهة الأشخاص عينهم والوسائل عينها والولاء عينه، لزعيمهم الرئيس شهاب. لذا كانوا يصطدمون برغبة التغيير، التي نجدها لدى كل الشعوب ولا سيّما في بلد صغير كبلدنا حيث كل شيء يُعرف بسرعة ولا شيء يُخفى.

لم يمثّلوا أكثر من مظهر بين مظاهر هذا الاستمرار، بل هذه الرقابة التي بدأ لبنان يسأمها. فكانوا احدى دعائم الأكثرية النيابية الشهابية، التي تسندهم بدورها وتدعمهم وتحميهم من أجل حماية نفسها أولاً وبفعل العرف الديمقراطي والأسس عينها. كانوا ذا نفع في أساس مهمتهم، ومتفانين في المواضيع الأمنية ولكنهم كانوا في الآن ذاته محميين في تصرفاتهم ونهجهم من قبل النواب والوزراء ورؤساء الحكومات، والصحف التي كانت تتغنّى بإرادة الأكثرية، وبأسس الشرعية الديمقراطية ومظاهرها، كان ذلك نوعًا من وضع عام لم يبد التعرّض إليه أو قلبه سهلاً ولا حكيمًا إزاء الوضع العام والوضع العربي.

كثيرون من اللبنانيين لم يكونوا مدركين ان لبنان كان، منذ سنة ١٩٤٨ وما بعد ذلك منذ سنة ١٩٥٨ وبشكل تصاعدي، الساحة المفضّلة لنشاطات وتحرّكات مختلف أجهزة المخابرات في العالم العربي والعالم أجمع. وذلك بسبب موقعنا الجغرافي ونظامنا الديمقراطي.

فكان علينا ان ندافع عن أنفسنا بما كان لدينا من وسائل.

ومع ذلك يبدو من الواضح جدًا ان «الإصلاحات الجذرية» التي شملت مختلف مراكز الجيش والشعبة الثانية بعد انتهاء ولايتي، لم تساعد ابدًا على استتباب الأمن في لبنان ومن ثمّ لم توفّر الحرية للمواطنين.

على صعيد آخر، ان الجو الذي جرت فيه انتخابات زحله كان سليمًا هادئًا، فان نقل المحافظ سلهب جاء موازيًا لتثبيت سركيس في المديرية العامة لرئاسة

الجمهورية ، فوجدتني اذًا في ظروف من المعافاة والارتياح – في الداخل والخارج – تمكنني من توجيه مجلس الوزراء وأجهزة الدولة نحو هدفين أساسيين :

– الخطة الخماسية التي أضافت إليها مشروع سد النبطية وذلك لأسباب سياسية واقتصادية على حدّ سواء.

الإصلاح الاداري المناسب بل الضروري لكونه احد مستوجبات التصميم . فمن أجل تحقيق مشاريع الانعاش والتطوير المتطلّبة توظيفات مالية ضخمة ، كان لا بدّ من جعل الإدارة كلها سليمة وفعّالة ، ولا سيّما ذاك القسم المكلّف منها بتنفيذ هذه المشاريع .

* * *

الانتخاب الفرعي في جبيل ، منعطف اول في السياسة الداخلية

وتوالت جلسات العمل برئاستي الى ان توفي النائب انطون سعيد (دائرة جبيل الانتخابية) . وقد رمت هذه الوفاة اهله وأصدقاءه في نوع من وجوم كما جعلت الدولة بأسرها امام رُزءٍ صعب.

لا لأن جبيل أقدم مدينة في التاريخ ولا لأنها مقرّ الحضارات المتراكمة ومنها الحضارة التي كان لها الفضل في صنع الحرف الأبجدي وحسب ، وإنما لأن جبيل قد أضحت منذ سنوات نوعًا من ساحة تتجابه فيها وتتنافر أحزاب سياسية تذهب بها غرضياتها ومآربها السياسية – الزائلة – الى حدّ قد ينسيها الإطار العملاق الذي تقع فيه ، من قمم أفقا إلى ضفتي نهر ابراهيم – الذي يحمرّ كل سنة بدم أدونيس – الى شاطئ البحر من حيث انطلقت السفن الفينيقية لتجوب اليم وتكتشف الكون.

ان الأستاذ ريمون اده الذي كان نائبًا عن جبيل من سنة ١٩٥٣ – ١٩٦٤ خسر

المعركة الانتخابية هو وحليفاه في صيف ١٩٦٤ . وفاز حينذاك تجمّع كان من أعضائه المرحوم الدكتور انطون سعيد .

وها نحن امام انتخاب فرعي مفاجئ. فقد كانت هناك عوامل عديدة مرشّحة لتؤثّر تأثيرًا كبيرًا على أجواء المعركة الانتخابية التي أصبحت محتّمة. ومنها ان الانتخابات العامة التي خسر فيها الأستاذ ريمون اده كانت قد سجلت ايضًا عدم نجاح الرئيس كميل شمعون ، مما ترك انطباعًا مزعجًا لدى الناس فيه شيء من عدم التوازن ، على الصعيدين السياسي والطائفي ، في مجلس نيابي كان يضم زعماء بارزين من طوائف وأحزاب اخرى .

فكان لي – وانا في الأشهر الأولى من ولايتي – ان أضع الدولة بمنأى عن الصراع الحاد الذي كان من شأنه قيام مواجهة عنيفة بين الأكثرية والمعارضة لا في منطقة جبيل وحسب بل في سواها ايضًا من المناطق اللبنانية .

فهل أستطيع الحدّ من عنف المجابهة وتجنيب الدولة الاتهامات التي تُرمى بها كل يوم من قبل الجميع بسبب الانتخابات ؟

أما ميلي الطبيعي للصلح والوفاق فقد اصطدم في هذه الدائرة الانتخابية بحواجز كبيرة .

كنت أعلم ان لا شيء يستطيع إقناع الاستاذ اده بالعدول عن ترشيحه في جبيل . هذا حقه . كما هو حق خصومه أيضًا في عدم ترك الساحة شاغرة له . فترشحت ضده أرملة النائب الراحل سعيد .

أمّا الرئيس شهاب فقد أكّد انه بعيد كل البعد عن سقوط اده في الانتخابات . ولم يكن لي اي سبب لأشكّ انا في هذا الزعم . غير ان هذا التصريح حصر معركة اده – سعيد الجديدة في إطار آخر ، وحجّم أبعادها .

كنت آمل من ناحيتي ان الانتخابات الفرعية التي ستجرى في جبيل في الحادي عشر من تموز ستجنّبنا الهزات وتوفّر علينا المتاعب والصعاب .

الحماسة تزداد يومًا بعد يوم في جبيل وكذلك في سائر انحاء البلاد. ومعها تشتد الحمّى الانتخابية والتوتّر ايضًا. انني قد أفهم الغليان المسيطر على كلا الفريقين. ولكن الذي لا أكاد أفهمه هو تلك الحميا التي أصابت بعض أنصار النهج المدنيين والعسكريين – وعلى رأسهم القائد العسكري في المنطقة الزعيم انطون سعد، رئيس الشعبة الثانية السابق، الذي امتاز في الماضي بأكثر من «مأثرة» في سبيل خدمة الشهابية. ولا سيّما انه مفروض على هؤلاء العسكريين ان يعاونوني ويقاسموني الهموم في مختلف الميادين، الداخلية والخارجية على السواء.

على الصعيد الداخلي باشرت الحكومات المتتالية تحويل مشاريع القوانين الملحّة الى المجلس النيابي: ولا سيّما تلك المتعلّقة بالإصلاح الإداري، وأيضًا المشاريع العائدة الى خطة الإنماء المستوحاة من تقرير لوبريه، وهي الخطة التي طالما شغلتني بعد ان شغلت سلفي من قبلي.

على الصعيد العربي كنا قد سجّلنا في قمة القاهرة، المصغّرة، عدة حلول في ما يخصّ صلاحيات القيادة العربية الموحّدة. غير ان الوضع الذي نتمنّاه بل نرجوه للعالم العربي – والعالم أجمع – يتطلّب شيئًا من خلق مستمر. ها نحن مثلاً مضطرون الى الردّ عن خبر نشرته جريدة «الاهرام» يشير الى مشروع – لا أدري من اين مصدر اسمه – حول تدخّل عسكري اميركي – بريطاني في لبنان. هذا الخبر وقد أمسى اليوم منسيًا، أثار آنذاك جدلاً حادًا وبعض الاضطرابات. فتهافتت لجنة الشؤون الخارجية في المجلس النيابي على رئيس الحكومة تطرح عليه الأسئلة وتطلب منه الايضاحات. وذهبت بعض الصحف الى التعليق على هذه الوثيقة المزعومة كما لو كانت حقيقة وصحيحة. هل جرى كل ذلك بغية مزيد من إبعادنا عن الولايات المتحدة وبريطانيا؟

أضف الى ذلك انني كنت منشغلاً يومها في التخطيط من أجل رسم موقفنا في

مؤتمر دول عدم الانحياز المقرّر انعقاده بعد أقل من شهر في الجزائر. فمواضيع الخلاف كثيرة، وتعود أولاً الى مسألة اشتراك دول عديدة منها الهند وباكستان، وكوريا الشمالية وكوريا الجنوبية. ويخشى من أن تؤدّي هذه القضايا الى تقسيم وفود المؤتمر الى فئتين متنافرتين بل أكثر من ذلك: ماذا يكون الموقف السليم ازاء عدة حركات تحرّرية تطالب بحضور المؤتمر والاشتراك فيه شأنها شأن وفود الدول الرسمية؟ وهذه المعضلة ليست مجرد مسألة نظرية ومواضيع قانونية، انما هي مبعث مشاكل مباشرة بين الدول العربية كما من شأنها ان تجلب لنا مشاكل ومتاعب في قلب لبنان تفتعلها أيد غريبة.

إطاحة بن بلاّ

حدّدنا موعد السفر الى الجزائر في الثامن والعشرين من حزيران.

قبل أسبوع من ذلك وبينما كنا نستعدّ لأعمال المؤتمر وقد اتّخذنا عدة مقرّرات لنعرضها على الاجتماعات التحضيرية التي تضم وزراء الخارجية، طلب إلي سفير الجزائر في بيروت مقابلة عاجلة.

أتى ينبئني بانقلاب حصل في الجزائر وقد أطاح بن بلاّ. استمعت الى السفير وقلت له:

«أراني مضطرًا الى طلب، أرجو ان لا يرى فيه الرئيس بومدين تدخّلاً منا في شؤون بلاده الداخلية. ولا سيّما ان لبنان ما كان ليتدخّل يومًا في شؤون الغير. ولكن، على الصعيد الأخوي ولأسباب انسانية، أرجو ان يقبل طلبي بأن لا يلحق اذى بابن بلاّ. وان لا تعرض حياته لمكروه. لقد عرفته رئيسًا للجزائر وممثلاً لها. فأيًّا كانت المآخذ عليه لا أرى ان الجزائر قد تحظى بأي غنم في القضاء على حياة رجل مثلها مدة طويلة».

لم أكن واهمًا أو مخدوعًا في مدى تأثير أقوالي : فأن تُصان حياة بن بلاّ او ان يُقضى عليه ، أمر يعود الى اعتبارات اخرى . ولكن ، من يدري ما قد يكون تأثير كلامي ووقعه – وهو مسعى بين عدة مساع – ولا سيّما ان طلبي هذا يفرضه علي واجبي تجاه نفسي وتجاه لبنان ، وهو يعبّر عن مواقفنا الانسانية في كل ظرف .

لم تحلّ تنحية بن بلاّ مشاكل المؤتمر الاسيوي – الافريقي . بل انها أضافت إليها مشكلة اخرى . فهل يجب الابقاء على موعد المؤتمر المحدّد سابقًا ؟ اذا كان كذلك ، فيستنتج ان الدول المشتركة – ولا سيّما العربية منها – قد تهافتت على تأييد بومدين . هل يجب إلغاؤه ؟ هل يُكتفى بإرجائه ؟ تضاربت الآراء ، ولكن عبد الناصر سارع إلى اتّخاذ تدبير عاجل فأوفد الى بومدين المشير عبد الحكيم عامر في مهمة تقضي بدعم « القمة » مقابل ضمانات في السياسة الجزائرية الجديدة وبشأن مصير بن بلاّ . وطلبت الدول الاسيوية – الافريقية المنتمية الى الكومنولث – وهي أربع عشرة دولة – تأجيل المؤتمر ، وانقسمت باقي الدول بحسب ميولها الأساسية . واجتمع وزراء الخارجية في الرابع والعشرين من حزيران ، في مدينة الجزائر ، للبتّ في مشكلة المؤتمر ولتقرير مصيره . ولم يعد الأمر مجرّد دبلوماسية بل أضحى نوعًا من بهلوانية . وبعد مساع عديدة غير مثمرة أجرى وزراء الخارجية اجتماعًا خاطفًا – وقد دام أربعًا وخمسين ثانية بالضبط – ثم انسحبوا بعد أن كلّفوا سفراء دولهم متابعة الجلسة . وقد قرّر السفراء إرجاء القمة الى الخامس من تشرين الثاني .

الحرب في اليمن ، الأزمة في السودان ، الانقلاب في الجزائر ... هذه المشاكل اضطرتنا في لبنان الى بذل المستحيل لنظل على اتصال مستمر ومرضٍ ، ولنبقى على نوع من حوار مستمر مع سائر الحكومات العربية .

وبينما دمشق تتهم القاهرة وبغداد والكويت بنسف المؤتمر ، كنا نبذل ما في وسعنا لنبقي على علاقاتنا الودية مع سورية فنباشر بسلسلة محادثات في سبيل إبرام معاهدة المرور أو الترانزيت .

أما مجلس الوزراء فقد أقرّ مشاريع القوانين المُدرجة على جدول أعماله ، ابّان جلسة طالت ست ساعات . ثم انه دعا المجلس النيابي الى دورة استثنائية من الرابع والعشرين من حزيران الى الحادي والعشرين من تموز .

عودة دامية الى جبيل

في هذه الأثناء كانت تجري في منطقة جبيل « الاصطدامات » الدامية للمرة الثالثة او الرابعة . فتقرّر إلغاء إجازة حمل السلاح في المنطقة ، وذلك من السادس والعشرين من حزيران حتى الحادي عشر من تموز ، أي الى ما بعد الانتخابات .

كما كنت مضطرًّا الى لفت نظر رئيس الحكومة ، والمسؤولين عن الأمن الى ضرورة تأمين حرية الانتخابات ونزاهتها ، بالرغم من كل الحواجز والعوائق . إنّه مبدأ أساسي بل انها مصلحة الدولة وعلّة وجودها .

قلتها للشهابيين ولأعداء الشهابيين ، وقلتها للوزراء والموظفين ، لذا ، وضعت جانبًا كل اعتبار شخصي ، ولا سيّما انني متأكّد من ان فشل عميد الكتلة الوطنية سيفسّر كنتيجة تدخل عسكري وبوليسي ضد حرية الاقتراع . أما الحكومة – وفيها أصدقاء للعميد – فلم تحرّك ساكنًا لاستجابة مطاليبه . فقرّرت الاستعانة بالجيش كالمعتاد بغية تأمين سلامة الانتخابات وفرض الأمن في المنطقة يوم الانتخاب . ولكن هذه الاستعانة لم تكن ضرورية في نظري اذ الانتخابات فرعية ، وقوات الدرك كافية للحؤول دون وقوع الاضطرابات ، او لوقفها .

اما غياب الجيش فقد يفسّر ، على الصعيدين النفسي والسياسي كخدمة للكتلة الوطنية . وهذا الاعتبار بالذات هو الذي حدا الحكومة على عدم تبديل أي من الاجراءات المعمول بها عادة . التطمين الوحيد الذي حظي به الأستاذ اده جاء في تصريح ناطق عسكري قال فيه ان تدخّل الجيش ليس سوى حماية بعيدة وشبه مستترة . ولكن هذا الوعد عينه لم يحترم يوم الاقتراع .

المعلومات الصادرة عن مختلف مراكز البوليس والأمن العام متضاربة حول مشاعر الناخبين الحقيقية. وكذلك التقديرات. أما من ناحيتي فلا أؤمن في هذه الظروف – كما في ظروف عديدة اخرى – بصدق الأرقام المنشورة وبصحتها وتفسيرها.

اني أؤمن بالتيارات الكبرى التي تقلب الآراء والاحصاءات رأسًا على عقب في يوم واحد. واني أرى الأستاذ اده ذا صداقات متينة في أمكنة متعدّدة. هذه الصداقات حارة، اي ابان انتخابات عامة وشاملة هي مبعثرة، اما في انتخابات فرعية محدودة فيسهل جمعها. وأظن ايضًا ان الرأي العام سيثأر هذه المرة للمرشح الذي خُذل قبل سنة، ولا سيّما ان قسمًا كبيرًا من الناخبين سيجرؤ على تأدية واجبه الانتخابي بعد التصريحات «المحايدة» التي أدلت بها الحكومة.

قُبيل الانتخابات، وبالضبط في الخامس من تموز، أصرّ الأستاذ اده على التوجّه بموكب كبير الى بلدة العاقورة، في جرود جبيل؛ حيث تعرّض لاعتداء. فجرح رجلان كانا مكلّفين بمواكبة العميد، وقد تبيّن في ما بعد انهما أصيبا بعطل فرعي، دائم. كان واضحًا أن المعتدين، لو لم يكونوا محميين، لما أقدموا على فعلتهم. وعلى رغم من تجرّدي، فقد قضى واجبي بأن أحثّ الحكومة على الاسراع في اتخاذ التدابير لدرء مثل هذه التصرفات. وقد توصّلت الى فرض السلام. على هذا الصعيد طبعًا. لأنه غداة فوز الأستاذ اده – وقد فاز على منافسته بفرق شاسع – وجدتني مرمى سهام أنصار الشهابية «الناطقين باسمها». ولكن هذا التهافت علي لم يؤثّر فيّ. وأشك ان يكون اللواء شهاب. قد صدّق انني كنت منحازًا. فهل يعقل ان يفسّر موقفي – القاضي برفض كل وضع قد يسبّب سفك الدماء – كنوع من تدخّل او من انحياز؟ صحيح ان موظفين او ثلاثة موظفين في الأمن العام كانوا يؤيّدون الأستاذ اده. ولكن، ألم يشك هو – الفائز – من التدخّلات والافتراءات المنصبة عليه من قبل عشرات الموظفين؟

لم أبالِ ولم أسعَ الى الدفاع عن نفسي ازاء هؤلاء الذين راحوا الى سلقي يبرّرون فشلهم وخطأ تقديراتهم بل جهلهم وردود فعل الرأي العام التي هي في النهاية الحكم القاطع والفاصل.

يوم أتاني ريمون اده ليشكو من تصرفات الحاكم العسكري ومعاونيه في قطاع دائرة جبيل، وجدتني أفكّر في مدى بُعد الشاكي وغربته عن الأزمة التي أُعاني منها في خلافي مع بعض زعماء الأكثرية، والشهابية السياسية والعسكرية. فابتسمت واستشهدت ببيتي شعر بالفرنسية هما من نظم الأديب اللبناني جورج شحاده. وقد غاب طبعًا عن العميد مغزى هذين البيتين اذ انني اعتصم بحبل التكتّم ازاء مشاكلي:

«آنستي، هاكِ عنواني
كي تكتبي إليَّ بعد وفاتي...»

استقالة الحاج حسين العويني

في النصف الثاني من حزيران غرقت الحكومة العوينية في جدل مع أعضاء المجلس النيابي بسبب مشاريع القوانين المتعلّقة بالإصلاح. رئيس الحكومة، وهو في السراي منذ ثمانية عشر شهرًا دونما انقطاع، يصرّح أكثر من مرة بانه تعب، ولا سيّما انه من خارج المجلس. والذي أتعبه ليس فقط خلافه مع النواب بل ايضًا تباين الآراء بينه وبين الوزراء وهم نواب محنّكون، يقابلونه بشيء من قساوة.

وبعد عدّة مناقشات في مجلس الوزراء وفي المجلس النيابي، جاءني الحاج حسين يطلب إلي إعفاءه من مهامه. وأكثر من ذلك، ففي احدى الجلسات النيابية الصاخبة طرح العويني الثقة بالحكومة، فكان لذلك اثر مستغرب وعجيب اذ هرب بعض النواب من الجلسة. ففي ذهابهم زعزعوا اكتمال النصاب ورفعوا عن أنفسهم مسؤولية الإطالة بعمر الحكومة. جرى ذلك اثناء جلسة الثالث عشر من تموز، وكذلك في جلسة السادس عشر منه أي بعد ثلاثة أيام.

وفي الوقت نفسه كان من الواضح ان بعض الوزراء لم يكونوا مؤهّلين للاشتراك بحكومة تأخذ على عاتقها عملية اصلاح . وكنت اجتمعت غير مرة بمرشح الأكثرية النيابية الأستاذ رشيد كرامي وتباحثت معه في شكل الوزارة التي قد يؤلّفها في حال استقالة حكومة الرئيس العويني . وكان موافقًا تمامًا على فكرة تأليف حكومة ائتلافية يشرك فيها مناصفة ممثلين عن الأكثرية وآخرون عن الأقلية المعارضة .

في التاسع عشر من تموز ، أي عشية انتهاء الدورة الاستثنائية ، استقبلت حسين العويني ، وقلت له انني مستعد ان أقبل استقالته اذا كان ما يزال مصرًّا عليها ، فشكرني . ثم بعد ان اتفقنا على بعض الترتيبات والتفاصيل ، ذهب ليُجري في اليوم التالي ، قبيل انعقاد الجلسة النيابية ، جلسة مجلس وزاري أعلن فيها لزملائه الوزراء عزمه على الاستقالة .

استغلّ خاسرو معركة جبيل هذه الاستقالة ، واعتبروها ثأرًا مبينًا ، بل تدبيرًا تأديبيًا بحق الحكومة التي «خانت النهج» . أضف الى ذلك انه في العشرين من تموز – وهو يوم ذكرى عودة الرئيس فؤاد شهاب عن استقالته في سنة ١٩٦٠ – استغلّ أنصاره الاحتفالات بشكل صاخب .

في هذه الأجواء ، وبعد الاستشارات التقليدية ، كلّفت السيد رشيد كرامي بتأليف الحكومة . غير ان معظم زعماء المعارضة استغلّوا هذا المناخ لإقناع زملائهم بعدم الاشتراك في الحكومة . وخشي بعض نواب المعارضة على مصيري انا . ولكنهم رفضوا جميعًا أي حوالي ٤٥ نائبًا من أصل ٩٩ التعاون مع الرئيس المكلّف . لم أستطع اقناعهم بأن الحكومة الجديدة من شأنها – بحكم تفاعل تسلسلي طبيعي في لبنان – إزالة الحدود الفاصلة بين الأكثرية والأقليّة .

وذهبت جهودي سدى . إذ استطاع ثلاثة من قادة المعارضة – بينهم المنافس الأول للسيد كرامي – الحفاظ على تكاتف الأقلية وبالتالي ، وبحكم ردة الفعل ، تكاتف الأكثرية وتماسك صفوفها . واستطاعت الأكثرية اغتنام الفرصة لتستأثر

بالحكم . فوجدتني مضطرًا الى كبح جماحها ، لأن أسس التوازن في لبنان تقضي باحترام حقوق الأقلية كما حقوق الأكثرية .

بعد ايام من الأخذ والرد ، استطاع رشيد كرامي ، تشكيل حكومة من خارج المجلس . وهكذا خلف الحكومة البرلمانية التي كان يرئسها رجل من خارج المجلس ، حكومة اكسترا برلمانية يرئسها رجل نائب في المجلس . وقد اضطرتني موازين القوى الى هذا التناقض بل هذا النوع من البهلوانية . وفي هذه المناسبة أراني أستعيد قولاً للكاتب ليويس كارول (أخذه حجة في ما بعد مخرج سينمائي شهير) وهو :

«إنما الرجال أطفال كهلوا ، يظلّون في حركة حتى يلقوا الراحة» .

٣١ تموز ١٩٦٥

بدا ان التشكيلة الوزارية الجديدة أقل سوءًا من سواها . فهي مؤلّفة بمعظمها من تقنيين جديرين بالقيام بما يُنتظَر منهم ، وقبل كل شيء : الإنماء والاصلاح .

من ناحية أخرى ، ان الحكومة العتيدة بحكم تركيبها لا تستطيع ان تشكّل أي تحدٍّ بالنسبة الى أي فئة ، بل بالعكس ، فان معظم التيارات ممثل فيها بشكل أو بآخر .

دُعي المجلس النيابي الى دورة استثنائية من التاسع من آب حتى الثاني والعشرين منه .

حاولت الحدّ من شدة التوتر عند جميع الفرقاء بعدم تدخّلي في الاقتراع (للثقة) وذلك في سبيل جعل المناخ السياسي في البلاد أكثر طراوةً وارتياحًا ، ليس فقط خدمةً للبنانيين – وهم محصّنون بنوع من مناعة ازاء شتى الوعكات – بل ايضًا من أجل السياح العرب والأجانب الذين قد يخيّل إليهم وهم بعد في موسم الاصطياف اننا على عتبة ازمات حادّة .

أضف الى ذلك انني بحاجة الى مهادنة وسكون ليتسنّى لي مواجهة المشاكل التي ما زالت ملحّة .

فلبنان ما زال عرضة للتهديد والوعيد بسبب الترتيبات الأولية التي يقوم بها في سبيل الاستفادة من المياه، علمًا بأن هذه الأعمال الأولى قد يسهل إدخالها في مشروعنا الخاص بالري. ولكن المخطط العام – الذي يضم مشروع سد النبطية – لم يحظَ بعد رسميًا بالموافقة العربية. ونحن لا نستطيع رسميًا، وفرديًا، الاعلان عن التخلّي عن بند من مقرّرات قمة الاسكندرية. وجب اذًا انتظار القمة المقبلة المفروض التئامها في أيلول بالدار البيضاء (كازابلانكا).

أما ما نقوم به الآن فعمل وضيع يستطاع إدراجه في المشروع السابق القاضي بتحويل الروافد، او في إطار مشروع جديد لم يُتخّذ بعد قرار به. ولكن «ورشتنا» الصغيرة تسبّب لنا أكثر من تحذير وتهديد من قبل العدو كما تسبّب لنا مناورات من قبل الطيران الاسرائيلي الذي أخذ يقوم بجولات وصولات فوق أراضينا.

أمام عيني الآن الصحف الاسرائيلية الصادرة يومها. هذه هي «معاريف» الصادرة في ٢٥ تموز (وقد استشهدت بها «الانفورماسيون» الفرنسية)، وتلك «دافار» في السابع عشر، وفيها تصريح لليفي أشكول. استدعينا سفيري الولايات المتحدة وفرنسا الى وزارة الخارجية وعرضنا عليهما وجهة نظرنا. نحن واثقون من تعاطف فرنسا والولايات المتحدة معنا ومن تفهّمها لوضعنا. غير انني من الذين كانوا وما زالوا مقتنعين بأن اسرائيل تستطيع، اذا اقتضى الأمر، تخطي كل المحاذير متذرّعة بمختلف الأعذار.

وهذه «الورشة» الكفيلة بجلب المشاكل إلينا والأخطار هي على صعيد آخر غير كافية لوضعنا في مأمن من المزايدات العربية التي أضحت بعض الصحف الصادرة في لبنان صدى لها. فكأن بعض الأحزاب العربية والأفراد يسعون الى إثارة المجابهة العربية – الاسرائيلية الكبرى قبل أوانها، او انهم يسعون الى التسبّب بعدوان ضخم على الأراضي اللبنانية، وجعلنا مسؤولين على التلكؤ في إنجاز مشروع تحويل الأردن – بإبطائنا المزعوم – وذلك بغية إلحاق الضرر المعنوي بنا.

فعزمت أن أوضِح كل هذه الأمور في الدار البيضاء حيث سيتسنّى لي إبرام المقرّرات ذات الطابع القانوني التي اتّخذتها القمتان المصغّرتان، نزولاً عند رغبتنا، في كانون الثاني وأيار من سنة ١٩٦٥.

– ولكن، هل تُعقد قمة الدار البيضاء؟

من يرَ العلاقات السائدة بين الحكومات العربية الآن، يشك في احتمال التئام هذه القمة! ان حرب اليمن تثير منافرة شديدة ليس بين عبد الناصر وفيصل فقط بل ايضًا، ومجدّدًا، بين الرئيس المصري وقادة البعث السوري. وقد اتهم يومها البعث السوري بالتعامل مع مختلف الامبرياليات العدوة، وبرصد موازنة ضئيلة وهزيلة للمجهود الحربي. فردّ البعث على هذه الاتهامات بإذاعة أخبار تعطي عن الرئيس المصري صورة بشعة ومخيفة. (في سورية عينها نشب صراع حاد بين الرئيس امين الحافظ ورئيس الأركان صلاح جديد). أما بورقيبة فهو منبوذ من مصر، ومن دول شقيقة اخرى. وبومدين، هل هضم فعلاً أمر تأجيل (وربما إلغاء) القمة الأسيوية – الافريقية في الجزائر؟

تُضاف الى هذه التساؤلات مسألة أخرى: سيجرى في مطلع ايلول اجتماع دوري عادي للجامعة العربية حيث ستبحث من جديد قضية السوق العربية المشتركة، ومشكلة الوحدة الاقتصادية التي لا يعقل ولا يمكن القبول بها. وليس هناك من قبلنا اي سوء نية. فالوحدة الاقتصادية متعذّرة بل شبه مستحيلة بين دول ذات أنظمة اقتصادية متباينة ومتضاربة،. فما معنى إلغاء الرسوم الجمركية مثلاً بين البلدان العربية اذا كان بعض هذه البلدان تمارس ترخيص الاستيراد وكذلك الرقابة المصرفية في حين لا تعمل البلدان الأخرى بمبدأ الترخيص ولا بالرقابة المالية؟ العوائق التي تتربّص بهذه الوحدة عديدة وبيّنة. ولكنها ليست قاطعة. المآخذ على لبنان – الانتقاد هنا ناجم عن فئة من اللبنانيين أنفسهم كما عن بعض اخوانهم العرب – هو حرية التداول المصرفي

والاقتصادي التي تميّزه. لن يكفي اذًا ان نعطي مندوبينا لدى اجتماعات الجامعة التعليمات الواضحة، بل علينا ايضًا أن نتسلّح ضد الانعكاسات الناجمة عن حججنا عينها. فالمنطق لم يعد يكفي. وبات علينا ان نضيف عليه كثيرًا من الاعتبارات النفسية السيكولوجية و... الأخوية!

قضيت ايام شهر آب استقبل الزعماء السياسيين لا لإشراكهم في هذه المسائل وانما للمساهمة في إحلال مناخ من الوئام والوفاق وهو ضروري للجميع. دعوت النواب الى لقاء في الثامن عشر من آب – ذكرى انتخابي رئيسًا – لأذكرهم بالإجماع الذي حقّقوه قبل سنة وللتعبير لهم عن رغبتي في التعاون معهم جميعًا بصرف النظر عن ميولهم وانتماءاتهم.

احيانًا، ابان أوضاع مأساوية، كم دُهشت؛ وكم ارتحت احيانًا اخرى، ساعة كانت تزورني شخصيات لبنانية او أجنبية وتحدّثني عن أشياء صغيرة. ان عدم الادراك هذا او تلك اللامبالاة يذكّرانني بأحد البريطانيين الذين تحدّث عنهم الكاتب الفرنسي اندره موروا بما معناه:

«اننا غير مدركين. نجتاز الخطر ونحن عنه غافلون. ثم ينتهي الأمر بنا إلى النّصر».

ان عناء كثيرين من السياسيين في مواقفهم السلبية ابان أزمات أوشكت ان تكون مآسي وطنية، وان التهديدات بالاضراب التي كانت تجابهنا بها فئات متضاربة مطالبة بتحسين سبل العيش (رفع الأجور، المنتوجات الزراعية، الخ...) بين حرب حزيران ١٩٦٧ وبدء الاعتداءات العسكرية الاسرائيلية على الأراضي اللبنانية، كانت كلّها توحي في آنٍ معًا الأسف والهزء والاطمئنان.

فقد اتضح لي ان المعابر الخطيرة التي كنا نمرّ فيها لم تسبّب عند مواطني اي جزع او هلع. لعلهم كانوا يرون من حقهم ان يلقوا على كاهلي كل همّ خارج عن مطاليبهم. هوذا الواقع، شئنا ام أبينا. ولكن له محاسنه ايضًا: انه ينم عن نوع من

الايمان والثقة بطاقات البلاد كما بساستها. وهذا يساعدنا على مجابهة الوضع بارتياحٍ أكثر.

... وفي أعقاب ايام كان العالم بأسره قلقًا اثناءها على مصيرنا كنت استوضح معلومات مختلف أجهزة الدولة، حول ردود الفعل التي سببتها هذه الأحداث، فاتّضح لي ان العمليات العقارية لم تتوقّف، والمداخيل الجمركية لم تتدن، والودائع في المصارف تضاعفت! أما المطاليب فقد بقيت على حالها وقد يرافقها تهديد بالاضراب.

عاليه ٣١ آب

دورة المجلس النيابي الاستثنائية التي شغلت الجميع طوال شهر آب اختتمت بهدوء ونالت حكومة رشيد كرامي الثقة بأكثرية كبيرة: ٦١ صوتًا مقابل ٣٢.

كانت المأدبة التي أقمتها في الثامن عشر من آب ملتقى نواب مختلف الأحزاب والكتل والاتجاهات. والحق يُقال انهم لم يبدوا اخاءً متبادلاً ولكنهم لم يتخاصموا. بل انهم التقوا حول المائدة الكبرى.

بعد ذلك ألقيت كلمة ذكّرت فيها بالأسس الرئيسية في نظامنا القائم على الخيار الحرّ والتعاون الأخوي.

كما ركّزت على الفكرة عينها في مختلف مراحل جولة قمت بها في أرجاء البلاد حتى قمم الأرز. والغاية الخفية من هذه الجولة إرساء مناخ وفاق وارتياح، ووضع حدّ للتوتّر بين الفئات المتخاصمة في زغرتا، هذه البلدة الابية، حيث البنادق تشكو من سرعة إطلاقها.

انصبّ فضول الصحافة والرأي العام على مشاريع الاصلاح التي أقرّتها الحكومة الجديدة في خطى الحكومة السابقة. وساهم صحافيون – من ذوي النيات الحسنة أو السيّئة – في إلهاب المخيّلة الشعبية بعرضهم هذه المشاريع كأنها حملة تطهير عامة

للإدارة والعدل على السواء. وبين المغالاة في قلق البعض والمبالغة في أمل البعض الآخر، وقعت الحكومة منذ البدء في بوادر العجز. إلاّ أن هناك متسعًا من الوقت لمعالجة ذلك. وفي هذه الأثناء كانت الحكومات العربية تشهد نوعًا من الهدوء النسبي ومن المهادنة ازاء بعضها بعضًا، فصار أمر عقد قمة الدار البيضاء مستطاعًا.

في الرابع والعشرين من آب، وصل الملك فيصل الى القاهرة حيث استُقبل بحفاوة ودية.

أما الحسين ملك الأردن فقد استجاب لدعوة خاصة، وببساطته وشجاعته المعهودتين، جاء الى لبنان في أواخر آب ليقضي بضعة ايام في ربوعنا. انها أول زيارة له بعد المؤامرة التي دُبِّرت قبل خمس سنين ضدّ سلَفي والتي زُجّ في عداد المتّهمين بها – عن حقّ أو باطل – اردنيون من مختلف المستويات.

لم تسبّب زيارة العاهل الأردني أية ردة فعل في لبنان، مما يدل على ان الأهواء والعصبيات قد فترت.

* * *

اتّسم شهر آب ايضًا، بسلسلة من الانتصارات الصغيرة، ثأر فيها الشهابيون لأنفسهم بواسطة محاسيب متحمّسين. ولكن، ممن الثأر؟ وعلامَ؟ فهل يعقل ان يكون سلفي قد زجّ بنفسه الى هذا الحد – حدّ الغرق – في انتخابات جبيل حتى أمست بالنسبة إليه فشلاً شخصيًا!.

كيف وصلنا الى ذلك؟

بالرغم من استقالته في العشرين من تموز، هوذا الحاج حسين العويني، الرجل الطيب، ماضٍ في التصريح ان استقالته لم تأتِ نتيجة أمر وُجِّه إليه – كما أُشيع – من قبل ضابطين كبيرين (وقد اختلفت الروايات فقيل أربعة ضباط). لكن كثيرين من الذين يسمعونه او يقرأون تصريحاته يهزّون برؤوسهم ريبة.

سأتخطى التعليقات التي أوحت بها وما زالت تثيرها هذه الاستقالة. ولكني لن أتغاضى عن موضوع آخر: الملاحقة التي شكا منها الصحافيون بعد أن سيق بعضهم أمام القضاء العسكري بتهمة المسّ بمعنويات الجيش – أوقف ثلاثة صحافيين وتبعهم آخرون. الوضع شائك. صحيح ان هؤلاء الصحافيين قد خالفوا القوانين. ولا شك في ضرورة تطبيق الاجراءات القانونية بحقهم. ولكن، لِمَ التعريض بالجيش والتجريح به على هذا الشكل؟ قلتها لضابط في الجيش فردّدها، نزولاً عند رغبتي، على مسمع من الرئيس فؤاد شهاب، وهو أبو الجيش وقائده طوال سنوات عديدة.

الفصل الثامن

مؤتمر الدار البيضاء

ميثاق التضامن العربي

مصير الفلسطينيين

زوال التوتّرات اثناء الاجتماع المغلق

نحو استراتيجية موحّدة

وجوه جديدة في المؤتمر

الدار البيضاء في ١٣ ايلول ١٩٦٥

ها نحن في الدار البيضاء (كازابلانكا). الأنظمة العربية قد أعطت خلافاتها هدنة، ونفسها نوعًا من استراحة، – استراحة المحارب – فأتيح لنا الاجتماع. مرّ الملك فيصل في الرابع والعشرين من آب بالقاهرة حيث استقبل بحفاوة. البعث خفّف من حدّة لهجته كلامًا وكتابة. وأنا، اجدني تجاه المشاكل عينها التي واجهتني في الاسكندرية. ولكن، شتّان بين المناخين. وما أعظم البون بين كلا المؤتمرين. لقد أعددت كل الملفّات لجميع المواضيع القانونية والاقتصادية والعسكرية...

وافقت قمة القاهرة (المصغّرة) على التفسير اللبناني لمقرّرات الاسكندرية. وأحالت على القيادة العربية الموحّدة قرار نتيجة – تصويت – المجلس النيابي اللبناني وهي تقضي بفتح الأبواب للجيوش العربية اذا لزم الأمر ولكنها توصدها امام كل مزايدة أو مهاترة.

علاقاتي بالزعماء العرب تضاعفت، فجعلت منها منطلقًا لتأييد ودعم قد احتاج اليهما. وصرت اشعر بارتياح وأنس بين زملائي وقد نشأت في علائقنا الفة.

استقبلنا الحسن الثاني، ملك المغرب، بحفاوة وها انه يستأنف معي – تارةً بالعربية وطورًا بالفرنسية – حديثًا بدا لكلينا أنه حديث العقل والقلب معًا. ثم

انصرف انا الى تسجيل التغييرات التي حصلت بين القمتين ، ومنها غياب المشير عبود الذي أُقيل في تشرين الثاني الماضي وحلّ مكانه مجلس ثوري يرئسه السيد اسماعيل الأزهري .

رئيس الحكومة السودانية احمد محجوب بهرني وبدا لي ذا ثقافة واسعة ومزايا لا تحصى . انه طويل ممشوق يشكّل سترته بزهرة ، وهو واثق من نفسه معتدٌّ بها ، ومرتاح ارتياح صاحب الشأن في عالمي السياسة والثقافة .

ومكان بن بلاّ حلّ هواري بومدين . وجهه نحيل ، شبه مثلّث ، وفيه سكينة الزاهد . قلّما يخرج عن صمته . لغته العربية ممتازة . وقد تبيّن لي خلال استراحة بين جلستين ان لغته الفرنسية هي ايضًا ممتازة . وأعتقد انه اشترك في قمة الاسكندرية عضوًا في الوفد الجزائري . ولكنه الآن رئيس وفد بلاده بل رئيس الجزائر . ويخيّل اليّ ان التقدّم الذي احرزه انما رفع مستوى القمة كلّها . فشخصيته ووقاره يجعلانه اكثر من عضو في المؤتمر بل نوعًا من رقيب عليه . أما الحسن الثاني فانه يقوم بدور صلة الوصل والحكم بأناقته المعهودة .

... لا شكّ في أن قمة الدار البيضاء ذات « طلّة » تختلف كل الاختلاف عن قمة الاسكندرية .

هناك تغييرات أخرى أيضًا . الأمير فيصل – وهو اليوم الملك فيصل – ذو شأن وهيبة متعاظمين ولكنه لم يبدّل شيئًا من بساطة مظهره وقد بدا كالناسك في عباءته . وجهه نحيل ، ونظره عميق كأنّه داخلي ، ببطء ودون تكلّف . أمّا صمته فخارجي : بل انه هو الذي يطبق – عمدًا أو عفويًا – وعلى خير وجه المبدأ القديم القائل ان البلاغة الحقيقية تزدري البلاغة . بل اكثر من ذلك : ان الملك فيصل يجيب عن بعض الأسئلة بشكل سؤال . ممّا يزيد في فعاليّة اجابته التي هي ثاقبة محرجة .

اني اعير انتباهي الى تصرّف الجميع وأرقب كل تحرّكاتهم وهذا أسهل عليّ اليوم بعد ان غدوت اقلّ مراقبة لنفسي . صرت ذا خبرة بأشياء كثيرة منها الثقة التي يتحلّى

بها من يعرف انه ليس على حق وحسب انما يعرف ايضًا كيف يعرض حجّته وبراهينه . فتعلّمت انه لا يجب اللجوء الى المجابهة الصرفة قبل التسلّل الى ألباب السامعين بولوج سبل الممكن .

مناقشات حادّة في الجلسات العمومية

بدأت جلسات الجمعية العمومية في قاعة المجلس البلدي بالدار البيضاء وفي رأس جدول الأعمال تقرير السيد احمد الشقيري رئيس منظمة التحرير الفلسطينية .

طالب الشقيري باتّخاذ قرارات بعضها انساني ، لازم التحقيق ، والبعض الآخر صعب التنفيذ أو مستحيل ، واخطأ اذ خرج عن تقريره بارتجاله كلمة شرح فيها ان الفلسطينيين مضطهدون في اكثر من دولة عربية .

فسأله الملك فيصل :

– ما هي البلدان العربية حيث يلقى الفلسطينيون ظلمًا ؟

ارتبك الشقيري اذ لم يكن يرغب في الاختلاف مع احد من الزعماء العرب .

فاغتنمت الفرصة للتغني بلبنان ودعوة الدول العربية الأخرى الى مزيد من الانصاف في حمل اعباء القضية أو المأساة ، وقلت :

« اني ألحظ بصورة عامة في بلادنا – وهي ارض يهجرها سكّانها لضيقها فيغتربوا – ان عدد اللاجئين الفلسطينيين قد تضاعف منذ سنة ١٩٤٨ هذا يعني اننا نستقبلهم استقبالاً وديًّا يفوق طاقاتنا . اني متأكّد من ان الدول الشقيقة – وهي أوسع من بلادنا وأغنى بكثير – ستسعى ليس فقط الى ان تحذو حذونا ، بل ستحرص على مسابقتنا في صراط الضيافة ! » .

شكرني السيد احمد الشقيري وسحب من كلامه القسم المتعلّق بلبنان . ثم ارجئت المناقشات الى جلسة لاحقة .

هناك موضوع آخر في جدول الأعمال، مسألة تحويل روافد الاردن، وخطتا القيادة العربية الموحّدة الدفاعية والهجومية. في اثناء مناقشة هذا الموضوع – اي في الجلسة التالية – وقف الرئيس السوري امين الحافظ وبدا كأنه يستأنف كلامًا كان قد بدأه في الاسكندرية. قال:

«اننا نضيع الوقت. كان علينا ان نكون مستعدين...»

فقاطعه عبد الناصر بشبه عنف قائلاً:

«علينا ان نعالج كل الأمور وان نوضح نياتنا جميعًا!».

وحدّق الى أمين الحافظ مليًّا وتابع:

«هناك من يدّعي انكم تسعون الى زجي في المعركة فأتسرّع وأمنى بهزيمة».

اشتدت اللهجة وارتفعت الحرارة العامة فرُفعت الجلسة نزولاً عند رغبة اكثر المؤتمرين (ستستأنف في ما بعد ولكن بطريقة جديدة. اذ ستقتصر الاجتماعات على رؤساء الوفود – وهم ثلاثة عشر ملكًا ورئيسًا – بالإضافة الى الأمين العام وقائد القيادة الموحّدة).

انسحبنا اذًا وسط جلبة لا توصف وكانت أصوات زحزحة الكراسي قد عمّت الجوّ في القاعة الكبرى.

في أحد المعابر المؤدّية الى الباب الخارجي التقيت الرئيس العراقي عبدالسلام عارف الذي كان قد سبّب لي اكثر من مضايقة ومن ازعاج في الاسكندرية. هفّ اليّ. فتعانقنا. وقد بدا رجلاً آخر أظهر لي أخلص مشاعر الودّ. ثم طلب اليّ ان نتابع حديثنا في الفندق. كما انه اظهر رغبة في دعوتي الى زيارة بغداد. فدهشت وسررت بهذا التصرّف. فالتبدّل في مشاعر عارف بالنسبة اليّ يوازي تبدّل مؤتمر بمؤتمر آخر ممّا يستحق الذكر في كلامنا على قمّة الدار البيضاء.

التعاطف والمنطق في الجلسات المقفلة

الرابع عشر من ايلول ١٩٦٥

تبدّدت الغيوم وصفا الجو منذ اول جلسة «سرية» (اي مقتصرة على رؤساء الوفود وحسب)، وعادت الابتسامة الى الشفاه. وراح الملوك والرؤساء القاعدون حول الطاولة الكبرى يتخاطبون دونما تكلّف وبشيء من ألفة. وعاد اسم الرئيس السوري امين الحافظ «ابو عبدو» كما كان عود الى استعمال الكنية في مناداة الرئيس العراقي عبد السلام عارف وهو ابو احمد.

عرضت موقفنا وحججنا دونما عناء، ودعا جمال عبد الناصر زملاءه الى الصراحة القصوى فطلب اليهم ان يدخلوا «كرسي الاعتراف». وطلب محجوب، ممثل السودان، بأن توقف حملات الجرائد والاذاعات بين الدول العربية. بالاضافة الى ذلك كنا نرى ضرورة اعادة تحديد بعض المبادئ كي تكون قواعد لتعاون عربي صريح. فسمي كل هذا «ميثاق التضامن العربي».

اول بنود «الميثاق» احترام النظم الدستورية في كل دولة عربية. وأقرّ الجميع انه بالإمكان أن تتعاون أنظمة سياسية مختلفة بغية الوصول الى أهداف مشتركة. اغتنمت الفرصة لأذكر بأن احترام النظام الدستوري اللبناني يقضي بعدم تجاهل صلاحيات المجلس النيابي اللبناني اثناء المناقشات والقرارات.

أمّا البند الثاني من «الميثاق»، وهو يتعلّق بوقف الحملات الصحافية، فكان منطلقًا لانتقاد الصحافة اللبنانية. فذكرت اسماء عدة جرائد ومجلات لبنانية تارةً بغضب وطورًا بروحٍ ساخرة متهكّمة يعرفها معظم الزعماء العرب.

ثم وقف الحسن الثاني ببشاشته ولطفه المعهودين وأعطى القانون اللبناني كمثل يُضرب وكشريعة تُتبع اذ ينهي عن المساس بالملوك والرؤساء الأجانب وقد أثّرت فيّ



ايلول ١٩٦٥. القمّة العربية في الدار البيضاء. الملك الحسن الثاني في استقبال الرئيس اللبناني.

كثيرًا هذه الملاحظة، اذ ذكّرتني بلطف كلي ان بعض الصحف اللبنانية كانت قد نشرت مقالات معادية للعاهل المغربي. فقمت أشرح الوضع عندنا. فقلت:

«ان أجهزة الاعلام اللبناني الرسمي (اي الراديو والتلفزيون) بوق امين لمشاعرنا الأخوية الصادقة تجاه البلدان الشقيقة وزعمائها جميعًا».

«أمّا الصحافة فحرّة. اجل هناك قانون يحظّر المساس بشخصيات رؤساء الدول. غير انه عندما تحصل مثل هذه الجنحة نبقى حيارى اذ غالبًا ما نلحظ، مع الأسف، ان ملاحقة الصحيفة المخالفة تسيء اكثر مما تنفع. لأن كل ملاحقة قضائية تجعل من المخالف بطلاً او شهيدًا. كما انها تحمل صحافيين - قد يكونون من غير اتّجاه المخالف - على التضامن معه. وانها الى ذلك تحرّك محامين كثيرين يسعون الى ان يكونوا «المدافعين عن المظلوم أو الضعيف». اخيرًا، ان المحاكمة تلفت الأنظار والانتباه الى المقال (موضوع الملاحقة) او الى مقالات اخرى للكاتب.

سألني الرئيس عبدالسلام عارف ما هو الحلّ اذًا لهذه المشكلة، أجبت:

«اذا تفضّل الأخوان العرب بعدم مهاجمة بعضهم بعضًا عبر منابرنا اللبنانية وصحفنا، نكون قد اجتزنا مراحل كبيرة في معالجة وضعهم ووضعنا».

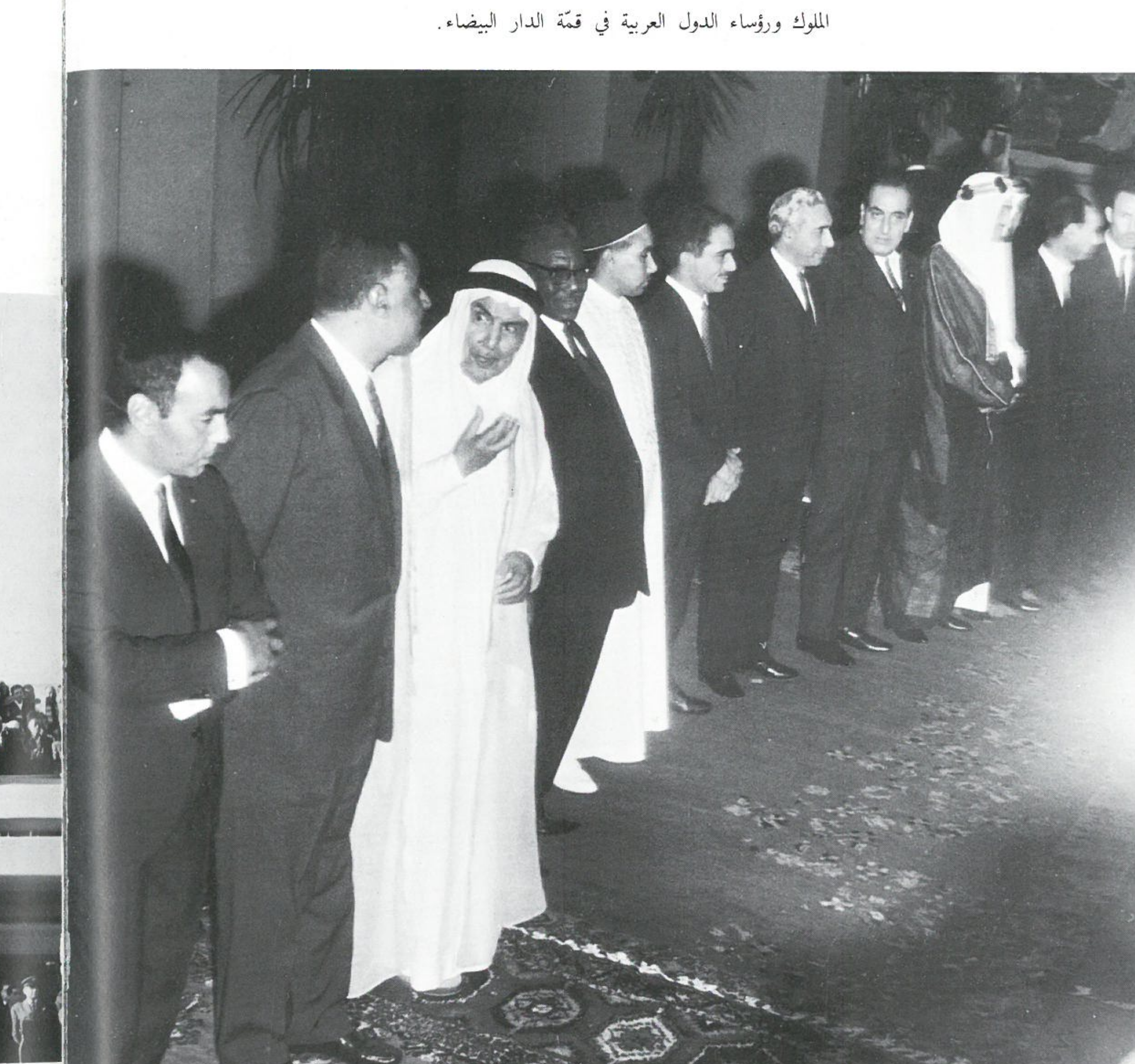
في ما يخص اشغال تحويل مياه الاردن كان سهلاً عليّ، كما في الاسكندرية، ان اثير قضية عدم التجهيز العسكري في القيادة الموحّدة، فاستطيع بذلك ان اجنب بلادي المغامرة. ولكني قد اكتسبت خبرة كافية لأنهج نهجًا مختلفًا في تقديم الحجة بشكل يفيدنا دون أن يُذلّ أحد.

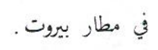
ان الأعمال في القطاع اللبناني تقسم الى قسمين اثنين. القسم الأول - اي الوزاني وسريد - هو جزء من القناة اللبنانية - السورية - الاردنية. وهو الأكثر تعرّضًا ولا يتطلّب اي اسراع نظرًا لتعذّر وصل القسم السوري بسبب تلكؤ السوريين في الأشغال. امّا القسم الآخر - وهو لبناني محض ويتضمن تحويل الحاصباني



خلال قمّة الدار البيضاء
في أيلول ١٩٦٥.

الملوك ورؤساء الدول العربية في قمّة الدار البيضاء.





في مطار بيروت.





الجموع تحيط بالرئيس
عند وصوله إلى بيروت .

رجال الدين بمختلف طوائفهم ينتظرون وصول الوفد الرئاسي.



المتوسط نحو الليطاني – فلا يمكن القبول به على الصعيد الدولي إلاّ اذا كانت المياه المحوّلة ستستعمل لحاجات لبنانية . لذا وجب اولاً بناء سد في النبطية . ومن أجل بناء هذا السد طلبت – دون امل كبير في استجابة طلبي – ان يشترك جميع العرب معنا في التمويل او ان نحظى بقرض من الصندوق العربي المشترك ، كما هي الحال عادةً في تمويل الاشغال التي تسمّى «ملحة» وخطرة .

في الواقع ، لم اكن متحمسًا للحصول على تمويل عربي لهذا السدّ بقدر ما كنت ارجو ان يتبنّاه المؤتمر وان يدرجه في المخطّط العام . فأستطيع حينئذٍ ان اعطي هذا المشروع الانمائي الأولوية بالنسبة الى الأشغال الأخرى .

كلامي – ناهيك عن تأخير المشروع السوري – أدّى الى اتّخاذ قرار يقضي بالاستمرار في الخطة المرسومة للبنان وسورية والاردن . ولكن ، بآجال مختلفة ، وبترتيب جديد للأولويات ، وذلك ريثما يؤمّن الدفاع العسكري بشكل أفضل . ويطلب في القرار ايضًا من «لجنة استثمار مياه الاردن» ان تجري اتفاقًا مع السلطات اللبنانية بغية تقديم سلفة مالية من اجل المباشرة في انشاء سد النبطية . فبات الموقف اللبناني على هذا الصعيد ، واضحًا و «مؤمّنًا» .

أمّا على الصعيد العسكري

أشرت الى كلمات في التقرير أراها خاطئة ، فقال لي عبدالناصر :

«لا تهتم بالأمر فسأتدبّره بنفسي» . وهو رئيس الجلسة (ورئيس الدورة أيضًا) .

ولمّا وصل النقاش الى الفقرات التي تخصّنا ، قال على مسمعٍ من الجميع :

«لندرس الآن مطالب القائد الأعلى في شأن الجبهة اللبنانية وفي شأن الجبهة السورية» ...

ولم يتطلّب الأمر اكثر من ذلك للتفريق بين الجبهتين ، وتجنّب الجدل ، وحلّ المعضلة .

وفيما يخصّنا اجبت على مطالب القائد العام وقلت بعد استشارتي لرئيس الأركان اللبناني :

ان لبنان مستعدّ ،

– أولاً : لتشكيل وحدتين من المغاوير مؤلفتين من عناصر لبنانية وتعملان في نطاق الجيش اللبناني . فلا مجال ، مبدئيًا وعمليًا ، إلى وحدات اخرى على الأرض اللبنانية .

– ثانيًا : ان لبنان مستعد لتأليف وتدريب سرب من أسراب الطائرات التي تطلبها وتموّلها القيادة العربية الموحّدة .

وهل من فائدة للتذكير بأن القمة العربية كانت قد ألقت على كاهلنا بعض التدابير الرامية إلى مضاعفة قدرات قواتنا المقاتلة في مختلف المجالات الحربية إن على الأرض أم في البحر والجوّ .

هذه التعزيزات العسكرية يموّلها في قسمها الأكبر الصندوق العربي المشترك الذي يتم تمويله هو من قِبل الدول العربية الثرية ولا سيّما «النفطية» منها . كما يموّل ايضًا بفعل مدخول اضافي ناتج عن اسهام جميع الدول العربية حسب مقياس اسهامها في موازنة الجامعة .

يستخلص من ذلك ان كل دولة عربية تدفع الى الصندوق المشترك حسب طاقتها ، وتسحب من الصندوق – بواسطة القيادة الموحّدة – حسب حاجتها .

ان لبنان ، اذ تعهّد بإعداد الطيارين وباقي الاختصاصيين من اجل انشاء سرب طائرات مقاتلة ، قد ادّى واجبه تجاه المجموعة العربية ، وتجاه نفسه اولاً ، فقد كان من غير المعقول – ان نكتفي بوضع قواعدنا الجوية في تصرّف القوات الجوية العربية

الأخرى – ولدينا رجال كفء نستطيع تدريبهم على استعمال الطائرات كما ان الأموال الضرورية لذلك تقدّمها لنا القيادة الموحّدة .

لما طُلب الى الدول ان تحدّد اسهامها الجديد في الصندوق المشترك ، صرّح مندوبو اكثر من دولة (منها السعودية والكويت) بانهم يؤثرون تقديم العتاد لا المال . لذا سيشكّلون اسرابًا من طائرات «الميراج» ويضعونها في تصرّف القائد الأعلى . وأشار القائد الأعلى الى انه لا يستطيع ان يدفع لنا إلاّ على اساس الطائرات الأقل كلفة ، اي طائرات ميغ ١٧ . وعلينا ان ندفع الفرق اذا شئنا التمسك بالميراج . بعد خروجنا من الجلسة درست قيمة هذا الفارق المالي مع أعضاء الوفد اللبناني ولا سيّما مع الزعيم يوسف شميط رئيس الاركان ، والسيد الياس سركيس المدير العام في القصر الجمهوري .

كان علينا في خيارنا بين الميراج والميغ ان نتّخذ قرارًا ذا تبعات مادّية وأبعاد سياسية . فالميراج بالنسبة الى الاختصاصيين افضل من الميغ كما ان تخصيص طيارينا في فرنسا أسهل بكثير . فاختيار الميغ في الظروف التي كنا فيها قد يكون خيارًا سياسيًا لا سابق له عندنا . فأعلنّا ، من حيث المبدإ ، انشاء سرب من طائرات الميراج على ان تتم طبعًا المعاملات القانونية بين الجهات العسكرية والسياسية اللبنانية وبين القيادة العربية الموحّدة .

التعهدات العربية ومصيرها

وختمت مقرّرات الدار البيضاء بالفقرة التالية :

«ان تعهّد الملوك والرؤساء العرب الشفهي كفيل وحده بتحقيق التزامهم بالتمويل» .

مع العلم ان الزعماء العرب لم يكتفوا بالتعهّد الكلامي وإنّما وقّعوا جميعًا في ذيل المستند.

من حقّي إذًا ان اكون مرتاحًا على جميع الصُعد.

لقد حقّقت جميع اهدافنا وهي اولاً تبرير الأعمال الرامية الى استثمار مياهنا. وثانيًا توقيت الأشغال بشكل تجنبنا في آن معًا، المزايدات (من جهة) والاعتداءات (من جهة أخرى). وثالثًا – ولعلّه الأهمّ – وهو ان قمة الدار البيضاء قد وافقت على مقرّرات القمة المصغّرة التي التأمت في كانون الثاني وايار من ١٩٦٥. وكنا أثناء هذين المؤتمرين قد اتّخذنا كل احتياطاتنا السياسية والقانونية على السواء. اخيرًا، جاء ميثاق التضامن العربي يسند نظريتنا ويدعم حجتنا الدائمة في وجوب التعاون الأخوي بين أنظمة متباينة النهج بل مختلفة تمامًا، وفي احترام النظم الدستورية لكل دولة.

شعرت في أثناء المناقشات – كما في اجتماعاتي الجانبية مع الزملاء العرب – انني في جوّ ودّي، وادركني ارتياح حقيقي. هاك احد «جيراني» حول طاولة المناقشات يطلب عوني لدعم وجهة نظره أو لمتابعة عرض فكرته. لا بد من القول ان «جاري الأيمن» اي امير الكويت المأسوف عليه الشيخ عبدالله السالم الصباح، مزعوج باستمرار من جرّاء تلميح وغمز ولمز يتكاثر حول استعداده لمزيد من المساهمة في الصندوق المشترك. انه الرئيس السوري امين الحافظ مصدر هذا الغمز، كما انه هو عينه يرنو الى الامكانات الهائلة لدى امير ابو ظبي الشيخ شخبوط (وقد خلع في ما بعد) الذي اشتهر بجمع الثروات الطائلة وبتكديس المال في أقبية داره وحتى تحت سريره. لكن الشيخ عبد الله السالم الصباح ما كان يشكو من نقص في الكرم او في روح الفكاهة. فهو ساعة يشعر بأنه موضع النقاش يستغل ضعف سمعه ويعتصم بالصمم. فاضطر انا – جاره – الى تلخيص له ما يُقال فأنقل اليه الكلام بتعابير ألطف وأعذب.

ان وضع برنامج لتقوية الجيوش العربية رجالاً وعتادًا، واقراره أمر سهل.

ولكن، ينبغي تحديد اجل تطبيق هذا البرنامج. والزمان عنصر أساسي بالنسبة الى كل عمل من هذا النوع، لأن مضاعفة الطاقة العسكرية لا تعني في النهاية اي شيء. فالمقدّر لعامٍ واحد قد يمسي غير كافٍ، بعد انقضاء سنتين. والذي أعدّ لأجل طويل معرّض ايضًا للخطر فقد يُقدم العدو على شلّه أو محوه قبل ان يُنجز.

نحن اتّخذنا لأنفسنا مهلة ثلاث سنين من أجل التوصّل الى الطاقة العسكرية التي تطلبها القيادة الموحّدة.

هذه القمة التي بدت في البدء صعبة الالتئام، انتهت اذًا في جوّ شبه عجائبي. وقلت في نفسي: «هذا حلم رائع اذا تحقّق، ولكن، هل تمهلنا الأحداث؟».

بعد ثمانية عشر شهرًا اندلع بين الدول العربية واسرائيل ما سمّي بحرب «الأيام الستة». قبل ذلك كانت قد استؤنفت حرب اليمن وشلّت القيادة العربية الموحّدة.

كأنما العرب اعدّوا الطريق للاجتياح والاحتلال!...

الفصل التاسع

جولة أفق على سنة ١٩٦٥

جولة أفق على سنة ١٩٦٥

مخطّط الانماء

العلاقات العربية

الأحداث الدولية

تطويب الراهب شربل في رومة

«يا وطني»...

نظرة خاطفة على السنة الأولى

٢٢ ايلول ١٩٦٥

ها هي سنة ورائي. بل ربما اكثر من سنة ان ادخلنا في الحساب اشتراكي في قمة الاسكندرية.

اني لا أحب الاحتفالات بالأعياد والتذكارات السنوية، لكنّها تسمح بجرد ما مضى وتقويمه:

– بذلت أقصى جهدي غير انني وضعت الثقل كلّه في الشؤون الخارجية لا الداخلية. واجهت مشاكل خطيرة – ولا شك اني حلّلت الكثير منها – غير ان محاورها وأخطارها، وربما حقيقتها البسيطة، قد غابت عن ادراك الكثيرين – أمّا كيف يكون ذلك ممكنًا؟

لم يغب عن الرأي العام اني واجهت في بضع مناسبات احداثًا ذات حجم جديد لم يألفه تاريخنا. منها قرار المجلس النيابي القاضي بالسماح، وبعدم السماح في آنٍ معًا، بدخول القوات العربية الأراضي اللبنانية. وقد أثار هذا القرار منذ ان صوّت عليه المجلس في شهر كانون الثاني نوعًا من هزّة. كما امسى مبعثًا للتأمل والتفكير. لكن الذاكرة قد استهلكت هذا الحدث وكأن طاقة النسيان قد ابتلعته واستنفدته ومحته. ربما ينفع الشعوب ان تجهل داءها فتعاكس الطبيب.

في الداخل ، مهّدت لاطلاق مشروع خماسي للانعاش والانماء ، وأحلنا على المجلس بعض عناصره العامة . كذلك احلنا مشروعي اصلاح . وقد اقترع المجلس على احدهما . أمّا الآخر ففي طريق الاقرار .

تشهد البلاد ازدهارًا حقيقيًا وخير دليل على ذلك : اجازات التعمير ، الرسوم الجمركية ، مداخيل الخزينة ، وأرقام صادراتنا .

العهد السابق وهذا العهد

لكن كل هذا غير داخل في الحساب وكأني به ملحوظ ومستحق . بل لازم . فالرأي العام يطلب شيئًا آخر . الصحافة التي تتحلى بلطف اللسان تبدي مللاً وعدم صبر بيّنين – انها تثير موضوع الاصلاح . ماذا تراها تعني به ؟ – لا شك ان المطلوب ليس اصلاح الادارة إنّما الوصول الى تغيير اعمق واكمل . فما هو هذا التبديل المنشود ؟

– هاكه ! انه شريعة أساسية في جنسنا تجعل النيام اعينهم يتقلّبون في مضاجعهم يأملون الراحة تارةً من جهة الشمال وطورًا من جهة اليمين . فكم بالأحرى الذين لا ينامون ! ان النظام الديمقراطي البرلماني قد لحظ هذه «الحاجة الى جديد» واستدرك حتميتها . فهو يشفي غليلها باسقاط الحكومات وبقلب الاكثريات الحاكمة اذا اقتضى الأمر !... لا شك ان المواطنين يشكون من عدم الاستقرار الناتج عن ذلك ، ولكنهم قد يشكون اكثر من الجمود . اي من السأم والملل اللذين يولّدهما الاستقرار ويغذيهما .

أشياء كثيرة تغيّرت ولا شك في علاقة رئاسة الدولة بالمواطنين . فأنا استقبل بنوع من العطف نفسه التيارات ذاتها . اني ازور كل المحافظات لأقف شخصيًا على حقيقة حاجاتها . ولست من أجل ذلك مضطرًا الى مواكبة كبيرة .

تسنّى لي أن أقوم بزيارات ست الى الخارج . ولكن المعطيات الأساسية للمسائل

التي كانت مطروحة على سلفي ما زالت هي هي : على الصعيد العربي ، ان المحاور الأكثر فعاليّة وصاحب الشأن الأكبر هو جمال عبدالناصر . في علاقاتنا الخارجية ، ان صداقتنا مع فرنسا تثير اقل مشاكل من سواها وتبقى لنا الأجدى . في الداخل ، احتفظت الاكثرية النيابية بنفوذها وحافظت على زعامتها . لا ننس ان المجلس الذي انتخبني كان باكثرية ثلاثة ارباعه قد أعلن في البدء عزمه على اعادة انتخاب سلفي وان اضطره ذلك الى تعديل الدستور . الأكثرية مستمرة اذًا في تسيير اللعبة البرلمانية . وقد كان بالامكان ادخال تغييرات عليها – ولو جزئيًا – لو قبلت الأقلية الاشتراك في الحكومة التي شكّلت في تموز . هذه الأكثرية مستمرة اذًا في طريقها وما تزال مرتبطة بعلاقات دعم متبادل مع «الشهابية» السياسية والعسكرية . حتى خُيّل الى الرأي العام ان هناك استمرارية متعمّدة في الرجال والوسائل فيتمتم تاركًا لبعض الزعماء مهمة الاحتجاج الصريح والعالي .

ولكن ما لي ولهذه جميعًا ؟ هل هي إحياء شعبية خاصة ام الحفاظ على مصالح البلاد الأساسية ؟ واجدني الجأ الى ما أجده على مقربة مني فاستعمله .

ان الشعور باستمرار العهد السابق يزداد رسوخًا بعد اعادة انتخاب صبري حماده رئيسًا للمجلس النيابي . صحيح ان صبري حماده قد رئس المجلس سنوات عديدة تشكّل اذا جمعت ربع قرن وذلك قبل ولاية فؤاد شهاب وبعدها . وصحيح ايضًا ان الذي ساهم في انتخابه مرة جديدة هو انقسامات الاقلية النيابية التي راحت تتأرجح بين مرشحها المعهود كامل الأسعد ومرشّح تسوية اقترحته انا .

انني اكتفي بذكر هذا الأمر وبتسجيله وحسب . ولكنه يبدو لي اقل اهمية بكثير من الأحداث الخطيرة التي تتسارع .

تشرين الأول ١٩٦٥

ها هو الفريق علي علي عامر، القائد الأعلى للقوات العربية يلبّي دعوتنا ويزورنا. في العشرين من تشرين الأول، استقبلته ومعاونيه مع كبار الضباط اللبنانيين في جو ودّي كبير. انني اجزم بأنه، بعيدًا عن «الكوميديا» التي تقوم بها بعض المجالس العربية، سيقرّ بالواقع الناجم عن مشاكلنا، وبالحلول التي نقترحها.

هناك حدث آخر لا يقلّ اهمية عن الأول: زيارة نائب عبد الناصر وصديقه المشير عبدالحكيم عامر الى باريس في منتصف تشرين الأول، اي خمسة اشهر بعد زيارتي وشهرًا بعد قمة الدار البيضاء. أمضى نائب الرئيس المصري خمسة ايام في فرنسا، وراح يتنقل بين نصب الجندي المجهول في ساحة النجمة في باريس، والمعمل الذري في بلدة ساكلاي حيث المفاعل النووي الضخم الذي يحمل اسم اوزيريس، إله الموت والبعث عند المصريين. وقد ذكر البيان المشترك الذي صدر في كل من باريس والقاهرة في ٢٠ تشرين الأول ان «زيارة نائب الرئيس المصري قد سجّلت مرحلة جديدة وفتحت صفحة هامة في تطوير العلاقات بين البلدين».

... ونشرت الصحف في صفحاتها الأولى: «عبدالناصر يدعو ديغول الى زيارة الجمهورية العربية المتحدة».

على صعيد آخر. ان رئيس الحكومة المصرية الجديدة، زكريا محيي الدين، هو أيضًا مستعد للحوار مع الغرب. وبالأخص مع الولايات المتحدة. ابدال واشنطن بباريس اذًا غير وارد. ولكنها هي واشنطن التي صارت تطول على العرب وتنأى عنهم.

هناك تقلّبات جديدة في سوريا — في الحادي والعشرين من تشرين الأول اعتُقِلَ السيد اكرم الحوراني نائب رئيس الجمهورية الأسبق، وبعض رفاقه، وزجوا في السجن. البعض الآخر فزع الى لبنان. وهنا راح ينتظر اليوم الذي يسقط فيه

اعداؤه — المنتصرون الآن — فيفزعون بدورهم الى ديارنا وينعمون بالموئل الذي ينتقدوننا اذ نقدّمه الآن الى خصومهم.

ما زال المؤتمر الآسيوي الأفريقي (المقرّر في الجزائر) يثير الجدل. هل سيلتئم؟ هل يلغى؟ ان ارجاءه — الذي ارجوه — يوفّر انشقاقًا عربيًا خطيرًا.

في هذا الإطار العربي والدولي تتراكم مشاغلنا الداخلية: أُقرّت التشكيلات القضائية بعد خلاف طويل بين رئيس الحكومة رشيد كرامي ووزير العدل اميل تيّان.

ويسأل المنتقدون:

— هل هذا هو التطهير المرتجى؟

نجيب:

— كلا! ليس هذا الاّ جزءًا من التشكيلات — ولكن الذين يحتّجون صارخين انه ليس كافيًا سيصرخون اكثر وسيرفعون اصواتهم زيادة عندما سيأتي «الاصلاح» الذي يطالبون به.

التخطيط والانماء

في جلسة مجلس الوزراء (٢٢ تشرين الأول) انتقينا من مشروع الانماء والانعاش المقرّر في نيسان مجموعة مشاريع بقيمة ٢٧٢ مليون ليرة (حوالى مئة مليون دولار) ونطلب من المجلس النيابي التصويت على الاعتمادات اللازمة.

اعطينا الأولويّة للأشغال المتعلّقة بالمساكن الشعبية، وبالمصحات، والمختبرات، والمدارس المهنية، والمدينة الجامعية، والكهرباء والري. (ولا سيّما تلك التي تسمح لنا باستعمال روافد الاردن دون مجازفة).

كانت حكومة سابقة قد أقرّت هذه المشاريع في نوار المنصرم. غير اننا اضطررنا الى احالتها مجدّدًا على المجلس لأسباب عائدة الى اصول الاجراءات.

ويبدي المنتقدون تعجبهم : – هل هذه هي كل خطتكم في سبيل الانعاش والانماء؟

نجيب :

– كلا ! تفضلوا وراجعوا مقررات مجلس الوزراء . ان مشروع الانماء الكامل يقدّر بحوالى مليار ليرة .

– ولكن هذا كلّه تعداد لمشاريع لا علاقة للواحد منها بالآخر . انه ليس خطة .

– لا ريب ! لأن ترقيم المشاريع من أجل طلب الاعتمادات يرفقه تعداد وجمع ومجموع . أمّا اذا شئتم المزيد فتفضلوا وراجعوا الدراسات والشروح والمذكّرة المسهبة التي نشرتها وزارة التصميم . وهي مرفقة بالمشاريع .

غير ان هذا الانتباه كلّه مستحيل لدى منتقدين متهافتين .

الصحافة

في أواخر شهر تشرين الأول دعوت مجلس نقابة الصحافة الى القصر . كان بودّي محو الذيول وكل الآثار الباقية من الملاحقات القضائية اثر انتخابات جبيل . كما كنت مصممًا على تطبيق توصيات « ميثاق التضامن العربي » . بشأن المسّ بشخصية رؤساء الدول – وهي جنحة يطالها القانون ! شرعت بالدعوة الى نسيان الماضي . ثم اعلنت عن صدور قانون العفو بشأن الجنح والمخالفات الصحافية . وذكّرت بأن لا حرية صحيحة دونما شعور بالواجبات والمسؤولية . – فهل يجوز مثلاً تعريض رئيس الدولة أو الجيش لحملات افتراء خطيرة؟

كان جوّ الاجتماع وديًّا بل عائليًا . في اليوم التالي ، أحال مجلس الوزراء الى المجلس النيابي مشروع القانون الذي اعلنت عنه .

بعد يومين ، شاء احد الصحافيين ان يمتحنني في حسن نيّتي وعزيمتي ، فتعرّض اليّ بشكل اضطرت معه النيابة العامة الى ملاحقته .

وهكذا كان فبينما كانت السلطة التشريعية تصوّت على قانون عفو بالنسبة الى الجنح السابقة ، كانت السلطة القضائية تلاحق مخالفًا في جنحة جديدة . قبل اربعين سنة ، كان رفاقي في المدرسة يعاكسون المعلم اللطيف أو الناظر الرحوم . ويخطئ من كان يظن ان مثل هذا العبث الصبياني يزول مع الزمان ويتوقّف ! .

٢ تشرين الثاني ١٩٦٥

الغيت قمة الجزائر ، فقد اتفق وزراء خارجية الدول الاسيوية الافريقية على قرار يرجئ اجتماع رؤساء الدول الى اجل « غير مسمّى » . بذلك ستوفّر الدول العربية على نفسها مناسبة جديدة للخلافات في ما بينها ، وأراني بذلك مرتاحًا ومسرورًا .

٣ تشرين الثاني ١٩٦٥

نحن الآن عرضةً للعدوان الاسرائيلي . اعتداءان متتاليان منذ اول تشرين الثاني . الاضرار محدودة ولكن العدوان أثار موجة احتجاج عارمة في البلاد وفي المجلس النيابي . اننا لم نتعوّد بعد العنف على أرضنا . وحرب حزيران (١٩٦٧) هي التي ستفتح عيوننا على ما سينزله العنف الاسرائيلي بالفلسطينيين وبالعرب عمومًا .

هذه الأحداث مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بلا شك بالسياسة الداخلية في كل من اسرائيل وسورية . فبعد الانتخابات النيابية في اسرائيل قام ليفي اشكول يسعى – بدعم من بن غوريون وبتحريض منه – الى تشكيل حكومة ائتلافية . فتبنى من أجل ذلك سياسة العدوان . وردًا على هذه السياسة ، راح الرئيس السوري يدعو الفلسطينيين الى لقاء قريب في القدس . انه « ثأر » كلامي من نوع آخر ! ...

٧ تشرين الثاني ١٩٦٥

يبدو ان واشنطن تشجب الاعتداء الاسرائيلي على لبنان. فكأن هناك جهودًا في سبيل التفهم والتفاهم تبذل في الولايات المتحدة والعالم العربي جميعًا. في العاشر من تشرين الثاني، اقترحت الحكومة الاميركية ان يمدّد اربع سنين لمنظمة الاونروا. وطالبت بمزيد من المساهمة في تمويل صندوق وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين.

معاني الاستقلال

١٩ تشرين الثاني ١٩٦٥

صوّت المجلس النيابي على مشاريع الانماء (٢٧٢ مليون ليرة) بالرغم من تردّد بعض النواب الذين يرون ان مناطقهم محرومة. بعد اسبوع سيصار الى التصويت على مشروع المساكن الشعبية (اربعون الف مسكن بأربع مئة مليون ليرة).

في الثاني والعشرين من تشرين الثاني – وهي الذكرى الثالثة والعشرون لاستقلال لبنان – عمدت الى الشرح ان الاستقلال ليس فقط في نيل الوطن حريته، بل انه يستوجب ايضًا ارساء قواعد اقتصادية سليمة في مضمون اجتماعي.

اننا نود – ونستطيع – الاحتفال بالاستقلال في تعداد المشاريع التي حقّقناها: اعمال الري، المواصلات، ملايين الكيلوات الكهربائية، آلاف المعلمين في مدارس جديدة، مئات كيلو مترات من الطرق المعبدة... ان هذا العرض الذي يقدّمه رئيس الدولة لأول مرة على شاشة التلفزيون امام مئات الوف المشاهدين والمستمعين يبعث في النفوس تأثيرًا بالغًا. ولا سيّما انه يسلّط الأضواء على الروابط المتينة التي تجمع كل ما هو اجتماعي واقتصادي وثقافي وسياسي... وذلك بطريقة تفسّر سياسة الدولة وأهدافها. ثم قمت بمحجة الى بلدة راشيا وقلعتها حيث اعتُقل سنة ١٩٤٣ نخبة من الذين ساهموا في صنع الاستقلال. وقد حلّلنا عقدة «الانتصار» على الانتداب

الفرنسي منذ زمن طويل، ولا سيّما اننا من زمان نرى في الاستقلال خلقًا مستمرًا وانتصارًا دائمًا على أنفسنا.

بين الشرق والغرب

تبدو في هذه الأيام علاقات الدول العربية، في ما بينها وبالنسبة الى الغرب، في تحسّن ملحوظ.

الحسن الثاني الذي سيزور مدينة بون قريبًا قد يقوم بدور الوسيط بين العالم العربي وجمهورية المانيا الاتحادية.

هناك محادثات في سبيل خلق تعاون اقتصادي وزراعي بين واشنطن والقاهرة. ان مصر بحاجة الى القمح الاميركي. والفرصة سانحة بالنسبة الى الولايات المتحدة للاشتراك في احلال السلام في الشرق الأوسط. أما الصراعات العربية فتبدو في نوع من هدنة.

في اليمن، التقى الجمهوريون والملكيون حول طاولة مفاوضات بحضور مندوبين من قِبل عبد الناصر وفيصل.

ولكن، ها هي قضية بن بركة تفجّر كل شيء اذ تخلف المغرب مع فرنسا وأيضًا مع التقدميين العرب.

ميثاق التضامن العربي قد مُزّق. دمشق اتهمت الرباط، وكالمعتاد هبّت الصحافة اللبنانية تشارك في الصراع. استدعى الحسن الثاني سفيره في بيروت. في الوقت عينه وقعت مشاكل في العراق لم يعرف مصدرها ولا أسبابها ولا نوعها راديو بغداد يتّهم الامبرياليين والعملاء بخلق الفوضى.

٢٤ تشرين الثاني ١٩٦٥

مات الأمير. عاش الأمير.

توفي امير دولة الكويت صديقي، وخلّي، وجاري في المؤتمرات العربية. فخلفه في الامارة شقيقه الشيخ صباح السالم الصباح. وقد بدأ الأمير الجديد عهده باتّخاذ مبادرة «اقتصاد» فقرّر تخفيض مخصّصاته الرسمية من ١٢ مليون جنيه استرليني الى ثمانية ملايين. أمّا اذا أضيف الى هذا المبلغ مجموع المداخيل التي تعود الى الأمير من اسهامه في بعض الشركات ومن ودائعه المصرفية، فيستطاع تقدير مجمل مدخوله السنوي بحوالى عشرين مليون جنيه استرليني، ممّا يساوي حوالى خمسين الف جنيه في اليوم او مئتي الف دولار.

ولا شك ان على الأمير واجبات شتى: بعضها اجتماعي والبعض الآخر سياسي. ولكن الأرقام المتعلّقة بمداخيله تتركك حالمًا.

على كلٍّ، ليس من ارقام «سحرية» أو عجائبية تقي اصحابها من المرض أو الموت.

عندما سألتقي الأمير في ما بعد، أو يصطاف في لبنان، سأجده كالمعتاد باسمًا، باشًا، لطيفًا:

ان لبنان لا يطلب منه إلاّ صداقته. ان هذا الاحجام يقلقه إلى حد ما. هل هو دليل عدم ثقة به أو قلّة صداقة نحوه.

اول كانون الأول ١٩٦٥

اعطى الرئيس الاميركي ليندون جونسون الضوء الأخضر لارسال مزيد من المنتوجات الزراعية الى الجمهورية العربية المتحدة. ان المفاوضات التي ستبدأ بعد أسابيع ستدور حول ارسال شحنات بمبلغ ٥٥ مليون دولار. هل يستمرّ هذا التعاون؟ وإلامَ؟

اختتام المجمع الفاتيكاني الثاني

٨ كانون الأول ١٩٦٥

يحمل الينا هذا الأسبوع على الصعيد الروحي آمالاً كبيرة هي مبعث فرح وطمأنينة. اختتم المجمع المقدّس (الفاتيكاني الثاني) ببهاء وروعة: روما والقسطنطينية (استنبول) رفعتا معًا الحرم الذي كانت كل واحدة منهما قد رمت به الأخرى سنة ١٠٥٤. وان هذا الاقدام الممتلئ تفهمًا ومحبة ستعم ابعاده العالم أجمع. ولا سيّما لبنان حيث تعيش بضع طوائف مسيحية فرّقتها قورن طويلة من سوء ادراك وعداء بين الشرق والغرب.

من ناحية أخرى، أُقيم احتفال كبير في الفاتيكان هذا الأسبوع، على هامش المجمع، ولا بدّ من ان يهمّنا نحن اللبنانيين ويذهب بنا كل مذهب: تطويب الراهب اللبناني الماروني شربل مخلوف. ناسك من جيلنا، كان مجهولاً حتى في وطنه، يُرفَع فوق المذابح ويُكرَّم بين الصالحين والقديسين من قِبل مئات ملايين المؤمنين الذين يكوّنون الكنيسة الجامعة. نجم لبنان ساطع يملأ الدنيا. وانه في مثل آخر نضربه لأنفسنا، بل انه موضع تأمل جديد. ونحلم بما قد يكون لبنان في كلا الدارين لو كان عنده عوضًا عن المنتقدين، والمستشارين المشيرين، والزعماء والقادة المتسلّطين... اجل، لو كان عنده في سائر طوائفه الروحية – مسيحية واسلامية – عدد من الرجال الشبيهين بالراهب شربل مخلوف.

على صعيد عام، اني اؤمن بالمثل اكثر من الفعل. لأنّ الفعل يبقى مقيدًا ومنوطًا بعوامل الزمان والمكان والوسائل في حين المثل (أو القدوة) لا حدّ لتأثيره ولأبعاده. بل اني ارى ان أهمّ ما في الفعل، وأنجع ما فيه، بل «أفعله» اذا جاز التعبير، هو المثل الذي يضربه في التفاني والشجاعة. هذا الرأي أو الايمان له تبريرات اقوى في وطننا حيث مقومات الوجود هي ذات طابع اخلاقي. فالوحدة الوطنية عندنا، وأمننا في

الداخل والخارج ، ورسالتنا في العالم ... كلّها متصلة اتّصالاً وثيقًا بمفهومنا للأخوّة والمحبة . فالانسانية الحضارية التي نؤمن بها لا تكون ولا يمكن ان تكون إلاّ من خلال الشفافية التي منها تتجلى روح الله في البشر . وأنا أفدي كل سياستنا – الداخلية والخارجية على السواء – وأبدّلها بمثل يقدّمه الينا بعض البررة والصالحين .

فرنسا ومصيرها

١٠ كانون الأول ١٩٦٥

اننا نرقب من بعيد ، وبشيء من تعجّب ، سير الانتخابات الرئاسية الفرنسية . الدورة الأولى التي جرت منذ أيام ادّت الى « بالوتاج » . فهلاّ يُنتخب ديغول في الدورة الثانية ؟ نحن نرجو ذلك بل ننتظره .

... وصحّت تصوّراتنا وتقديراتنا !

غير ان صعوبة هذا النصر « المضني » صعقت اخواننا العرب جميعًا . وقد بحثت في هذا الموضوع بالذات مع معظم سفراء الدول الشقيقة .

إنّ من حق الناخبين الفرنسيين ان يقترعوا الى جانب المرشّح الذي يؤثّرون . ولكن في الخارج ، وفي عالمنا بالذات ، اي العالم العربي والعالم الثالث ، تبدو فرنسا كأنما تصارع قدرها !

يا بلدي

باريس ١٩٧٣

لا أريد أن أُنهي هذا القسم الأول من روايتي في التوقُّف عند ظرف طارئ . ففي سنة ١٩٧٣ هذه ، حيث أصف سنواتي الستّة في الحكم (١٩٦٤ – ١٩٧٠) ، أستبق الأحداث قليلاً . وإني ، إذ أتخطّى فترة ولايتي الرئاسية برمّتها ، أجد نفسي ثانيةً

في حالة من التأمُّل والارتعاش حيال رؤيا إجمالية لبلادي ، لبنان هذا الذي يمثّل ويلخِّص كل القيم الروحية والزمنية التي أتعلّق بها .

أثناء تنقُّلاتي في الخارج ، كما خلال عزلتي في الكسليك ، أُعيد إلى الذاكرة أبيات شاعر لبناني عاش في مطلع القرن ، هو شكري غانم . يحلو لي أن أُنغِّمها وأُنشدها مقاطع مقاطع . تُرى في أي مجموعة سوف أعثر عليها من جديد لأُكمّلها ؟

كان شكري غانم يقول للبنان هذا ، الذي أحبّه هو مثلما أُحبّه أنا :

« ... وأَقضي
« لياليَّ في البحث عن جهدٍ كبير أُحاوله
« وإذا ما أَكْرهتُ نفسي هكذا ، مع أَنها تعبة ،
« على بعض الطموح ، فإنّما لأُرضيك ... » .

وأيضًا :

« ابْتسِم ليُضيء قلبي قليلٌ من النور ،
« من تلك الابتسامة الفتيَّة النديَّة في الأزمنة الغابرة ... »

حقًّا إنني ، كي أُرضي لبنان ، أُكره أيضًا نفسي على مزيد من الطموح . فأُكْثِر من الاجتماعات والمحاضرات في عواصم أوربا وجميع القارّات . وإني لسعيد وفخور بأن أُنتخَب رئيسًا على الجمعيَّة الدوليَّة للبرلمانيِّين الناطقين باللغة الفرنسية . وفي خلال سبع سنوات أُعيد انتخابي على رأس هذه الجمعية . وحيثما توجَّهت من باريس إلى ليون وفرساي ، ومن جزيرة موريس إلى كندة ، ومن السنغال الى ڤال روست ، ومن بلجيكا إلى غِرْينسيه ، كنت أحمل لبنان معي وأُنشده . وإليكم ما نشرَتْه جمعيَّتُنا تحت توقيعي :

« انْظروا . إنّ لبنان هو هذه السلسلة المِرْوحيَّة الشكل من الجبال والتلال والحقول المسطَّحة التي تنحدر انحدارًا خفيفًا نحو البحر ، من القمم الثلجيَّة المكلَّلة بالأرز إلى

الشواطئ الساطعة بالشمس. إنّه هذا الرأس العالي المنتصب على الشاطئ الشرقي من البحيرة المتوسِّطة القديمة، كما هو أرض استقبال وصداقة وأرض التقاء حضارات وعبادات. إنّه هذه المشارف حيث يهبّ الروح، وأحد الملتقيات الأكثر ارتيادًا في الكرة الأرضيَّة.

هل تعرفون هذا البلد حيث تُزهر شجرة البرتقال؟ وحيث تبدو شجرة اللوز كتذرُّر لامِع، ذهبيّ وفِضّي؟ إنه بلد «اللبن والعسل»، تغنّى به الحكيم في نشيد الأناشيد:

«هلُمّي معي من لبنان، يا خليلتي، وأنا أُتوِّجك...»

كلّ المسافرين في الشرق يُفردون له مكانًا مختارًا في رواياتهم وفي قلبهم: زوّارًا كانوا أو جنودًا أو شعراء أو دبلوماسيين أو تجّارًا أو سيّاحًا عاديِّين. ونخصّ بالذكر القادمين من فرنسا، صديقتنا الدائمة، منذ غِليوم الصُّوريّ إلى مؤرِّخي الأخبار أَمْسِ واليوم. اقْرأوا رينان الذي ترك في عمشيت، القرية اللبنانية الصغيرة، جثمان شقيقته هنريات، ولامرتين الذي أبقى اسمه مخلّدًا على احدى غرف القصر في بيت الدين حيث جرى استقباله.

وقد كتب غبريال هانوتو، أحد زوّار لبنان الفرنسيين:

«جلست الحكمة البشريَّة في ظلّ الأرز المتأصِّل في القِدَم».

وقال باريس:

«لبنان أرض ذكريات ومليئة بالبُذور...».

(وها هو شاعر لبناني، من جملة شعراء آخرين عديدين، يُنشد بالفرنسية):

«يا بلادي، إن جميع العُطور المتزج فيها الرّاتينج بالملح البحريّ، تُقيم في كل قطعة من ترابك الناعم.
مثل حديقة فسيحة...».

إنه أرض صغيرة جدًّا على الخريطة. مساحته؟ عشرة آلاف كيلومتر مربّع. لكنّها ملأى بتقاليد عريقة، بأبراج صغيرة مستدقّة وبتماثيل، بقباب ومآذن، وبكل الشواهد على إخلاصنا وآمالنا.

إنّه بلد صغير ذو مصير عظيم: ذلك هو لبنان الذي عاصمته بيروت (بيريت الرومان مع مدرسة الحقوق الشهيرة في عهدهم)، وفيه مدن كبرى كان لبعض منها أروع إطلالة في التاريخ. هذه هي صور وصيدون اللتان انطلقت منهما المراكب الثلاثيّة المجاذيف لاكتشاف العالم؛ وهذه هي بعلبك، الهضبة العالية حيث الهياكل مسرح لمهرجانات تحاول في كل منها جوقات من الأحياء أن تبعث الآلهة الأموات؛ وطرابلس المدينة المثلّثة ذات الحضارات المنضمّة؛ وبيبلوس أمجدها وأقدمها، وهي التي تحمل نواويسها أثر اكتشافها الأبجدية وتنهض دليلاً عليه.

إن لبنان الصانع الأمين للنهضة العربية لا يتنكّر لشيء من الثقافات التي أكسبته إيّاها، خلال القرون، شخصيته الحاليّة: من ثقافة فينيقيّة وآراميّة وفرعونيّة ويونانيّة ورومانيّة وبيزنطيّة وفرنكيّة.

وقد نقَشت إحدى جامعاتنا على الرخام هذه الشهادة على «تحقيق في بلد المشرق».

«إن تفكيرنا الأَصفى، ووريثَ أثينا وروما وباريس، ينطبع، بفضل اهتمام معلِّمينا، في نفس أولاد لبنان المُعْترِفة بالجميل...».

هذا الانفتاح على العالم المتوسِّطيّ، لا بل على العالم بأسره، هو إحدى المميِّزات اللبنانية. فنحن، في جميع الميادين المرتبطة بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا (الاقتصادي والاجتماعي والثقافي) بلد تبادلات لأن اجدادنا ونحن قد أدركنا وشعرنا، منذ زمن بعيد، أن التجارة ليست فقط تبادل خدمات وسلع وأصناف، وإنما أيضًا اتصال وتبادل بين الأفكار والقلوب.

وعلى الصعيد الثقافي بنوع خاصّ ، إنّ ما يسمّى بازدواجيّة لغتنا انّما يتّسم بهذه العلامة المميِّزة أنه ليس تخالفًا ولا محاولةَ تقاربٍ لثقافات تفصلها حدود إقليميّة أو دينيَّة أو اجتماعية ، بل هو مزيجٌ منها .

لقد حمل آباؤنا إلى الغرب عوامل من تراثهم الروحي ، زادت في غناها المساهمات اليونانيّة واللاتينيّة. وإذ ننقل الآن إلى الشرق العربي ما في الثقافة الفرنسية من قيم رفيعة ، إنَّمَا نُدرك اننا نبقى أوفياء لرسالتنا فنساعد على أن تنتشر في الشرق والغرب إنسانية أنبل وآمل في آنٍ ، مثلما هي على مستوى العالم بأسره وفي خدمته .

ممَّا لا شكَّ فيه أن الإنسانيّة أساس رسالتنا التي تتجلَّى ليس فقط في طريقة تصرُّفنا بل أيضًا وقبل كل شيء في طريقة وجودنا .

إن لبنان هو الوطن الجامع للعائلات الروحية المتشاركة التي تفرض إرادتها في العيش معًا التفاهم المتبادل والتسامح في مناخ من العدالة والحرية .

إنَّه ليحلو لي أن أكرِّر في كلِّ ظرف : نحن ملخَّص بشريّ ، أخويّ ومسالم ، قيمتُه قيمةُ مَثَل وأهميَّته تتخطَّى منطقتنا وزماننا . وبالرغم من مشاكلنا ونواقصنا ، كما نحن عليه ، فاننا نظهر منذ الآن كتجسيد مسبق لما ترغب البشرية جمعاء ، بدرجة من الغموض متفاوتة ، في أن تصير إليه : أُسرة مُدركة للتضامن العميق بين جميع أعضائها ، وواقفة نفسها على احترام أسمى القيم ، ليس لمجرَّد إيثار عقائدي ، بل بدافع الحاجة إلى المحافظة على مبرِّرات عيشها الذاتية وشروط خلاصها عينها ؛ بشريَّة تكون في نهاية الأمر متحوِّلة ذاتيًّا أي متغيِّرة الوجه بفضل الحكمة والمحبة .

المطبعة الكاثوليكية ش.م.ل.
عاريا ، لبنان — ١٩٨٤

التصميم والإخراج : جان قرطباوي

هذا المؤلّف هو الأوّل من سلسلة هدفُها، دونَ سواه، المساهمةُ في تاريخ لبنان.

كيف كانت المعطيات الأساسية لسياسة لبنان الداخليّة والخارجيّة في عهد الرئيس شارل حلو (ايلول ١٩٦٤ – ايلول ١٩٧٠)؟ وكيف كانت علاقاتُ لبنان بالعالم العربي ودول العالم حينذاك؟

وما كان محور مؤتمرات القمم العربية التي سبقت حرب حزيران ١٩٦٧ وتلتها؟ وعلى ماذا قامت وبصورة خاصة، قبل هذه الحرب وبعدها «قيادة الجيوش العربية الموحّدة» التي احدثت تأثيرًا كبيرًا في مجريات الأحداث في لبنان والشرق الأوسط؟

كيف كان ويجب أن يكونَ أيضًا، دورُ لبنان في الشرق الأوسط؟

هذه المذكّرات تُلقي ضوءًا جديدًا على الماضي، وربّما على مستقبل بلادنا.

بدقّةٍ شديدة، وحِرصٍ على قول الحقيقة (الحقيقة التي عرفها وعايشها)، يُدلي المؤلّفُ بشهادةٍ أمينةٍ قد تُساعد في تنوير جيلنا الفتيّ بالأخصّ، على معرفة الأسباب العميقة للمحنة التي ورثوها وتوضيح رؤيتهم لحاضرهم وغدهم.